الأخلاق والسياسة

محمد مختار الزقزوقي

١٩٩٨

مكتبة الانجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

محتويات الكتاب *

تمهيد واقترب

لم تعرف الحياة السياسية الإغريقية سوى (دولة / المدينة) ــ تضاريسها الجبلية فرضت عليها العزلة ــ الحكام يؤثرون العزلة لصالحهم ــ الرق دعامة الإقتصاد ــ المنزلة الاجتماعية الأولى عند المواطن هى العمل السياسى ــ النعرة القومية الإغريقية ــ الدين محلى ــ الفكر الإغريقى يبحث طبيعة الفرد وطبيعة (المدينة / الدولة) ــ الإنسان حيوان سياسى بطبعه .

الفصل الأول

الفلاسفة الثلاثة الكبار

(سقراط وأفلاطون و أرسطو)

١ ــ عند (سقراط) علم النفس نقطة البدء فى الأخلاق ــ السياسة تظهر من تحت عباءة (سقراط) ــ تقييم محاكمته يتم من خلال السياسة والأخلاق معا ــ ارتباط الأخلاق والسياسة عنده .

٢ ــ وعند (أفلاطون) لافصل بين الأخلاق والسياسة ــ السياسة عدالة الدولة والأخلاق عدالة الفرد ــ (كتاب الجمهورية) هو نظرية (أفلاطون) فى الأخلاق والسياسة ــ القوانين تجعل الناس أخيارا وحياتهم ممكنة ــ الأخلاق سيكولوجيا الفرد والسياسة سيكولوجيا الجماعة .

٣ ــ و (أرسطو) لا يفصل بين الأخلاق و السياسة ــ السعادة عند الفرد و الجماعة ــ توسيع (أرسطو) لتعريف (السياسة) ليدخل فيها (ما هو واقعى) .

---

* يحسن بالقارئ أن يرجع أيضا إلى (دليل الكتاب)

الفصل الثانى
البعث الجديد
(٣٣ ــ ٤٢)

آدم الجديد وطفل البعث الجديد ــ إمكانيــات الإنســان الجديــد ــ فلورنسا بعد أثينا صاحبة الفضل على التراث الإنسانى ــ الفوضى فى إيطاليــا ــ السفير الفلورنسى ((ماكيافللى) كاتب رغم أنفه .

الفصل الثالث
الشيطان وتعاليم الشيطان
(٤٣ ــ ٧١)

ماكيافللى يلتقى مع (قيصر بورجا) بطل (كتاب الأمير) ــ الكــاتب الفلورنسى يفصل فى هذا الكتيب بين الأخلاق والسياسة ــ رجال الكنيســة والأخلاقيون يشعلون نيران التشهير بــ (ماكيافللى) ــ العذر لماكيــافللى) فى اختيار (قيصر بورجا) بطلا لــ (كتاب الأمير) فإيطاليــا كــانت بــلا سيادة و بلا زعيم .

الفصل الرابع
من التشهير إلى التقدير
(٧٣ ــ ٩٢)

إيطاليا تنقل رفات (ماكيافللى) إلى (بانثيون فلورنسا) تكريمــا لــه ــ فرنسا تنشر ترجمات أعماله كاملة و (روسو) يشيد به ــ ألمانيا ومفكروهــا أمثال (هيجل) و (رانكى) و (فيشته) ... إلى أخره يقــدرون تفكــيره وكتاباته ، و (فردريك) و (بسمارك) يتخذانه شيخا لهما وأستاذا .

الفصل الخامس
الأخلاق نفسها بنفسها
(٩٣ ــ ١٣٩)

١ ــ الأخلاق عند (عمناويل كانت) تقود إلى الدين ــ الدين عنده أخلاقى ، والإنسان قيمة و غاية ، وسيد نفسه ، والناطق باسم (القانون الأخلاقى) .

٢ ــ أم (كانت) خير حرف استقر فى قلب طفلها (كانت) فاق آلاف الحروف فى الكتب ــ التعليم فى بروسيا يقوم به أصحاب الأخلاق المشبوهة غير الصالحين له ــ بروسيا تتصدى فورا لإصلاح التعليم و حال المعلم أولا وفتح النوافذ للعلم والأبواب لـ (القراءة للجميع) لكى تسبق بروسيا الدول الأخرى ــ التعليم مضغة فى جسم الدول إذا صلح صلحت الدولة بأسرها ــ الإهمال فى التعليم أو الخطأ فى نظامه يجعل شئون الدولة غير ذات شأن .

٣ ــ الصفات غير الإجتماعية فى فطرة الإنسان عند (كانت) من أجل المنافسة والتحدى والكفاح ــ الطبيعة تدعو إلى السلام ــ الخروج من الفوضى والخوف من العدوان عن طريق (القانون) فى شكل (دستور) فى الداخل والخارج ــ (كانت) لا يستمرئ (الحرب) أو إقامة (جيوش دائمة) مع توجيه تكاليفها إلى تدعيم (التعليم العام) كخطوة للمتدين والتحضر ــ الهدنة المسلحة ــ التوسع الاستعمارى ــ فى النظام الجمهورى الفرد مواطن بمعنى الكلمة .

٤ ــ (كانت) يهيم بـ (القانون الأخلاقى) ويسخر من (السياسة) وهى تدير ظهرها لـ (الأخلاق) ــ دعامة الأخلاق (الحرية) و (فكرة الحق) التى يرسمها (العقل) ــ (الأخلاقى السياسى) و (السياسى

الأخلاقى) و (الأخلاقى الاستبدادى) ــ زمرة السياسيين الذين (يجعلون كل إصلاح أمرا مستحيلا) .

٥ ــ الخلاف بين الأخلاق والسياسة يتز من أنانية السياسة ــ السياسة لاتدع مكانا لــ (الشرعية) أو لــ (الإرادة العامة) وبعيدا عن (الإكراه) ــ أساليب السياسة المنافية للأخلاق ــ عجز الناس عن التخلص من (فكرة الحق) فى مختلف علاقاتهم ــ السياسة الصحيحة لا تخطو خطوة إلا بعد أداء التحية للأخلاق ــ (الأخلاق تقطع فى المشكلات التى تستعصى حلها على السياسة) .

٦ ــ تحقيق (السلام الدائم) مشكلة أخلاقية ــ الفوضى تدفع المفكرين إلى (إعادة التنظيم) ــ (كانت وهوبز) على هذا الدرب ــ دعامات (كانت) لإنهاء (جميع الحروب) عن طريق (حلف الشعوب) و ليس بــ (معاهدة سلام) لإنهاء (حرب واحدة) فقط ، أى عن طريق (الجمهورية العالمية) و (تحالف شعوب الأرض) و (الفدرالية) ــ الفدرالية تحقق (الحرية) و (الإتفاق بين الأخلاق والسياسة) واستقرار العلاقات الدولية على (حالة الشريعة) لا (حالة الطبيعة) ــ عيوب (الأمم المتحدة) وهى تمارس مسئوليتها عن (السلام) تحتم ضرورة إصلاحها حتى تصدر قراراتها تمثل (الإرادة الحرة) لجميع أعضائها ، وذلك لتقدم العلم والهندسة المذهل وظهور الأسلحة الذرية والأسلحة الجرثومية والكيميائية والبيولوجية ــ هذا التقدم وضع العالم فى مفترق طرق رهيب وفرض على السياسة الدولية بفوضاها وعلى الأمم المتحدة أن يعدلا من سلوكهما ــ الحل فى (الأخلاق الواسعة) ، و الإيمان، وقيم عديدة أخرى ، ويحتاج إلى (بطولة خيالية) فى هذا الشأن ، ليسلم العالم من أسلحة دمار لا صلاح له .

الفصل السادس
عينات ونماذج
(دزرائيلي و جلادستون وبسمارك)
(١٤١ ـ ١٧٣)

١ـ مدرسة التاريخ ومدرسة الفلسفة فى العمل السياسى ـ (بنيامين دزرائيلى) الساحر فى إنجلترا و (أتوفون بسمارك) فى بروسيا يؤثران (مدرسة التاريخ) بينما (وليم إيوارت جلادستون الكاهن) فى بريطانيا يفضل (مدرسة الفلسفة) ـ (الضرورات السياسية) لـ (دزرائيلى) و (الضرورات الأخلاقية) عند (جلادستون) ـ الصراع الحزبى بين الخصمين لا يمس استقرار إنجلترا بتاتا ـ الاستقرار ومعناه ولوازمه ـ مثال لذلك كان توفير (الملكة اليزابيث) للاستقرار فى إنجلترا ليصبح عهدها فاتحة (عصر إنجلترا الحديثة) ذات الإمبراطورية ـ ومثال آخر للاستقرار استغلال إنجلترا فى إصلاح كافة شئونها ونظام الحكم فيها .

٢ ـ الاستقرار يسفر عن نفسه تحت أعلام (السياسة) و (حكومة) هيئه للإنسان كخطوة أولى من أجل الحضارة و التاريخ و (الخلود الحضارى) وليس (الخلود المطلق) الذى يشتهيه البشر ـ (ملحمة جلجاميش) توضح أن الموت قدر الإنسان ، وأما (الخلود المطلق) فهو للآلة فحسب .

٣ـ (دزرائيلى) و (جلادستون) يصف كل منهما الآخر بأوصاف غير مستحبة ـ اختلاف موقفيهما من ثورة بلغاريا ـ اختلاف علاقة (الملكة فكتوريا) بكل منهما ـ نجاح (دزرائيلى) فى شراء أسهم (خديوى مصر) فى شركة قناة السويس عمل سياسى بارع لصالح إنجلترا وبغية احتلال مصر و قناة السويس ـ (السويس) مفتاح الهند وحارسة الإمبراطورية البريطانية ـ (ديزى) حقق طموحاته السياسية فى السلطة ، والعيش عيشة (الأذواق) فى إنجلترا كما اشتهى ـ من أهم آثار رحلته إلى الشرق وثوقه من نفسه و تحقيق طموحاته حتى أصبح (أخطر رجل فى أوروبا) .

٤ ــ فى تاريخ بروسيا لانجد أبدا سياسيا واحد مثيــلا لــ (أتوفــون بسمارك) ــ من أقوال الكتاب والمؤرخين الكبار فى (بسمارك المارد) ــ فطرته وسعت الشروط القاسية لرجل الحكم ورجل الدولة ــ استيعابه لــ (الثقافة الجرمانية) بشتى مفاهيمها من (الجنس الجرمانى ، والهول الألمانى ، و القوة ، و الأنا القومى ، والقومية العدوانية ، والبطولة) ، وذلك من أجل (تحقيق القيم العليا) و (وحدة الجماعة الحية) ــ الجيش يصحح الأخطاء التى اقترفت فى حق بروسيا ــ قائد ألمانى فى الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ يقرر أن انتصار بروسيا على فرنسا هو نتيجة لانتصار المعلم الألمانى على المعلم الفرنسى ــ من نتائج إصلاح نظام التعليم فى بروسيا وحال المعلم من جميع الوجوه كان التقدم الألمانى بالفعل فى القرن التاسع عشر ــ (بسمارك) طبق نظرية (حق الدولة) من أجل بناء بلده ومصلحة أمته فكان (سيد بناة الدول) .

الفصل السابع
الأنبياء غير العزل
(١٧٥ ــ ٢٠٤)

١ ــ فكر ماكيافللى وفصله بين الأخلاق و السياسة يهيمن على (جميع التاريخ الأخير) فى القرون الأربعة الأخيرة بما فيها القرن العشرون ــ هذا القرن هو قرن العماء القومى وقرن تقدم العلم والهندسة المذهل دون تقدم فى الأخلاق يعادله أو يفوقه ــ العالم يعيش فى مفترق طرق رهيب بين فنائه بسبب أسلحة الدمار الشامل (الأسلحة الذرية والجرثومية والكيميائية ... إلى آخره) أو السلم عن طريق الإتفاق بينما التاريخ فى واقعه لا يزال ينحرف مجراه عن العدالة والأخلاق ــ البشر محب لــ (الرياسة) ــ ظهور (الأنبياء غير العزل) تلاميذ ماكيافللى فى هذا القرن ، أمثال ستالين و أتاتورك ولينين و هتلر وموسوليني ــ الحديث عن (الدوتشى بنيتو موسوليني) و (الفيرر آدولف هتلر) كمثالين لتلميذين بارين لأستاذهما (ماكيافللى) الذى فصل الأخلاق عن السياسة .

٢ ــ الوصل بين (الدوتشى) وبين ماكيافللى ــ انقلاب ١٧ أكتوبــــر ١٩٣٣ وانقلابات أخرى فى التاريخ ــ الطبيعة البشرية والدولة ــ موسولينى والاكليروس والرسالة القومية للدولة ــ توجيــه حيــاة الأمــه إلى حاجاتها العسكرية ــ الواقعية و الرومانية عند (موسولينى) و (ماكيافللى) ــ إعدام (الدوتشى) وقد غــابت عنــه أقــوال (ماكيــافللى) فى (المطارحــات) وفى (كتاب الأمير) عن الطبيعة البشرية .

٣ ــ (الفــيرر آدولــف هتلــر) وظــروف ألمانيــا الســيئة كــانت (فرصة) لظهور (هتلر) وحزبه النازى وفاعلية حــملاته الخطابية وســيطرته على الكتل الشعبية ــ (الفيرر) ينصب نفسه (مستشارا للرايش الألمــانى) ثم يستولى على (رئاسة الجمهورية) .

٤ ــ الوصل بين أقوال (هتلر) وَ (ماكيــافللى) ــ اعترافــه بفضــل (كتاب الأمير) عليه وتأكيده الصريح بفــائدة هــذا الكتــاب وضرورتــه فى السياسة ــ إســرافه فى القوة جعله المنبت الذى لم يقطع أرضــا و لم يبــق ظهرا .

الفصل الثامن
ظل رجل الحكم
(٢٠٥ ــ ٢١٤)

(كتاب الأمير) من أهم عوامل التكوين الروحى لــ (آدولف هتلــر) و (بنيتو موسولينى) ــ والد (موسولينى) يقرأ هذا الكتاب عليه وعلى اخوتـه مرة ، و (الدوتشى) يقرؤه مرة أخرى واعية فى سن الأربعين ــ نبى القوميــة فى شرائعها الرومانية الفاشستية يقف فى طــابور طــلاب الدراســات العليــا فى جامعة بولونيا لنيل درجة الدكتوراه برسالة عنوانها (تعليق عام ١٩٢٤ على (كتاب الأمير) لــ (ماكيافللى) ــ (موسولينى) الباحث وصاحب نظــام سياسى جديد يتساءل فى رسالته عما بقــى حيــا مــن (كتــاب الأمــير) فى القرن العشرين ؟ ــ الإنسان عنصــر جوهــرى فى السياســة ــ فكــرة

(موسولينى) عن البشر فيما عدا القليل يتزعون إلى الخمود الإجتماعى وهـــم فى ثورة كامنة ضد الدولة ـــ لا تعريف لـ (الشعب) ـــ الشعب لا يمـــارس فى الواقع (سيادة) فى العمل السياسى ـــ (سيادة الشعب) تاج من الـــورق ينزع عنه عندما توضع المصالح القومية للدولة فى الميزان ـــ القوة هى التى تكـــوه المرتدين عن الإيمان بالنظم لأن طبيعة البشر متقلبة ـــ (الأنبياء غير العـــزل) ينتصرون و (الأنبياء العزل) يندحرون .

التصــــدير

هذه قراءة فى التاريخ ، وهو يحفظ الأحداث فى ديوانه الخــــالد حســـب وقوعها ، بأسلوبه القصصى الذى يسيطر عادة على مؤلفاته ، أو بالربط بـــين الأحداث المبعثرة للوصول إلى فكرة أو أفكار عن الإنسان و ما يتصـــل بـــه ، وهو يدور فى فلك حياته وحركته ، وهما رفيقان لا يفترقان . وحـــين يرغـــب الإنسان فى الحديث عن رفيق منهما يجد نفسه عاجزا عن ذلك ، إلا إذا استعان بالزمان . هذا بينما الإنسان يعيش حياته بين الجوع والشـــبع .فيبتســـم عنـــد الشبع ، و يكتئب عند الجوع . ويحس عند ابتسامته فى شبعه بأن مرور ســـاعة من الزمن عليه كأنه مرور لحظه أو أقل ، بيد أنه يحس مع إكتئابته فى جوعه بأن مرور هذه المدة نفسها عليه كأنه مرور ساعات ، وأنه قد أصبح عبدا لرغيـــف الخبز .

ومن الطبيعى أن تثير هذه الظاهرة فى الإنسان تساؤلات عن سر إختـلاف إحساسه بالزمن أثناء سروره و اكتئابه ، على الرغم من أن الثابت أن الإنسان نفسه هو الحيوان الناطق الذى يخدمه ذكاؤه إلى مالا نهاية ، ويعيش فى الزمـــن نفسه ، والزمن نفسه جزء منه . وهو الذى عرف السرعة وقدرها ، و استطاع أن يسخر رسالة إذاعية لتدور حول العالم من مكان فيه وتعود إلى المكان نفســـه فى أقل من ٢ : ١٥ من الثانية . وهو الذى انساق عقله ، والعقل منـــه كـــان لا يزال فى بادئ أمره مجرد تباشير فكـــر مـــهزوز ، إلى أن يحـــاول اســـتكناه (طبيعة الإنسان) نفسه ، فى غضون استكناهه (طبيعة الكـــون) . إذ نحـــن ((لا نستطيع أن نتحدث عن (الطبيعة) أبدا دون أن نتحدث عن (أنفســـنا) فى الوقت نفسه)) ، كما يقول أحد علماء الذرة . و هذه هى المحاولـــة الـــتى سبقت (سقراط) وهو يضع أسس (علم الأخلاق) وفى غضون ذلك ظهرت (السياسة) من تحت عباءة هذا الفليسوف الكبير ، فاعتـــبره الغـــرب الأب الروحى لـــ (السياسة) . وفضلا عن جميع ذلك نقول : ألم يكن هذا العقـــل نفسه هو الفارس الذى اقتحم مشكلة الموت وبحث فيها لكى يتغلب على الموت ويفوز بـــ (الخلود المطلق) بينما هذا الخلود هو المستحيل بالنسبة إليه ؟ ولكنه فشل فى جميع محاولاته . وعرف فى النهاية أن ثمة نوعا أخر من الخلود هو المتـاح له والميسر ، وأن الطريق الوحيد إليه هو (العمل المتقن) الذى ينســـب إليـــه

فى حياته ، ثم يذكر به بعد وفاته ، وذلك فى ظل (استقرار) تهيئه له (السياسة) تحت أعلام (حكومة) . فيضاف ذكره بـ (عمله) هذا بعد موته ، كعمر ثان له ، و هذا طريق غير طريق الزوجة والولد . ومن شأن هذا الذكر أو هذه الذكرى أن يضفى على الإنسان النوع المتاح له من الخلود ، وهو (الخلود الحضارى) الذى يفوز به عن طريق (العمل المتقن) فقط . وهكذا عاش الإنسان وتحرك حتى كانت له حضارة وتاريخ ، ووصل إلى حضارتنا الراهنة .

ولا يخفى أن ملامح حضارتنا الراهنة أخذت تتسم بـ (الآلية) وسيطرة (الألة) عليها بصورة بارزة فائقة ، منذ نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، رغم معارضة (الروحانية) وثورتها ، دون أن تنتصر على (الآلية) أو تلحق بها . فأخذت المذاهب الروحية فى التخلف . وإذا بعالمنا اليوم يعانى من انحلال ينبئ بما لا تحمد عقباه ، نتيجة لعدم اتزان حياتنا بين ((أشياء لا تعرف الموت ، وأخرى لا تستطيع أن تعيش)) ، أى بين (الروحانيات) و (الماديات) . إذ ظهر أن (الآلة) لا تثير فى الإنسان من قوى الخلق و الإبداع والروحانية سوى أقل هذه القوى . فاستخدامنا مثلا (آلة الكومبيوتر) التى سحرتنا وسحرت أطفالنا ، جعلنا نلمس حقيقة ابتعادها عن التفكير الإبداعى الخلاق ، وعن تحريك (قدراتنا العقلية) إلا بقدر صغير . ويبدو أن ذلك هو الذى دفع وزير التعليم فى حكومة العمال فى إنجلترا ، بعدما أعلن رئيسها (تونى بلير) عن إهتمام حكومته البالغ بـ (التعليم والتعليم و التعليم) ، باعتباره الوقاية والعلاج معا لصحة الدول والأمم ، وسر الأسرار لتحقيق أى جدوى تنشدها من نظمها . ومن ثم اتجه هذا الوزير إلى أن يحسب حسابه لما قد يؤدى إليه استخدام (آلة الكومبيوتر) من تأثير لا يستحسن على (القدرات العقلية) للتلاميذ فى المراحل الأولى ، وينحو إلى إصلاح (العملية التعليمية) بتعويد أبناء بريطانيا فى هذه المراحل الأولى على استخدام (عقولهم) فى (الحساب والرياضيات) بدلا من استخدام (الكومبيوتر) ، حتى لا تتوقف (قدراتهم العقلية) ، عند مجرد الضغط على أزرار (الكومبيوتر) .

وإذا كانت (الآلية) تفضى إلى السطحية ، فهى تؤدى أيضا إلى إساءة

استخدام ما يأتى به العلم والهندسة من جديد مفيد . وتوضح ذلك الحقائق التى أوردناها فى الفصل الخامس * . فعندما وصل العلم والهندسة إلى (الإنشطار النووى) و (المواد النووية) و (خصائص الذرة وتركيبها) ... إلى آخره ، إذ بالسياسة ـــ وهى أصلا (مبحث قوة) ، وهى التى تدير وتدبر ، وهى صاحبة سلطة تفوق كل سلطة فى أى مجتمع حتى سلطة الخبراء وتحبطها ـــ تسرع فى لهفة ، لتوحى للعلم والعلماء ، بل تسخرهم ، لكى يوجهوا بحوثهم الذرية ، من أجل المزيد من الفيوض الدافقة للقوة والسلاح . و إذا بأسلحة الدمار الشامل تظهر وتتطور ، وتضع العالم فى مفترق طرق يثير الذعر ، بين حتمية اتفاق جميع الدول ، أو فناء الجنس البشرى فناء لا صلاح له . و إذا بالسلام العالمى ، وهو مشكلة أخلاقية ، لا يجد له أملا فى أن يتحقق إلا على أرض (الروحانيات) ، من إيمان ، وأخلاق ، و مثل (بضم الميم والثاء) . وهذا ما أنتهى إليه وأكده تأكيدا مبينا فطاحل العلماء ، وكبار الأساطين من المعنيين بالسلام العالمى ، عندما بحثوا عن الحل لهذا المفترق المخيف .

* * *

وإذا كانت هذه القراءة قد جاءت فى (الأخلاق) و (علم الملوك) أى (السياسة) ، فلقد جاءت فى الوقت نفسه فى (الحق) و (القوة) فى حياة الإنسان ، وهو يبنى حضارته ويكتب تاريخه ، تارة بـ (الحق) وأخرى بـ (القوة) . فـ (الحق قوة ، لابد من أن يدعم بـالقوة) لكى ينتصر الإنسان بـ (قوة الحق) على ما ولد به من طاقات لا تنضب ، من الكذب على نفسه وعلى غيره ، فيرتفع فوق الهوى والأنانية ، والتفاهات والصغائر ، و يدور فى ذات فلكه كالنجوم التى تضئ بنور متألق موصول دون أن تحوق أو تحترق . فتتأكد (قوة الحق) عند الإنسان . وتتأكد شجاعته . وتتأكد (عدالته) . ومن ناحية أخرى يجب ألا يغيب عنا أو ننسى أو نتناسى الأهمية

---

* ارجع إلى ص ١٣١ من هذا الكتاب

الكبيرة و الخطيرة اللازمة لصلاح حال البشرية عن طريق (السياسة) ، رغما عن علاتها و مغالطاتها وأساليبها العملية . فهي ضرورة في واقع حياة الناس . ويستحيل على الإنسان أن يستغنى عنها . فهي التي فتحت الطريق السلطاني للحضارة والتاريخ ليولدا . وهي التي كفلتهما عندما ولدا ، وإبان نشأتهما ، وخلال شبوبهما ، أي في مختلف مراحلهما وأطوارهما ، فارتبطا بها ارتباطا لصيقا وثيقا ، و هذا ما سبق أن عرضناه في شئ من التفصيل في هذا الكتاب *.

وبعد :

فلامراء في أن تأتي (العدالة) في صدر الإهتمام عند (الأخلاق) و (السياسة) . ولامراء في أن الدولة هي التي جاءت أصلا في المجتمع البشرى وقامت فيه من أجل (تحقيق العدالة) . ولامراء في أنها هي التي تصبها من حكمة حكامها ومشرعيها في قوالب (القوانين) ، بعد تجريدها من الهوى ، ليكون (القانون) ويبقى دوما السيد الأوحد والأعلى والأمثل ، للحاكم والمحكوم على السواء . لأن الحكم (بضم الحاء وسكون الكاف) ينبغي أن يكون دائما ((لأصلح القوانين وليس لأصلح الرجال فقط)) . وذلك لكي تتحقق (العدالة) ، باعتبارها سيدة الفضائل السياسية للدولة ، و أولى حاجاتها الأخلاقية . ولامراء في أن العقل هو الذى هدى الإنسان على مر العصور على أيدى أرشد المفكرين الحكماء في كل عصر ، كي يسلم (بفتح السين كسر اللام وتشديدها) الإنسان قياده إلى (التعاون) بينه وبين انداده في المجتمع ، وبينه وبين (الدولة) ، حتى يحقق المجتمع كل التوافق ، وكل المساواة ، وكل الاعتدال ، وكل المواءمة بين المطالب والمصالح . فـ (العدالة) في جوهرها (واجب) في كل من (الأخلاق) و (السياسة) محتم حتما خالصا نقيا ، و (قيمة) واجبة ضرورية لا مفر منها ، و(غاية) منشودة دائما أبدا طالما الإنسان لا يتوقف عن الغلبة و القهر و الظلم وسفك الدماء ، و حب المال و التمول ، والمتعة والسلطان . ولذا حين تغيب في حياة الإنسان يصبح الإنسان (الحيوان الأكبر) و (أشد الحيوانات توحشا) لا أفضلها .

---

* انظر : الصفحات من ١٥٠ إلى ١٥٢

وعندما تغيب عن دولة تغيب (الحرية) عن أهلها وناسها ، وتنقلب الدولة وتصبح بمثابة (قاطع طريق) ! ومع ذلك فتحقيق (العدالة) أمر لا يدعو إلى اليأس والقنوط ، فالطريق إلى (العدالة) سيظل مفتوحا أمام الإنسان لتحقيقها بـ (المحاولة والخطأ) .

* * *

وختاما صلاة وسلاما على (دعوة إبراهيم ، ونبوءة موسى ، وترنيمة داوود ، وبشارة عيسى) ، و (الصادق الأمين) الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه ، نبيا ورسولا رحمة للعالمين ، (ليتمم مكارم الأخلاق) .

محمد مختار الزقزوقى

أجياد / المعادى الجديدة / فى ٢٦ رجب ١٤١٨ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٩٩٧ م

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى زوجتي وهي في ذمة الله وقد عزّ عليّ لقاؤها وأخذتُ أعيش عمري بعدها سفينةً بلا شراع في بحرٍ وحشةٍ مريرة ، يزورني فيها طيفها فلا يراه سواي ، ويرن صوتها في أذني فلا يسمعه إلا إياي .

والآن وأنا أصوغ هذا الإهداء ، أجدُ معانيه تتدفق عليّ مما أودعته عندي من إيمانها بتقديس الواجب ، لتكون لي ولعيالنا السكن والأمن ، والراح والروح والساعد الأيمن . وكذا الغذاء واللُّعاب ، وشربة الماء ونسمة الهواء . توفرتْ لنا حياةً كريمةً ، لم نطأطئ فيها رأسًا منّا لعار ، أو نصمْ نفسًا لنا بخزي ...

محمد مختار الزقزوقي

تمهيـــد واقتــراب

لم تعرف الحياة السياسية الاعريقية شكلا للحكم أعلى من « دولة ـ المدينة » . وكانت هذه « الدولة » ضيقة الرقعة ، فلم تتجاوز مساحة بعض المدن بضعة أميال مربعة . كما كانت قليلة التعداد ، فلم يبلغ تعداد أثينا ، مثلا ، وكانت من أكبر المدن ، أكثر من ثلث المليون ، وذلك فى أوج عظمتها . فأدى ذلك الى أن تصبح العزلة ، فى حد ذاتها ، حاجزا يفصل « الدولة » عما جاورها . وذلك لكثرة الجبال ، ووعورة المسالك ، وصعوبة الطرق والدروب ، مما انعكس على شعور الفرد الاغريقى ، فجعل حبه لوطنه الضيق ، ولبلده الصغير ، ومسقط رأسه غير الكبير ، وكذلك داره ومنزله ، حبا مركزا مكثفا . وأصبحت جميع صور الحب هذه عنده أمرا واحدا ، أو يكاد . فأدى ذلك الى أن تكون المدن الاغريقية بجماعاتها الخاصة ، منفصلة عن بعضها بعضا ، ومنعزلة .

وساعد على هذه العزلة ، عوامل أخرى . وكان الدين نفسه واحدا منها . فلم يكن هناك دين واحد مشترك بين الاغريق كافة عامة ، يشكل رباطا يوثق العلاقات بين مدن عدة ، تعددت آلهتها . لقد كانت الديانة الاغريقية ديانة « محلية » بالفعل ، « تشخص » مميزات الاقليم المحلية . فاختفاء نهر من الأنهار فى بقعة من البقاع ، قد يوحى لهم بنموذج اله يختلف عن نموذج اله آخر فى اقليم مختلف آخر تحيط به الينابيع مثلا . وكان من أثر ذلك ، أن ازداد الشعور بالعزلة عند كل « جماعة » تعيش فى « موضع » معين ، وأن قوى الروح الفردى عند مواطنى المدن الاغريقية . هذا فضلا عن اختلاف العادات والتقاليد فكل مدينة . وجدير بالذكر، لم يكن زيوس Zeus وحده كافيا

وقد أصبح رب الأرباب جميعا فى بلاد الاغريق بينما يظل لكل مـــدينة الهها الراعى أو آلهتها ، أن يقضى على « محلية » الدين الاغـريقى ، واختلاف العقيدة • ونتيجة لذلك ، أصبحت عقيدة الاغريق الدينية محلية خاصة ، وغير شاملة عامة •

وأثر ذلك تأثيره فى الحياة السياسية ، وأبرز طابع « العـــزلة » هذا وأكده ، بعدما جاء نتيجة للعـــوامل الجغرافية أولا • ومما يبرز لنا قوة هذا الطابع فى حياة الاغريق ، أننا نجد الاتحادات الاقليمية ، التى قامت نتيجة لاتصال بعض المدن الاغريقية ببعضها ، فى المناطق التى لم تكن فيها حواجز طبيعية محكمة ، أو فى الأقاليم التى لم يكن فيها حواجز قط ، اتحادات ضـــعيفة هزيلة ، لم تقو على الاتيان على روح العزلة والانفصال بين هذه المدن • وجدير بالذكر ، أن حكومات هذه المدن ، كانت وراء نزعة الانفصال هذه ، ترغب فى عدم القضـــاء عليها ، بل وكانت تعمل للمحافظة عليها ، أملا منها فى المحافظة على أشكال الحكم التى يتربعون على قممها ، ولذا كانوا يرفضون أى شكل للاتحاد مع المدن المجاورة • ولذلك لم تقم الجامعات السياسية الاغريقية الا متأخرا ، ولم يكن الدافع اليها هو العامل الاقتصادى ، الذى يمكن أن يجمع دويلات أو دولا حول مصلحة مشتركة واحدة •

ولتوضيح ذلك نقول : لقد كان الرق دعامة النظـــام الاقتصـــادى الاغريقى العريضة • وكان عدد الرقيق يزيد على عدد الأحرار عندهم • ففى اسبرطة كان عدد غير الأحرار يربو على نصف سكان المدينة • وفى أثينا أكثر المدن ثقافة واستنارة ، كانت نسبة الأحرار الى العبيد نســبة ضئيلة • وكانت نتيجة ذلك ، أن أصبحت قيمة العمل اليدوى ، الذى كان يناط بالأرقاء ، قيمة تافهة • وبالتالى ، احتقر الاغـــريق التجارة ، والتعامل التجارى • فكان التاجر الأثينى قليل الشـــأن ، على عكس « السياسى » الذى كانت له المنزلة الاجتماعية الأولى • ومن ثم أصبحت غاية كل مواطن طموح أن يصبح « سياســـيا » • وعلى الرغـم من أن التعامل التجارى كان وسيلة للاحتكاك والاتصال بين المدن الاغريقية ، مثل أثينا وطيبة ، فان المصالح التجارية لم تغر المـــدن الاغريقية بقيام

اتحاد دائم بينها . ولذلك ، لم تكن للحياة الاقتصادية فى المدن الاغريقية نفس تأثيرها فى الدول الحديثة ، من حيث تصبح عوامل للاتحادات السياسية ، أو حتى مثارات للخلافات الدولية .

وفضلا عن ذلك ، فلم يكن هناك وعى قوى ، من شأنه أن يهيىء ويخلق تكاملا سياسيا بين هذه المدن ، ويقوى كياناتها السياسية . ولقد شعر الاغريق فى قرارة أنفسهم بأنهم فوق غيرهم من البرابرة ، أى الأجانب عنهم . ولذا لم يجيزوا لمن لم يكن يجرى فى عروقه الدم الهلليتى أن يشترك فى المهرجانات الأولومبية فى سهول أولومپيا.وحتى هذه النعرة الاغريقية نفسها ، والاحساس بسمو الاغريقى على البربرى (الأجنبى)، لم توحد بين المدن الاغريقية.وقد يكون هذا هو السر فى أن الاغريق فى عصر أفلاطون نفسه ، لم يستمرئوا حيرته فى مذهبه السياسى وهو يقول ذات مرة : « اننى أجزم بأن جميع أفراد الجنس الاغريقى،تربطهم فيما» « بينهم روابط الأخوة والقرابة . ولكنهم أغراب وأجانب بالنسبة لعالم » « البرابرة » . ويقول مرة أخرى : « ان الفتنة ، التى معناها خيانة » « المواطن لوطنه ، قد يدخل فى معناها هذا النوع من العداء ، الذى » « يوجد أثناء الصراع بين دولتين مستقلتين من (دول - المدينة) ».

وموجز القول ، فان العوامل التى قد تتضافر اليوم لتكوين دولة واحدة كانت معدومة فى بلاد الاغريق ، أو كانت موجودة هناك ، ولكنها لم تكن قوية حينذاك ، أو لم يتبينوها البتة . لقد كان الدين ، كما قلنا ، « محليا » غير شامل ، وطقوسه الشعبية غير خلقية . وكانت المصالح الاقتصادية معيبة.وكان الوعى القومى ضعيفا وغير محسوس به. ومع ذلك ، بقى شىء ما . ولم يكن هذا الشىء علاقة الدولة بالدين ، أو علاقة الدولة بالصناعة ، أو علاقة الدولة بغيرها من الدول . انما كان هذا الشىء هو « طبيعة الدولة » نفسها . ومن ثم أصبحت هذه أهم موضوع شغل قرائح قادة الفكر الاغريقى ، وبالتالى اهتموا بالبحث فى الانسان ، لا باعتبار أنه وحدة مستقلة قائمة بذاتها ، بل على أساس أنه جزء من الجماعة التى ولد بينها ، فالفرد لا يستطيع أن يحس بذاته ، ويشعر بنفسه ، أو يعبر عن وجوده ، الا من خلال (المدينة) أى

(الدولة) ، لأن الانسان « حيوان سياسى بطبعه » . وهذه كانت أول لبنة وضعها الاغريق فى صرح الفكر السياسى .

ولقد أظهر البحث فى طبيعة الانسان والدولة ، على أساس أن الانسان حيوان سياسى ، مشاكل كثيرة . بحث الاغريق فى الفلسفة السياسية ، ولم تكن ثمة بحوث هامة سبقت أبحاثهم ، يستعينون بها فى بحثهم فى السياسة ، وحتى الألفاظ أو المصطلحات السياسية لم تكن قد ظهرت بعد . ولقد تناولوا البحث فى هذا الموضوع بحماس عقلى وقاد ، وبمحاولة علمية واضحة ، وتجلى ذلك فى جميع نظرياتهم . وخلال ذلك أحسوا ولمسوا ضرورة مناقشة بعض القوانين العامة الشاملة ، قبل أن يخوضوا فى البحث فى السياسة ، فناقشوا القوانين العامة التى تسيطر على الحياة السياسية ككل ، بالاضافة الى البحث فى الخصائص الأولى للدولة . وبذلك استهلوا بناء السياسة ، ووضعوا قواعده وأسسه . ثم أصبحت أبحاث مفكريهم فى ماهية الدولة ، القبلة الأولى لطلاب العلم السياسى ودارسيه فى جميع أنحاء العالم ، حتى القرن الذى نعيش فيه .

ناقش الاغريق الغرض من الحياة الاجتماعية ، وطبيعة الدولة وسلطتها ، وعلاقة الدولة بالمواطنين ، ووضعوا المصطلحات الخاصة بالأشكال المختلفة للدول . واقترحوا القوانين اللازمة للحياة السياسية ، ومنها « القانون الدورى » لحركة التغيير ، الذى لو أهمل الأخذ به لثار المواطنون على حكومتهم لا محالة . ومثال ذلك ما حدث فى انجلترا بالفعل فى القرن السابع عشر ، وكما حدث فى تاريخ فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وقد كانت الفكرة السائدة والخاطئة معا ، أن منطق الجماعة والدولة منطق استاتيكى لاديناميكى . بيد أن الثورات التى قامت وغيرت الحكومات ، هى التى وضعت أصابع الجميع على خطأ تلك الفكرة التى كانت سائدة .

ولم يفت الاغريق أن يبحثوا فى القدر الذى به تجدع الحياة فى «دولة» حرية المواطن . وخاضوا فى مشكلة العلاقة بين الدولة والتربية ،

ومشكلة«الالزام السياسى»٠كما درسوا أشكال الدساتير بحثا عما يخلصهم مما عانوه من ويلات عدم الاستقرار ٠ فضلا عن البحث فى الحـــرية ، والرق ، وأسـمى غايات الدولة ٠ وكانوا يؤمنون أشـــد الايمان ، وهم يبحثون فى هذا وذاك ، بأنه يستحيل على الفرد أن يعبر عن نفسـه الا من داخـــــل الدولة ، وهــــذا يبين مباشرة وبوضـــوح الأهميـــة البالغة للحياة السياسية للأفراد ٠ ومن هنـــا ، ربطوا بين تدبير سـلوك الفرد ، وبين تدبير سلوك الدولة ٠ وسموا التدبير الأول « الأخلاق » ، والتدبير الثانى « السياسة » ٠ وكانت (الدولة) ، كما فى أيام سقراط وأفلاطون وأرسطو قادة الفكر اليونانى ، هى (المدينة المكتفية بذاتها)٠ أما الحياة السياسية فكانت تتميز بالفتن، والمؤامرات، والصراع الحزبى، ولا تبحث الا عن الانتصار السياسى ، وهو فوق جميع مصالح « الدولة ـ المدينة » نفسها !

اذن ، لا مناص من أن يحاول قادة الفـــكر الكبار عندهم ، أن يكشفوا عن القواعد التى تسيطر على حياة الفرد والأفراد ، وتهيمن على حياة (المدينة ـ الدولة) ، ويخلصوا « الغاية السامية » للدولة والجماعة ، من كافة الشوائب ، بالتوفيق بينها وبين المثل العليا ، لتجىء على مستوى هذه «الغاية السامية» لحياة الجماعة والدولة ، وبالتالى لم يكن لهم سوى ألا يفصلوا بين « الأخلاق » و « السياسة » ، ويوفقوا بينهما ما واتاهم التوفيق ٠ ومما كان يدفعهم الى ذلك ، النـــزعة الهـــدامة التى اتجهت اليها طائفة من المعلمين كانت تتجول فى بلاد اليونان ، هنا وهناك ، وفى كل مكان ، يدعون الفرد والأفراد ، الى تعاليم من شـــأنها أن تفضى بالضرورة الى أن يتمـــرد الفـرد على « قوانين » الجماعة ، ألا وهى (الدولة ـ المدينة) حينذاك ، وتقطع الحبل السرى وكـل صلة ، تربط « الحيوان السياسى بطبعه » بالجماعة الســياسية ككل ٠ فهذه الطائفة أخذت تفرق بكل جـرأة وقـــوة ، بين « الطبيعة » وبين « القانون » تفريقا يؤثر تأثيـــره الـــكبير والخطـــير معـــا ، بصـــورة غير بناءة وغير مفيدة ، بالنسبة للفرد الصـــالح ، أو الدولة الصـــالحة ، أو هما معا ٠

ولم تكن هذه الطائفة المتجولة سوى « السوفسطائيين » ٠ وهنا نشير اشارة تتفق مع منهج البحث من ناحية ، ومن أجل بعض التفصيل الذى أومأنا اليه من ناحية أخرى ، ونذكر من كبـــار هـــذه الطائفة كاليـــكلس ، وبولس ، وترازيماخـوس - وهم يتجولون فى أنحـــاء بلاد اليـــونان بين الشـباب ، ويعلمونهم أن « القـــوانين » من صنع «الضعفاء»،وضعها«الضعفاء لكى يتخلصوا بها من«الأقوياء»، فيجردوا الأقوياء من ســـلاح قوتهم ٠ هـــذا ، وكانوا يعلمونهم أن الفـرد الذى يبلغ من القوة درجة يستطيع بها أن يشق عصا الطاعة على القانون ، ودون أن يجر على نفسه العقاب ، له هذا الحق فى هـــذا العصيان ٠ وبناء على ذلك،فالدولة من صنع الضعفاء،وهى شر، أما «الطبيعة»فهى خير ٠ ولذا فالسير بمقتضى الطبيعة يجب أن يكون أساس الســـلوك ٠ وفضلا عن هذا وذاك ، فقد ذهبوا بالشباب الى أن «الظلم» هو الطبيعى، أما «العدالة» فهى خضوع وضعة ٠ ان «القانون» لا يتفق مع«الطبيعة»، والطبيعة ، هى التى ينبغى أن تكون المشرع الأول والأخير لنا ، وبالتالى فلا محل للقانون ٠ ماذا يوجـــد تحت درجات الســـلم التقليـــدى - ماذا ؟ لا يوجد سوى « حرب جميع الأشياء » ، والتنازع ، والصراع ٠ ان الحرب يجب أن تحكم البشر ، والقوة مصدر كل شىء ، وهى التى يتسنى لنا بها أن نبرر كل شىء ، فالقوة حق ، والحق نسبى ، وما نراه حقا لك فافعله ، وفعلك مشروع ٠

أجل ، انها لشطحات عقلية سياسية أخلاقية هدامة ٠ ومن هنا قيل ان السوفسطائيين كادوا أن يقضوا على الفلسفة ٠ ولكن مهما كان الأمر ، فانهم، لحسن الحظ، قد مهدوا الطريق لقيام «علم الأخلاق» نفسه،وعلى يد سقراط على وجه التحديد ، فهو الذى يعتبر من ناحية ، منشىء هذا العلم ، ومن ناحية أخرى،يعتبر « الأب الروحى الذى ظهرت من تحت معطفه الفلسفة السياسية فى الغـــرب » ٠ قال أرســـطو عن أســـتاذه ســـقراط : ان الفلســـفة عنـــد سـقراط انحصرت فى دائرة الأخلاق ٠ وقال شـــيشرون : ان ســـقراط أنزل الفلســـفة من الســـماء الى الأرض ٠ وهذان القولان صحيحان عند جمهرة الباحثين ٠ فســـقراط « المسيحى قبل المسيح » ، و « القديس شهيد الفلسفة » ، والذى عمده

الآباء المسيحيون القدامى ، لم يبحث الا فى الانسان ، بعد أن دفع تيار التفكير برمته اليــه ٠ وكان فى ذلك كالسوفسطائيين ، بيد أنه فاقهم فضلا فى بيان العلاقات البشرية الصحيحة للفرد والجماعة ، والصالحة لهما ، بصورة غير مشوهة القالب ، وغير مريضة القلب ٠

الفصل الأول

الفلاسفة الثلاثة الكبار

(سقراط ، أفلاطون ، أرسطو)

نقطة البدء فى فلسفة «سقراط» هى علم النفس،وغاية هذه الفلسفة هى الأخلاق . ولئن كان سقراط قد عنى بالنظر فى المعـرفة ، ووضع الشروط الصحيحة لها ، والقواعد السليمة للعلم ، فهو لم يفعل ذلك الا من أجل غاية واحدة هى الأخـلاق . حقا ، يعتبر سـقراط مؤسس علم الأخلاق ، الذى كان السوفسطائيون قد زعزعوا الايمان به ، على أساس التغير فى القوانين البشرية . ولكن سقراط هو الذى نادى بوجود قوانين للبشر غير مكتوبة ، وطبيعية ومقدسة ، وثابتة وغير متغيرة ، وباطنية وسامية . وهو الذى قال أيضا بأن غاية الحياة يجب أن تكون مراعاة هذه القوانين ، ولكى نراعيها يجب أن « نعلم » بها . فانتهى الى أن أول شروط « الفضيلة » هو « العلم » ، « فالعـلم » شـرط ضرورى لممارسة الخير ، وهو شرط كاف أيضا . يقـول سقراط : ان الاشـياء العادلة ، وكل ما نقوم به بدافع الفضيلة ، أشياء جميلة وخيـرة . وان هؤلاء الذين يعرفونها ، لا يستطيعون أن يفضلوا عليها سواها ... اذا

كان الموسيقى هو الذى يعرف الموسيقى ، فان «العادل» هو من يعـرف « العدالة » . فالفضيلة هى معرفة الخير ، والرذيلة هى الجهـل به . ولا انسان يميل الى الشر بارادته . ونتيجة جميع ذلك ، أن الفضيلة يمكن أن تعلم ، والطريقة الوحيدة لكى نجعل الناس أخيارا ، هى أن نعلمهم . ان معرفة الخير هى الفضـيلة ، وهـذه المعـرفة والفضيلة شىء واحد .

ولا فضيلة تعادل الحكمة . وللحكمة أسماء مختلفة ، تتفاوت تبعا

لعلاقات الانسان بنفسه ، وبأنداده ، وبالله . وفى الحالة الأولى ، نجد أن حكمة الاحساس هى العفة ، وحكمة الارادة هى القوة والشجاعة ، وفى الحالة الثانية ، تكون الحكمة فى علاقة الانسان بأقرانه هى العدالة ، والعدالة هى أن يعطى كل ذى حق حقه . وفى الحالة الثالثة ، تكون التقوى هى حكمة العلاقة بين الانسان والله .

والحقيقة ، أن سقراط لم يبين بوضوح مميزات الخير المطلقة ، وكثيرا ما يخلطها بالنفع . يقول بوترو Boutroux : « ... اذا »
«كان سقراط يوصى بتحصيل المعرفة ، وممارسة العدالة ، والعناية بالروح»
«وأسمى الفضائل ، فذلك لأنه يعتبرها نافعة لسعادة الانسان . وفى نفس»
«اليوم الذى يفضل فيه الموت على العار ـ وهو يرجع ذلك الى غياب»
«الهاتف* الذى ينهاه عادة عن فعل سيفعله (سقراط) ، ويفضى الى »
«الاضرار به ـ يكون مقتنعا (سقراط) بأن الموت لن يسبب له أى »
«خسارة » .

وهكذا كانت «الأخلاق» عند سقراط . أما «السياسة» فلم تكن عنده غير «الأخلاق» ، غير أنها أكبر وأعظم ، فخير المدينة مثل خير الفرد ، وليس من شرط ضرورى لهذا الخير سوى المعرفة . وهنا نجد سقراط ، على هذا الأساس ، يتناول ديموقراطية أثينا بالنقد ، والتهكم المعهود فيه ، معتمدا على مبدأ يؤمن به ، وهو أن الحاكم لابد من أن توكل مهمته الى أكثر الناس معرفة وتعلما . وبعبارة أدق ، يجب ألا نترك للصدفة العمياء ، سواء عن طريق القرعة أو رمى القداح ، تعيين الحكام . يقول سقراط : «يا للغفلة ... فحبة من حبات الفول تقرر اختيار رؤساء »
« الجمهوريات ، بينما لا نرجع الى الصدفة فى اختيار النوتى ، أو »
« المهندس المعمارى ، أو العازف على الناى ! » . ان القاعدة عنده التى يجب أن تكون الركيزة الأولى لتولى السلطة هى الاقناع ، وليست القوة .

---

* الهاتف أو جنى سقراط ، هو صوت المعرفة عند سقراط ، على حد رأى بعض الشراح .

وجدير بنا فى هذا المقام ، أن ننظر فى محاكمة سقراط • فلقد وجد أن من العسير أن نفهمها الفهم الصحيح ، دون أن تكون لها خلفية سياسية • كما أنها تجربة من أعظم التجارب الانسانية ، التى ظهرت فى تاريخ البشر • لأنها تمثل أروع تمثيل وأسماه ، الايمان بخير الدولة ، وخير الفرد سويا ، حيث لا هوة تفصل ، بين الأخلاق والسياسة ، وعلى ذلك نقول : دعا السوفسطائيون الى كسر القانون ، اذا استطاع الانسان أن يفعل ذلك ، دون أن ينساله عقاب • ولكن سقراط ، أول شهيد للحرية وطاعة القانون ، كفر بما كان يدعو اليه هؤلاء ، وآمن باحترام القانون ، وحرص تماما على ألا يعتدى على حرمته • بل انه لم يقف عند هذا الحد ، اذ قال بأنه لا يحق للمواطن أبدا ، أن يفكر فى مجرد الفرار من وجه العقاب ، الذى تفرضه عليه (المدينة) ، أى الدولة ، وذلك ما دام ينتمى اليها ، ويخلص لها حقا ، ويحس احساسا عميقا بقوة الرابطة التى تربطه بها • والنص التالى ، من « محاورة كريتون »، يوضح هذه الحقيقة ايما توضيح ، حيث يقول سقراط :

« ولتدعنى أضع المسألة كالتالى : هب أننا قصدنا الهرب ، أو »
« أى شىء آخر ينبغى للمرء أن يسميه ، وهب أن القوانين والمدينة ، »
« سدت علينا طريق الهرب ، وسألتنى : حدثنا يا سقراط ، ماذا تنوى »
« أن تفعله ؟ لا شىء أقل أو أكثر من أن تقلب نظامنا بمجادلتك ، »
« وتقلب القوانين ، وكل الشركة العامة ، بالقدر الذى تسهم به فيها • »
« وهل تظن أن مدينة تستطيع الوقوف ، دون أن ينقلب نظامها ، »
« حينما تكون أحكام القضاة بدون سلطان ، وعندما يكسرها الأفراد ، »
« ولا يجعلون لها أثرا ؟ والآن ، وقد ولدت ، ونشئت ، وربيت ، هل »
« تستطيع القول بأنك لست ملكا لنا ، وولدا لنا ، وخادما لنا ، »
« أنت وأحفادك ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فهل تظن أن حقوقك ، يمكن »
أن تتساوى مع حقوقنا ؟ اننا مازلنا نمنح الحرية الكاملة ، لأى أثينى ، »
« بعدما رآنا ، وجربنا ، وجرب كل ما قمنا به فى مدينتنا ، فى أن »
« يأخذ متاعه ويذهب عنا • وهذا اذا لم نكن نروق له ، وليذهب الى »
« حيث يشاء • واذا بقى معنا ، بعدما رأى كيف نحكم فى قضايانا ، »
« ونحكم مدينتنا ، فحينئذ نقرر أنه قد التزم بالعمل بأوامرانا • واذا »

« قصدنا قتلك ، لاننا نرى أن هذا هو العدل ، الا تبـــذل بدورك ، »
« قصارى جهدك ، لتقتلنا ؟ هل فى وسعك أن تدعى بحقك فى هذا ، »
« أنت يا محب الفضيلة ؟ انك تسلك سلوك من يمكن أن يكون أحط »
« العبيد ، حين تستعد للهرب ، وتفسخ التعهدات ــ وقـــد تعهدت »
« بالموافقة على حكومتنا » ٠

أجل ، ان من صنعوا من حياة سقراط مثالا « لشهيد حرية الفكر »، لم يفعلوا ذلك جزافا ، أو مبالغة ، لأن سقراط شهيد حرية الفـــكر ، بحياته التى حياها ، أذاب الأخـلاق فى السياسة تماما ، ولم يجعـــل لواحدة منهما مفهوما أو تعريفا يختلف عن مفهوم الأخرى أو تعريفها ، من قريب أو بعيد ٠ وما أولى القائمين بشئون التربية فى أمتنا العربية ، أن يقدموه للنشء والشباب ، بصورة مناسبة ، كمثال للمواطن الصالح، الذى لم يستخفه مجد ، ولم يستهوه جاه ، لأن قلبه قـــد امتلأ امتلاء بالفضيلة ، وطاعة القوانين ٠ ولذلك لم يفر من قصاصها ، لأن هـــذا الفرار عار ٠ ولأن هذا ، لو قام به ، لا ينسب الى الحكمة ، والحكمة فى العلاقات بين المواطنين ، كما قلنا ، هى العدالة ، والعـدالة هى اعطاء كل ذى حق حقه ولحق الدولة الذى يجب أن يعطى لها، لأنها هى الوحيدة صاحبة هـــذا الحق ، وهو حق الدولة فى طاعة المواطنين للقوانين ٠

لقد أغرى أصدقاء سقراط ، صديقهم بالفرار ، وهو ينتظر تنفيذ حكم الاعدام ٠ وكان هذا أمرا غير عسير ، وخاصة أن الحارس ســـبق أن أرشـــاه (أناكساجوراس) وساعده من قبل ، على الفرار ٠ ولكن سقراط ، أو المواطن المثالى ، رفض ذلك عن ايمان ، لأنه ملك للدولة، وولد لها ، وخادم لها ، هو وأحفاده ، كما سبق القول ، ولاسيما أن هذا الفرار ، كما حدثنا ، لا يليق « بمحب الفضـــيلة » ، وانما هو سلوك « أحط العبيد » ٠

وحينذاك ، قال سقراط : « الآن ، لا أظن أن القانون ، يحول »
« بينى وبين الآلهة ، فلأصل ولأضـــرع اليهـــم ، فى أن أوفق الى »

« رحلة سعيدة » ، ثم تناول قدح السم ، ورفعه الى فمه ، ونفسه راضية ، تعبر أجلى تعبير ، عن الرضا والهـــدوء والشجاعة • وسرعان ما شرب قدح السم ! ولنا أن نتساءل فى هذا الموضع : ألا يحتمل أن يكون سقراط، قد تهكم على القوانين ، وقصد بذلك ، التهكم على « السياسة العملية » حينذاك ، وخاصة أنه لم يكن ثمة ما يدينه ، وكل ما فى الأمـر ، أن جماعة من أصـــدقائه ، مثـــل (أنيتـوس) Anytus ، وهـــو زعيـم ديموقراطى ، قد حنق على سقراط ، لهجومه على (ديموقراطية أثينا) وقتئذ ؟ والحقيقة أن سقراط كان قد هاجم بالفعل ، نظام الاقتراع فى جمهورية أثينا • « وما من شك ، فى ان الاقتـــراع كان وســـيلة ذات » « عيوب بالغة ، لأنه ، لا يكفل شغل المناصب الهـــامة ، بخير من » « تتوفر فيه الكفاءة اللازمة ، للاضطلاع بمهامها »* •

★ ★ ★

وحين نصل الى أفلاطون ، نجده يتابع اتجاه أستاذه سقراط ، ويعتبر السياسة هى العدالة فى المدينة أى الدولة ، والأخلاق هى العدالة فى الفرد ، ولا تعـــارض بينهما • وعلى ذلك تتصل السياســـة عنده بالأخلاق ، على أساس أن الغاية فى كل منهما هى الدولة • وكل مافى الأمر ، أن هناك عدالة بالنسبة للفرد ، وعدالة بالنسبة للدولة ، والأولى منهما أساس العدالة بالنسبة للثانية •

ويتضح عدم فصل أفلاطون للأخلاق عن السياسة ، من نفس عنوان أهم كتبه السياسية الخالدة ، ألا وهو « الجمهورية » ، أو بتعبير أصح « الدستور العام » ، أو بالعنوان الدقيق الذى يعنينا تماما ويسندنا فى بحثنا هذا ، وهو « فيما يخص العدالة » • ولا تعنى العدالة هنا ، شيئا آخر ، سوى طريقة لتنظيم العلاقة بين المواطنين فى الدولة ، وهـــذا هو قطب الرحى فى فلسفة أفلاطون الأخـــلاقية السياسية ، أو السياسية

---

* فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور القديمة ، الترجمة العربية ، للدكتور ابراهيم نصحى والدكتور محمد عواد حسين •

الأخلاقية . يقول (هيجل) عن مؤلف أفلاطون هذا،بأنه لا يمثل أكثر من النظرية الخلقية فى الأخلاق العمليـــة ، وفى الحيـــاة السياسية ، عند الاغـــريق .

العدالة فضيلة الفرد ، حيث أن للنفس ثلاث قوى . أولاها واعلاها القوة العاقـــلة ، ومركزها الرأس ، وفضيلتها الحكمة . وثانية هـــذه القوى ووسطاها القوة العصبية ، ومركزها القلب ، وفضيلتها الشجاعة ، وثالثتها واحطها القوة الشهوانية ، ومركزها البطن ، وفضيلتها العفة . ولا تتحقق العدالة فى الفرد ، الا بانسجام يتم بين هذه القوى الثلاثة ، فى هدى العقل . ونتيجة هذا الانسجام ، لا تتحقق الا باجتماع هذه القوى الثلاثة . وهنا نجد الحكيم يناجى باستمرار الله ، ويتأمل فيه ، كما يتأمل الفنان فى النموذج الذى يثير الهامه ويتبلور فيه . ومن شأن هذا التأمل فى الله ، ان نلمس فى الحكيم صورة مثالية سامية ، تتحقق رويدا رويدا .

هذا ، والعدالة تجلب السعادة ، ويستتبعها الاحسان الى كل انسان دون تفريق بين عدو وصديق.لأن اساءة المسىءهى اساءة أولا لنفس هذا المسىء . فمن يرد بالشر على الشر ، انما يقوض بنفسه صرح عدالته . « أنا لا أبتغى ارتكاب الظلم ولا تحمله ، ولكن اذا وجب الاختيار ، » « فانى أختار الثانى »(١) . « اننى أنكر أن يكون منتهى العار ، » « أن أصفع ظلما ، أو تقطع أعضائى ، أو أسلب مالى ، وادعى أن » « العار يلحق بالمعتدى،فالظلم أقبح وأخسر لصاحبه منه لضحيته »(٢) . قد نجد فردا عادلا ، بكل ما فى العدالة من معنى ، وتسقط المصائب فوق أم رأسه وتنهمر ، وتوجه اليه التهم وتكال ، ويسقى كئوس العذاب بأنواعها ، ويقيد بمختلف القيـــود ، ويوثق بشتى الأغـــلال ، ويكوى ويحرق ، ويضرب بالنعال ، ومع ذلك جميعه يحس فى قرارة نفسه ،

---

(١) فيـــدون .

(٢) جورجياس .

احساسا عميقا صادقا بالسعادة . فهذه النفس ذاتها ، هى ينبوع العدالة ، التى تنبعث من اعماقها . أما الطاغية ، الذى يستعلى ويتكبر ، ويظلم ويتجبر ، والسياسى الذى يبرع فى التدبير ، ويحذق نصب الفخاخ لكي يصيد خصومه ، لا يذوقان للسعادة طعما البتة ، وحـــرى بنا أن نرثى لهما ، لأن الظلم أول الشرور وأوخمها .

وفضلا عن ذلك ، فالظالم شقى ، اذا لم يمح ظلمه بالتكفير عنه . والتكفير هو الصبر على القصاص العادل . وفى هذا القصاص خيـــر وعدل . وهو خير ضرورى بصورة قصوى لكى يستقيم النظام ، وتبرأ النفس من أوخم ما يصيبها من شر ، أى الظلم . ويجب أن نقارن بين سلامة البدن الذى لم يمرض قط ، وبين سلامة البدن الذى عوفى ، بعدما أعملنا فيه الكى والنار ، والمبضع البتار . ان سلامة البدن ســـعادة ، وسلامة البدن فى الحالة الأولى سعادة من الدرجة الأولى ، أما سلامة البدن فى الحالة الثانية فدون الأولى درجة ومرتبة ، من حيث السعادة . ان واجب المريض أن يسعى الى الطبيب ، ليخلصه من آلام المرض ، وذلك بألم الكى والشق . وبالمثل واجب المسىء ، أن يسعى فى الحال ، وفى التو واللحظة ، الى القاضى ، ليعترف له وأمامه بما اقترف ، ثم يصبر على العقاب ، فى الصورة التى يقضى بها القاضى عليـــه ، سواء كان العقاب جلدا ، أو غرامة ، أو نفيا ، أو اعداما !

وقد يتساءل بعضنا : ان معظم هذه الآراء خلقية ، أو على الأقل ، هى أقرب الى الأخلاق منها الى السياسة ؟ ! والجواب : ان العـــدالة ليست مجرد فضيلة للانسان باعتباره فردا فحسب ، وانما هى أيضـــا خصلة فى البشر ، تجعلهم أهلا لكى يدخلوا مع بعضهم بعضا فى علاقات سياسية ، فى الجماعة السياسية ، أى الدولة . ان المجتمعات ممكنـــة فحسب ، بالقدر الذى يظهره أفرادها وجماعاتها ، من الالتزام الخلقى الذاتى ، نحو شتى أندادهم ، ومختلف جماعاتهم ، فى هذه المجتمعات . اذ هم لا يستطيعون أن يأتوا من الأفعال أى فعل يحلو لهم مما يستطيعون القيام به ، ولا هم يقدرون على الاستيلاء على أى شىء قد يتاح لهم ، ما لم يكن هذا العمل أو ذاك ، يتفق مع العدالة أولا وأخيرا .

ان العدالة عند أفلاطون ، جماع الفضائل فى الفرد · وهى فى نفس الوقت ، الرابطة التى تربط بين المواطنين فى الدولة · العدالة هى الخلة الذاتية التى تجعل الفرد (خيرا) من ناحية ، وتجعله (اجتماعيا) من ناحية أخرى · وهذا هو محور فلسفة أفلاطون السياسية، كما سبق القول ·

سلم السوفسطائيون بأن العدالة ، أو الأخلاق ، ضرورة لوجود الجماعة السياسية · ولكنهم أنكروا أنها موضوع الامتياز البشرى · كما سلموا بأن على الانسان ان يركز طاقاته الفردية ، فى دائرة تنظيم الأهواء وضبط النفس ، حين يعيش مع غيره فى جماعة · بيد أنهم رفضوا القول بأن الفرد يصبح أفضل ، اذا سلك هذا السلوك · ومن ثم أتى أفلاطون بسياسة تنطوى على ضرورة الالتزام الخلقى الذاتى ، لكى نرفع من شأن الامتياز البشرى ، ولكى يصبح امتيازا بالمعنى الصحيح· والالتزام الخلقى ، والقهر الاجتماعى ، اللذان تفرضهما الحياة فى جماعة سياسية ، لهما حقيقة واحدة ، ولا فرق بينهما يذكر · فالقهر الاجتماعى ، اكمال لفضيلة الفرد كحيوان سياسى · أى اذا كنت بصدد تنمية قدرتك كانسان ،لتصل الى درجة الكمال ، حسب ما أنت ميسر له ، فعليك أن تخضع هذه القدرة لتنظيم القانون · وأى قانون ؟ أنه هذا الذى يربطك بأعضاء جماعتك السياسية الآخرين ·

ويقال بأن هذا الجزء من فلسفة أفلاطون السياسية ، غريب على عقول كثيرة فى العصور الحديثة · فأفكارنا الخلقية نتاج تقاليد ، قامت بعد فترة طويلة من نشاطنا البشرى ، ولم تحسب حسابا للتمييز بين ماهو « حق » من الناحية الأخلاقية ، وبين ما هو « مناسب » من الناحية السياسية · ان الدولة ، تبعا لفلسفات سياسية حديثة ، لم توجد الا لكى تفرض ما هو « مناسب » ، أما ما هو « أخلاقى » فليس فى مقدورها أن تفرضه · لأن الدولة توجد لكى تجعل (حياة الجماعة ممكنة) ، ولم توجد لتجعل الناس (أخيارا) ·

والخلاصة ، أن القوانين التى تجعل (حياة الجماعة ممكنة) ،

هى القوانين نفسها ، التى تجعل الناس أخيارا • فلقد هيأت الطبيعة الانسان وأعدته ، ليكون حيوانا سياسيا • وفن الحكم تربية • والتربية تنمية قدرات المواطن الى المستوى الذى يمكن أن تصل اليه ، لصالحه وصالح الجماعة التى ينتمى اليها • يقول أفلاطون : « ينبغى أن أرغب »
« فى أن يكون المواطنون على استعداد لاستمالتهم الى الفضيلة ، على»
« قدر الامكان • وهذا ما سوف يكون غـــرض المشرع بالتأكيد ، فى »
« جميع قوانينه » • ويقول أيضا : « ينبغى للرجل أن يتحمل جميع »
« تلك الأحكام (النفى والطرد من القانون) ، فهذا أوجب له ، من »
« أن يقبل مثل هذا الدستور ، الذى يجعل الناس أردياء • اذن ، »
« ليكن ثناؤنا على القوانين ، أو لومنا لها ، لميلها هذا الميل ، أو »
« عكســـه » •

لقد حض أفلاطون ، على لســـان (ديون) الراحل ، أهـــل سيراقوزة ، الذين أوشكوا على أن يثيروا حربا أهلية ، من جراء وضع الدستور ، بقوله :

« يا أهل سيراقوزة ، اقبلوا بادىء ذى بدء ، أية قوانين ، تبدو »
« لكم أنها لا تفضى الى تحـويل أفكاركم وأهوائكم ، الى السعى وراء »
« الربح والثروة • فاللرجال أيضا ، فضلا عن الملكية ، أبدان وأرواح •»
« انظروا الى امتياز الروح (أى الفضيلة) ، من بين هذه الأمور »
« الثلاثة ، أسمى نظرة • ثم انظروا الى امتياز البـــدن ، على أنه »
« يتلو امتياز الروح • وليكن اهتمامكم بالثروة ثالثا وأخيرا • لأن »
« امتيازها يجىء بعد امتياز كل من الروح والبدن » •

وحين ننظر الى فكرة أفلاطون هذه ، نجد أن النفس ترتاح اليها ، وتحس فى ظلها بالرضا والطمأنينة • وهذا بدوره يجعلنا نميل الى أن نفترض ، أن الجميع يؤيدها ويوافق عليها • ومن الحـــكمة أن تكون هذه هى نصيحتنا التى ننصح بها الحكام فى كل دولة مثالية • ولكن الحقيقة ، أن الأهـــداف والأغراض العملية فى الحياة السياسية ، كما يعلم أهل الخبرة فى فن الحكم ، تجعلهم ينحدرون بذكاء ، بين يوم

وليلة ، من هذا المستوى المثالى ، أو يتجنبونه ، تحت ضغط الحياة الواقعية ولوازمها ، وظروف عالم البشر وضروراته القاهرة ، ومنطق السير على الأرض ، دون التحليق فى سماء الوهم . وهنا نجد الاختلاف الكبير ، بين أفلاطون وبعض فلاسفة السياسة فى العصر الحديث . ان (لوك) Locke مثلا ، يرى أن فضيلة المواطن ، ليست بالشىء الذى ينبغى للحاكم المثالى ، ان يبذل جهده من أجل ترقيتها ، فهى أمر يخرج عن نطاق التنظيم الذى تقوم به الدولة . ان قوانين الدولة ، تبعا لرأى (لوك) ، يجب ألا تتجاوز تنظيم ملكية المواطنين ، لا لأن الملكية أهم من الفضيلة ، ولكن لأن الفضيلة لا ينظمها سوى مجموعة أخرى من القوانين .

وعلى كل حال ، فلقد هوجم أفلاطون ، لأنه افترض أن حقيقة الالزام الخلقى والقهر السياسى حقيقة واحدة . ولكن النتيجة هى ، ألا فاصل بين الأخلاق والسياسة . لأن هناك (سيكولوجيا للفرد) هى الأخلاق ، و (سيكولوجيا للجماعة) هى السياسة . والعدالة أيضا ، فضيلة خاصة وفضيلة عامة ، من حيث أنها خاصة تحفظ الخير الأسمى للفرد ، وعامة تصون الخير الأسمى للدولة . وهذان الخيران خير واحد. وقوى الفرد ، اذا صلحت ، وحسن ضبطها وتوجيهها ، شكلت جماعة سياسية متجانسة صالحة . ففى الدولة ، كما قال أفلاطون نفسه ، يتحول موضوع العدالة ، من البحث عنها غاية للفرد ، الى البحث عنها غاية للدولة . لقد سلم أفلاطون بوجود اتساق ضمنى ، يربط بين الفرد والمجتمع ، وكذلك بين المجتمع والفرد . ولقد فسر هذا الاتساق ، باعتبار أنه ضرب من (التوازى) . فلكل « من الفرد والدولة ، أصل» « مشترك واحد ، يحول دون أن يكون الخير فى أحدهما ، مخالف » « مخالفة أساسية للخير عند الآخر »* . ومن مصلحة الفرد ، أن يعيش فى دولة تقوم بحمايته ، وتسهر على اشباع حاجاته ، وتحقيق كماله

---

* جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، الترجمة العربية ، للاستاذ حسن جلال العروسى ، طبعة دار المعارف ، ص ٦٤ .

المنشود . ولا قيام لهذه الدولة ، الا اذا تخللت العدالة ممارسة ، كل أركانها ، بالنسبة لكل جماعاتها وأفـــرادها ، حتى تنأى عن الظـــلم والانتقام . لأن أفرادها لن يكونوا موضع خير لها ، ولا يربطهم بهـــا ولاء . وهنا لا تجد الدولة لنفسها من أبنائها حماة وحـــراسا ، وذلك للفوارق الصارخة بين آبنائها .

★ ★ ★

أما أرسطو ، فنجده بدوره لا يفصل بين الأخلاق والسياسة . وشأنه فى ذلك شأن سقراط وأفلاطون . بيد أنه كان أكثر واقعية من أســـتاذه أفلاطون ، الذى أسرف فى مثاليته . فأرسطو يعتبر الأخلاق متصـــلة بالسياسة ، أو هى بالأحرى مقدمة لها . فلكى يكون علم الأخلاق كاملا، لابد من البحث أيضا فى السياسة .ان الأخلاق تبحث فى أخلاقية الفرد، وفى أخلاقية الدولة . والمبحث الأول هو علم الأخلاق ، والمبحث الثانى هو علم السياسة . فالأخلاق تنظر فى أعمال الانسان ، ولذا فهى عملية ، بينما الانسان (حيوان سياسى بطبعه) ، اذ لابد له من أن يحيـــا فى (مدينة) ، أى (دولة) ، حتى يتحقق كماله . وتدبير المدينة هو السياسة ، والأخلاق جزء منه . والسياسة هى قمة العلوم العملية جميعا. وهى التى تستخدم هذه العلوم من أجل غايتها وخيرها ، بينما الأخلاق تبحث فيما ينبغى العمل به ، وما ينبغى الانتهاء عنه ، وذلك لتنظيم الحياة بالقانون . وهذه الغاية نفسها ، هى غاية الفرد نفسها . وفيها خيره وصلاحه ، مع أنها غاية (مدينة) أى (دولة) بأكملها . اذن ، لابد من أن ترتبط الأخلاق بالسياسة ، طالما أن أخلاق الفرد ، لن تتحقق غايتها الا فى الدولة ، وفى الحياة الاجتماعية ، ومادام بلوغ الفرد غايته بدون هذه الحياة ، أمرا مستحيلا .

ولبيان ذلك نقول : للطبيعة غاية ، وللفرد غاية . وغاية الفرد ، قد تكون وسيلة لغايات أخرى ، وهكذا دواليك ، حتى نصل فى النهاية، الى غاية لا تكون وسيلة لغاية سواها ، بل تكون غاية فى حـــد ذاتها أخيرة ، لا تتغير . وماذا عسى أن تكون هذه الغاية التى لا تكون وسيلة

لسواها ؟ انها السعادة ، ضالة الانسان المنشودة ، وهى التى يبحث عنها، ويسعى اليها ٠

وللطبيعة غاية ، وللدولة غاية ٠ وهاتان الغايتان غاية واحدة ، وهى السعادة ٠ تسعى الدولة لاسعاد أفراد شعبها ٠ وبدون الدولة ، لا تتحقق هذه السعادة ٠ لأن الانسان لا يكون انسانا الا بالحياة فى دولة ، لأنه (حيوان سياسى بطبعه) ٠ أن من لا يعيش فى جماعة ، أو هذا الذى ليست له حاجات اجتماعية ، لأنه يكفى نفسه بنفسه ، اما أن يكون بهيمة من البهم ، أو الها ٠ اذن ، الحياة فى دولة ضرورة للفرد لاغنى عنها ، وخاصة أن هذه الحياة هى التى تزرع فى الفرد الفضيلة وتنميها ، وتعين الفرد لكى يفوز بها ٠ فلولا الحكومات ، ما أمكن تحقيق النظريات الأخلاقية ٠ وقصارى القول ، فللفرد غاية ، وللدولة غاية ، والغاية الثانية تشتمل على الغاية الأولى وتحتويها ٠ وبعبارة أخرى ، للفرد والدولة غاية واحدة ، هى السعادة ٠

هذا ، ونظرية أرسطو فى الفضيلة مشهورة ٠ فالفضيلة عنده وسط بين رذيلتين ٠فالتهور مثلا، طرف وهو رذيلة ، والجبن هو الطرف الآخر ، وهو رذيلة بالمثل ، والوسط بين هذين الطرفين (هاتين الرذيلتين) هو الشجاعة ، وهو فضيلة ٠ ولكن كيف يمكن معرفة هذا (الوسط) ؟ ان هذه المعرفة ، تتوقف على ظروف كل فرد ، ومايكون وسطا فى حالة ٠، لا يشترط أن يكون وسطا فى حالة أخرى عند فرد آخر ٠ ويلاحظ أن (نظرية الوسط) هذه ، هى التى يستخدمها أرسطو، فى بيان (شكل الحكم الأمثل) ، من بين الأشكال المختلفة ٠ وهذا يوضح لنا فى هذا الصدد ، منذ أول وهلة ، مبلغ الاتصال الوثيق بين الأخلاق والسياسة عنده ٠ يقول أرسطو : ان كل شكل من أشكال الحكم ، له مبدأ خاص به ٠ وهذا المبدأ وجيه بعض الوجاهة ، وليس كل الوجاهة ٠ وهو صحيح بعض الصحة ، وليس جميع الصحة ٠ ولذلك فلا يمكن لنا أن نفضل ، بصورة مطلقة ، شكلا من هذه الأشكال على شكل آخر ، باعتبار أن الشكل الذى نؤثره ، هو شكل بلغ حد الكمال على الاطلاق ٠ ولذا يجب ألا نختار نظاما ما ، بدون أن نقيسه بمقياس (نظرية الأوساط فى الفضيلة) هذه ، حيث أن أفضل النظم السياسية ،

هو الذى يكون (وسطا) بين نظم متطرفة ٠ ومن ثم فخير نظام للحكم هو الذى يقوم على الطبقة المتوسطة ، من بين طبقات المجتمع الثلاثه ، فمثل هذا النظام ، يجمع بين الأوليكارشية (حكم القلة) وبين الديمقراطية ٠ وهو الذى يمكنه أن يقاوم شطط الأحزاب واسرافها الحزبى ٠ وهو بذاته صمام أمن ضد المناورات ، التى قد تتم عن طريق اتحاد أو تواطؤ ، تقوم به الطبقة الأرستقراطية مع الدهماء ٠ وذلك جميعه يرجع الى حقيقة أن الطبقة المتوسطة ، أكثر الطبقات تأييدا من الطبقات الأخرى ٠والخلاصة ، (أصلح حكومة) لشعب ، هى (أنسب) حكومة له بالنسبة لظروفه هو بالذات ٠ وذلك على الرغم من أن أرسطو فصل القول فى الحكومات الصالحة ، وذكر عددها ، وبين خصائصها ومميزاتها ٠

وفى الفترة التى جاءت بعد افتتاحه (اللوقيون) Lyceum بمدة غير وجيزة ، نجد أرسطو يوسع تعريفه للسياسة ، ويمنحها بعض الاستقلال عن الأخلاق ، ويفصل بينهما بعض الفصل ، لكى يدخل فيها ،ما هو واقعى وتجريبى ،ويدخل فيها أيضا (انكتابالعملى) له فى فن الحكم ، ليكون هذا الكتاب فى متناول الحكام أنفسهم ، وغرضه من ذلك أن يبين امكان قيام سياسة تجمع بين المثالية والواقعية معا ٠

وقد يبدو من هذا جميعه ، أنه قصد الفصل بين الأخلاق والسياسة٠ ولكن ذلك لم يكن الا بالقدر الذىأشرنا اليه فيما سبق ،من حيثأنالسياسة تحيط أيضا بمعرفة (أساليب سياسية) ،علىالرغم من أن مؤداها قد يكون غير أخلاقى ٠ ومع ذلك ، فلا نستطيع أن نذهب ، الى أنه لم يظل مخلصا وفيا لمثالية قادة الفكر اليونانى ، وعلى نحو ما أشرنا اليه ، وعلى نحو ما سنتحدث عنه فيما بعد ٠ وعلى ذلك فلم يكن أرسطو فى هذا الموضوع نغمة نشاز فى سيمفونية توفيق هؤلاء بين الأخلاق والسياسة ، والربط بينهما ٠ وقد يكفى أن نقول هنا بأنه جعل الأخلاق بالنسبة للدولة هدفا أخيرا ، وغاية نهائية ٠ فالدولة عادة تضامن بين أفرادها ، ليعيشوا معا لتحقيق (أفضل) حياة ممكنة ٠ وصورة هذا التضامن ، أو بالأحرى هذه المشاركة الشاملة ، هى الصورة الوحيدة ،

التى يمكن للمواطنين والأفراد من داخل اطارها العالى والسامى ، واللازم والضرورى ، أن يحققوا فيها وبها (الفضيلة) ، للارتقاء الى أعلى درجات السلم الأخلاقى ٠

★ ★ ★

وهكذا كان موقف هؤلاء القادة فى الفكر الاغريقى من مشكلة العلاقة بين الأخلاق والسياسة ٠ ويمكن أن نعزو موقفهم هذا ، الى سعيهم نحو علاج ناجع شاف لتخليصهم من ويلات وآفات ما عرفوا به واشتهروا ، وهو (الداء الاغريقى القديم) ، (حب الفرقة) ، على حد تعبير (بوترو) Boutroux ٠ ففى الداخل ، كان الدستور الاغريقى، سواء كان دستورا لديمقراطية ، أو لحكومة أقلية (أوليكارشية) ، يخص ببساطة ادارة (الدولة ـ المدينة) ويقصرها فقط علىطبقة ذات (امتيازات محلية) ٠ فكان من شبه المحال ، أن يقوم اتحاد بالمعنى الصحيح المتكامل ، بين المدن الاغريقية ، التى تناثرت حول حوض البحر المتوسط ، أو أن يقوم بينها تعاون مثمر للجميع ، يحقق للجميع هدفا مشتركا ٠ فكل (دولة ـ مدينة) كانت فى قبضة فئة قليلة ، لا يتجاوز عددها مئات الرجال ٠ وكان هم كل فئة من هذه الفئات ، أن تظل كل (دولة ـ مدينة) ، منفصلة ومنعزلة عن المدن الأخرى ٠ ولم تكن هناك قوة تستطيع أن توحد الاغريق ، سوى الغزو الخارجى ٠ وحتى مثل هذا الغزو ، حينما تم أخيرا ، لم يكن له قيمة ، حتى بالنسبة لهم بالذات ٠ وفى الخارج ، كانت هذه المدن ، للأسف ، تتحالف مع الأجانب ، ضد المدن الاغريقية الأخرى ٠ فاسبرطة تتحالف مع الفرس، وتضحى فى نفس الوقت بمصالح أيونيا ، مرضاة لحلفائها الأجانب ٠ وبالمثل تتحالف أثينا نفسها مع الفرس ، عندما استحكم العداء بينها وبين أسبرطة ٠ ولقد استشرى هذا الوباء الاغريقى القديم (حب الفرقة) ، الى حد أن وجدنا (اكسنوفون) تلميذ سقراط ، ومعه شرذمة من أهل أسبرطة ، يحاربون تحت علم الفرس ، من أجل مصلحة فارس٠ والثابت أن الفرس كانوا قد أفسدوا ضمائر الأحزاب السياسية الاغريقية، بسحر الذهب وبريقه ورنينه ، مما جعل المواطنين ينفضون من حول

(ايزوقراط) الحكيم ، وهو يدعو بأقوى همة له ، وبأعلى صوته ، الى أن يتحدوا ضد الأخطار المشتركة !

وكان هذا أقصى ما أمكن للمعرفة الاغريقية أن تبدأ به وتنتهى اليه. ولم تكن له قيمة سوى المبادرة التى بادروا بها للاجابة على ما عن لهم (بالفتحة المشددة على النون) من أسئلة . وكانت هذه المبادرة بمثابة التحدى لأول مرة ، للعالم الذى يعيشون فيه ، ولأسلوب حياتهم فى (المدينة - الدولة) ، التى ولدوا فيها . وهذه المبادرة تشير لنا الى ان العقل الاغريقى بدا له أن فى مقدوره ، أن يغير الظروف التى تحيط به ، والحياة التى يعيشها منذ ماضى الزمان .

وقد يمكن أن نلتمس عذرا لهذا العقل . فقد أحاطت به من جوانب شتى ، حواجز محكمة حوله . لم يسلم منها الا فيما ندر . وكان من بين أهم هذه الحواجز والقيود ما شكل عندهم أفكارا عديدة . فأولا ، كانت فكرتهم عن جغرافية مدنهم فكرة ناقصة تافهة ، لم تتجاوز حدود مدنهم والبحر المتوسط ، أما العالم جميعه ، فلم يكن عندهم سوى مسطح لا نهاية له . وثانيا ، فكرتهم عن الآلهة المتعددين المختلفين ، الذين عجزوا عن حمايتهم . وثالثا ، فكرتهم عن القضاء والقدر . ورابعا ، فكرتهم عن القبيلة ، وقد أدانت نفسها بالانحطاط . وخامسا ، فكرتهم عن الرق . وقد كانت غالبية سكان (الدولة - المدينة) عبيدا ، أما القلة فكانت أحرارا . ولم يتصوروا أن الغاء الرق والقضاء عليه ، أمر ممكن وضرورى ، لأن من شأنه فى حقل السياسة ، أن يطبع (السيد) مالك العبيد بطابع (الفئة الممتازة) . والرق ، وفى حد ذاته ، يتنافى ويتجافى مع جميع المعانى السياسية والأخلاقية والانسانية ، وخاصة وأن الأرقاء ، لم يكن لهم بتاتا مكان فى الديمقراطية الاغريقية .

وكان من بين هذه الحواجز أيضا ، فكرتهم السياسية المشوشة . وكان يمكن أن تكون هذه الفكرة على درجة عالية من الأهمية ، بالنسبة لنظام (المدينة - الدولة) ودستورها . فهذا الدستور أناط الحكم بقلة من الأحرار عملت لصالحها ولا سواه ، كما قلنا ، حتى غدوا « صما وعميانا» « عن عدم استقرار (دولة - المدينة) ، وعن عدم استتاب أمنها فى »

« الداخل والخارج ، وعن ضرورة توحيدها فى وحـــدة فعالة »(١) ٠ ويجب الا يغيب عنا،أن (دولة ـ المدينة) هذه،هى التى كانت تقوم بنفى خير أبنائها وأصدقائها سياسيا ٠ ولقد كان من شأن هذه الحواجز أيضا، وهى التى قيدت العقل الاغريقى بقيودها ، أن أوضحت حاجته الى قدر أكبر من امكانيات المعرفة ، وخاصة المعرفة التاريخية ٠ فلم يكن للاغريق أى قسط كبير يعول عليه ، من العلم بتاريخ البشر وماضى البشرية ٠ فكل ما كان فى متناولهم فى شتى فروع المعرفة ، وفى أحسن الظروف « بضع تخمينات تتم عن طريق فكر صائب »(٢) ٠

★ ★ ★

أجل ، كانت هذه من أهم القيود والحواجز التى قيدت العقـــل الاغريقى ٠ وقد اعتمدنا فى تحديدها على المؤرخ الفذ هـ ٠ ج ٠ ولز H.G.Wells فى موســـوعته التـاريخية حيث يقـــرر خـلو « عـالم » « أفلاطون وأرســـطو و (ايزوقراط) ، من أى معين من المرئيات » « التاريخية»(٣)، وحيث يصور لنا فكرتين ، (فكرة العلم) ، باعتبارها « أعظم الأفكار الانسانية وأسماها(٤) » ٠ وهذه حقيقة ، وأى حقيقة ، «« اذ ليس هناك قانون أو شرعة أعظم من المعرفة » ، بينما « الجهل» « خراب الدول»٠وثانيتهما (فكرة التاريخ والفلسفة) ، وقد أصبحت حينذاك ذات معان سهلة ميسورة ، وأصبح نقلها أيضا الى الناس ونشرها بينهم ، أمرا سهلا يسيرا ٠ هذا ، ونجد هـ ٠ ج ٠ ولز ، وقـــد اتخـــذ (هيرودوت) و (أرسطو) طرازين مثاليين (لفكرة العلم) ، على أساس أن (كلمة العلم) « فى أوسع معانيها تشمل التاريخ ، وتدل على» « صورة للانسان واضحة ، فى علاقاته بالأشياء حوله » (٥) ٠ ويتضح لنا

---

(١) هـ ٠ ج ٠ ولز : معالم تاريخ الانسانية ، الترجمة العربية ، للاستاذ توفيق جاويد ، المجلد الثانى ، ص ٣٣٧ ٠

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٦ ٠

(٣) نفس المصدر ص ٣٧٦ ٠

(٤) نفس المصدر ص ٣٧٧ ٠

(٥) نفس المصدر ص ٣٧٧ ٠

من خلال ذلك ، أن المؤرخ الكبير انما قصـد بالتاريخ ، معنـاه فى صورته المتميزة ، عن مجرد (المدونات التاريخية) ، ذات (السـمة الكهنوتية) ، لينأى عن تلك (التخمينات) التى سبق اشارتنا اليهـا منذ هنيهة ، على الرغم من أنها كانت تتم عن « طريق فكر صائب عند الاغريق » .

ومع ذلك ، تألق الفكر الاغريقى عند كبار رجاله وقادته . الا أن (أرسطو الواقعى) ، نراه عند هـ . ج . ولز ، وعند غيره ، سواء من زمرة المؤرخين ، أو من كوكبة النقاد والمفكرين،فى التاريخ والفلسفة ، قد أضفى على جبين هذا التألق الاغريقى ، مزيدا من السناء والرواء ، وذلك بالاشادة ببداهة العقل الاغريقى .ولا غرو ، فالاغريق « أهل » « ذكاء وسرعة بديهة » ، كما قال عنهـم (هيرودوت) أبو التاريخ . ومرد هذا السناء والرواء ، انما هو ميل أرسطو الى الواقع والتجربة ، وتقريبه لفكره من التجارب والمشاهدات والتاريخ ، وانحيازه فى أوج فكره العظيم الى (الطبيعة) فى مقابل المظاهر والتقاليد ، ومزج البارع الاستقرأء التجريبى بالاعتبارات النظرية للمثل (بضم الميم) ، وادراكه الاجتماعى الذى اكتسبه ، نتيجة لتأملاته ودراساته الاجتماعية والسياسية والبيولوجية ، وصبغه دراساته بصبغة التاريخ ، فى أحيـان كثيرة ، حتى قيل ان دراساته أصبحت « دراسات تاريخية أكثر منها » « فلسفية »(١) . والأهم فى مقامنا هذا ، أن علم السياسة عنده أصبح تجريبيا ووصفيا أيضا ، ولكن بصورة غير خالصة(٢) . وفضـلا عن جميع ما ذكرنا عن(أرسطوالواقعى) ، يجب ألا ننسى « قوته الخارقة » «فىالتنظيم المنطقى ، الذى يطبع فلسفته فى جملتها(٣) » ، والى هذه القوة عنده يعزى الفضل فى قدرة أخرى له ، من حيث استطاع « أن » «يحدد الفروع الرئيسية للمعرفة العلمية تحديدا ظل قائما حتى العصور»

---

(١) جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، الترجمة العربية للاستاذ حسن جلال العروسى ، ص ١١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٦ .

« الحديثة » . وما أوجبنا أن نعيد ذكر ، ما سبق أن أشرنا اليه اشارة سريعة ، ألا وهو توسيعه لتعريف السياسة الجديدة عنده ، لكى يحتضن ما هو تجريبى وواقعى ، والحكومات الواقعية ، والكائنة ، وعلى الأخص (الكتاب العملى) له ، فى فن الحكم الجديد عنده ، ليكون فى أيدى الحكام، الذين يحكمون حكما جد بعيد عن المثالية(١) . وقد يعزى الى تلك القوة الخارقة أيضا فى التنظيم المنطقى ، وهذا التوسع فى تعريف فن الحكم الجديد ، وما هو سواهما ، ما ظهر من تفريقه بين الأخلاق والسياسة ، فى بعض النواحى . والواقع أن هـذا التفريق ، جاء منه دون قصد(٢) ، وانما هو « المنحى الجديد ، فى فن الحكم ، » « هو الذى جعله موضوعا للبحث مغايرا للبحث فى المبادىء الاخلاقية ، » « من الناحية الفردية والشخصية(٣) » . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، نلقى هذا التفريق ، غير المقصود عنده ، قد نز من قوته الخارقة فى التنظيم المنطقى(٤) ، السابقة الذكر من تونا .

وعلى كل حال ، فلا شك أن (أرسطو الواقعى) ، لم يتنكر لمثاله السياسى الأعلى ، وكذلك لمثله الأخرى ، حيث تسود الأخلاق فيها ، وحيث نلمس حرصه على الابقاء عليها ، كما كانت عندما وضعها من أجل الدولة . لتظل جميع هذه المثل غايات كبرى لهـا ، فى وجودها وتواجدها . فالدولة عنده « شىء طبيعى » أيضا ، وهذا الشىء هو الذى يهيىء من داخله ووجوده ، جميع الظروف والأحوال للوصول الى أعلى مرتبة من الارتقاء الخلقى(بضم الخاء واللام)، للفرد، والدولة . وهكذا، وكما سبق أن قلنا وطبقا لذلك ، يظل أرسطو نغمة غير نشاز فى سيمفونية الربط بين الأخلاق والسياسة ، عند قادة الفكر الاغريقى .

★ ★ ★

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

والآن ، كم يبدو لنا،ونحن نبحث فى السياسة والأخلاق،ربطا بينهما وتوفيقا ، أو فصلا بينهما وتطليقا ، أو بين بين ، أن من الخير الذى يصح صحة الصحيح أو الأصح ، أن نتناول الموضوع ، من خلال النظريات والممارسات ، فى مجرى التاريخ ، دون اهمال لما قد يصادفنا على شاطئيه متصلا بالموضوع ، وذلك على مر الأجيال ، ومع كر الغداة ومر العشى . والتاريخ عادة يتعامل مع (أعمال) قادة الدول ورؤسائها، وسائر الأبطال ، وبالمثل يتعامل مع (أفكار) قادة الفكر ، وكبار الفلاسفة ، وأصحاب المذاهب .

وازاء ذلك ، فثمة خطوات كتبت علينا ، لنخطوها فى هذا المقام. وهى أن نقوم بطى أحقاب وقرون من التاريخ ، ثم نقفز من فوق هذه اللفافة التى جاءت من طينا (بفتح الطاء والكسرة المشددة فوق الياء) ، لنصل من حيث نحن فى هذه العصور القديمة ، لننتهى عند (عصر النهضة) ، أو (البعث الجديد) ، لنهبط فى ايطاليا ، وعلى أرض فلورنسا ، وعلى ضفاف نهر الأرنو الجميل . وذلك ، حتى نلتقى ونطارح ، مدققا فى التاريخ أحكم بثاقب فكره ، فحص التاريخ وتمحيصه ، فكان الدارس المحقق للتاريخ ، وقد عرف خالصه وكنهه ، على شاشة السياسة والطبيعة البشرية . اما بغيتنا هنا فهى أن نضع أمام هذا المدقق المحقق ، فى زمانه ومكانه ، موضوعنا هذا ، ليحدثنا هذا المحقق المدقق ، بما رأى ، وبما تراءى له . فماذا عسى أن يجهر أو يهمس به من قول ؟ وماذا عسى أن يثير جهره بالقول أو الهمس ، من عواصف قليلة أو شتى ؟

الفصـــل الثـــانى

البعث الجــــديد

يقول (جورج سانتيانا) George Santyana في أحد أناشيده :
خلق الله آدم مرتين ، مـــرة حين خلق آدم ، وأخـــرى حين خـلق (شاكسبير) . ونفس القول ، يصدق على واحدة من روائع (ميخائيل انجـلو) Michael Anglo ، وهى (لوحة الخلق الجــديد) ، على سـقف (كنيســة سستين) Sistine Chapel بروما ـ لا موجود سوى الله ، والعالم وشيك الخلق . فأوجد الله الخالق النـــور والظـــلام ، والشمس والقمر ، وفصل الماء عن اليابس ، وسوى آدم ونفخ فيه من روحه . ان آدم الجديد ، له نفس صورة آدم القديم ، ولكن يفوقه نبوغا وعظمة ، ومجدا وعبقرية ، وطاقة وقدرة . وجميع هذه الامكانيات ، أبدع وأقوى مما كانت في خلقه القديم . فالجســـم بلا دثار أو ازار ، ولا حياء ولا خـــوف ولا خفر ، ولا جبن ولا حيطة ولا حذر ، تقطر القوة من عضلاته ، بل تكاد تتدفق . وملامح وجهه تنم بجرأة عن الفتوة والقوة . وهذا الانسان الجديد ، يسعى ما وسعه السعى ، في حومة الكد والجد ، وقد ملأ تجويف صـدره من نسـيم الحرية ، وأخذ ينطلق الى آفاق الحياة ورحابها ، فازعا الى النور ، في لهفة وشوق وظمأ .

وكأن الفنان الخالد ، أراد أن يصـور لنا (عصر النهضـــة) ، ويكفينا شر الضلال ، لو أردنا تعريف هذه الحركة في التاريخ . لأن التعريف ، مهما كان الأمر ، يجعل المرء يتردى أحيانا في حفرة الخطأ المظلمة . أن النهضة لم تكن سوى حركة انطلاق ، لتجديد قوى (الكون

الأصغر) أى الانسان ، وقد رفع الى ما يقرب من مراتب الآلهة ، للايمان بعزته وقوته ، ولايقاظ شعوره بذاته ، ولاحياء احساسه (بالكون الأكبر) أى الطبيعة التى يحيا فيها،بل ويحاول السيطرةعليها،لكى يذوق الجمال ما قدر له الاحساس به ، دون قيد يقيده ، أو موجه يوجهه الى ناحية دون غيرها . وهذه الحركة لم تسكن لقـــرنين من الزمان . وخضعت عجلتها لمنطق الحركات فى التاريخ . فكان لهـــا مبشرون وأنبياء ، وحراس وأمناء ، عاشوا على دفئها وحرارتها ، وسهروا العمر يحافظون على شعلتها ونورها . ولقد سرى تيارها فى شتى البقاع (ايطاليا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وأسبانيا) . وأخذ يتنقل بين شـــتى النواحى والأرجاء ، ثم يترك وراءه عالما جديدا ، ودنيا طريفة . ولم تكن النهضة تيارا بمعنى الكلمة ، وانما على سبيل المجاز . لقد كانت بالأحرى ، أشبه ما تكون بظاهرة من الظواهر الطبيعية ، وهى ظاهرة (الجو) الذى أحاط بالانسان ، فأخذ يتنفس فيه لكى يستمتع بالحياة ، ويذوق جميع طعومها بكل جرأة ، ويفهم مختلف معانيها بكل جسارة ، وينعم بما شاء أن ينعم به ، من صورها الجميلة .

وكان الدافع الى هذا (البعث الجديد) ، أى الميلاد الجـــديد ، دافعا شاملا ، سبقه وقدم له ما يشبه الكشف والتجلى ـ كشف العقل ، واجتلاء امكانيات الانسان . اذ كانت (النهضة) ، على هذا الأساس ، حالا من أحوال العقل ، أكثر من أن تكون نتائج تبلورت . وهذا هو السر ، فى أن هذا البعث ، حين تبلور فى بللورة الطقوس الجمالية ، تردى فى الهاوية ، ولقى حتفه . ولكن قبل ذلك ، كان واجبه المعقد قد كمل ، وتميزت عناصره ، ومن بينها عنصران من عناصر هذا البعث فى غرب أوروبا ، وهما التحرير والتعبير .

لقد كانت النهضة تعبيرا غير محكم ، عن صور كثيرة من صـــور الصدور : الاصلاح الدينى ، واحياء الفن ، والثورة على الروح المدرسى، واتساع الأفق البشرى اتساع أفق العالم . ولو أردنا أن نرجع الأمر ، الى أسباب أخرى خارجية ، لأرجعنـــاه الى أســـباب كثيرة . فأولا ، نفق وحش الاقطاع البشع ، ثم ركله الأحرار فى النهاية . وتكسر قيد من قيود

السلطة الجبارة ، ونال الفـــرد حـــريته · واســـتولى الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وهرع المدرسيون الاغريق الى الغرب ، ومعهم غنائم المخطوطات ، وآيات من الفن منحوتة ، وكشفت الطباعة ، فدفعت بالكتاب الى أيدى الجماهير تتناوله وتتداوله ، وعـــرفت أمريكا التى أثر كشفها تأثيرا هائلا على التجارة والثروة والنقل · وهذه الأحداث التاريخية كانت بدورها ، أمارات منظورة ، لقـــوة دافعة ضـــخمة ، اندفعت من باطن الفرد وهو يؤكد ذاته ، ويؤكد الطبيعة أيضا ، ويحاول السيطرة عليها ، وهو يتلهف الى المعرفة من أجل المعرفة ، والى التحرر الفكرى من كابوس المنطق المدرسى العقيم ، والتمرد على غاية (الكيمياء السحرية) ، وهى الحصول على (حجرالفلاسفة) ·

ان (را بليـــه) على حـــد تعبيـــر هـ · ج · ولز H.G.Wells ، انفجر كبركان من الحمم صاخب محرق ، يقدم الينا أميره (جراجنتوا) Garagantua ، أى (الطفـــل المارد) ، الـذى ولـد فى هـــواء العراء ، وتحت قبة السماء مباشرة ، وأخذ يدور بأنفه فى كل اتجاه ، يشهق بعمق ويملأ رئتيه من نسيم الحياة · ان (رابليه) يقدم لنا بذلك، رمزا حيا واعيا (لطفل النهضة) ، الذى طلع على الدنيا ، وقـــد فك قماطه وتحرر منه ، عطشان يريد أن يطفىء ظمأه بالشرب العميق ، تواقا الى النمو والشبوب بقوة وسرعة ، كى يستطيع أن يحطم الحواجز المصطنعة ، التى حرم عليه بعض رجال الكنيسة الوثوب من فوقها ، أو مجرد الاقتراب منها أو لمسها · ولقد رغب (طفل النهضة) هذا ، فى أن يعيد للحواس وظائفها،اذ كان نفر من هؤلاء قد علمه دون أمانة، ولعلة فى نفسه ، أن يحتقر الحواس · لقـــد انكشف الجمال للانسان وتجلى ، وذاق البشر السرور واللذة ، وكانهما لم يكونا من قبـل ، أو كأنهما عادا من جديد ، بعد أن تعلم الانسان ، أن هذه الأمور ، من ألد أعداء المسيحية · وقد كانت المخطوطات التى وجـــدها ، والتماثيل والتحف التى عثر عليها ، مصدر الهام للانســـان ، ومنبع وحى له ، فغمرته نشوة عجيبة انغمس فيها ، وسرت فى نفسه سكرة لطيفة · وفى غمار ذلك ، قدر الانسان الطبيعة ، وآمن بالبدن ، واعتبره دليلا على قوة الروح ، لا عدوا لها أو منافسا ·

وهنا نصل الى العنصر الثانى من عناصر (النهضة) ، وهو التعبير. والتعبير يلزم له ، أن يشعر الانسان بما يعبر عنه . والتعبير ، سواء باللفظ والعبارة ، أو بالرسم والحجارة ، كان ساذجا فى العصور الوسطى،وكان وصفيا رمزيا،يقيده فى أغلب النواحى قيد العرف . ولكن حين أصبح الانسان أكثر شعورا بذاته ، وأقوى اتصالا ووعيا للكون الذى يعيش فيه ، أى حينما استيقظ الانسان على الشعور بالجمال ، واشتعل انفعاله به وأضاء ، بحث عن التعبير فى قوالب الفكر ، أى اللغة . لا اللاتينية ولا الاغريقية ، ولكن لغة الأرض التى يعيش عليها ولها ، أى فى لغة بلاده ووطنه وقومه . وهذا لا يعنينا فى حد ذاته ، وانما يعنينا فحسب ، من حيث أن هذه اللغة ، قد أصبحت قالبا لصب الشعور القومى فيه ، اذ بدأ الانسان يشعر هذا الشعور فى هذه الفترة من التاريخ . ان (النهضة) ، لم يكن يقدر لها أن تكون بمعناها الحقيقى ، دون قيام الحماس العقلى ، كوسيلة لنشر المعرفة . ويبدو أن هذا الحماس ، هو الذى أوجد الطباعة وكشف عنها ، عندما أصبح تيار هذا الحماس قويا جارفا ، وأراد أن يستقل بمجرى خاص به . ان الطباعة أصبحت وسيلة من أهم وسائل الثقافة والتثقيف ، واخصاب العقول واثرائها ، اذ جعلت الكتاب فى متناول أكبر عدد من الأفراد ، وأطلقت الأبصار والأفكار من معاقلها ، وقضت بألا تظل حبيسة تحتكرها فئة قليلة وتتحكم فيها ، لأن الكتب أصبحت رخيصة جدا ، وذلك حينما باعت (مطبعة آلدين) Aldin Press فى فينسيا الكتاب بما يساوى خمسة قروش ، أو دون ذلك (١٤٧٤) .

وهنا يتساءل المرء : هل الأفكار والرجال ، هم الذين يخلقون الحركات ، أم الحركات هى التى تخلق الرجال ؟ اننى أميل الى الاجابة التى تجمع بين شقى هذا التساؤل . فكل حركة لها محركون ودعاة . وكل داعية يسير فى اثر داعية ، يؤثر فيه ويتأثر به ، حتى يقدر للأفراد المفردة ، أن تتكتل فى جماعات صغيرة بادىء الأمر ، ثم تتطور هذه الجماعات الى حشود ، وما كان فرديا مفردا يصبح شاملا عاما . وحينئذ يبدو لنا ، وكأن الحركات هى التى تلد الرجال . لأن مع حاجات الجماعات ، يقفز من البشر أبطال يحملون المشاعل ، ويحققون هذه

الحاجات . وما أشبه الحال فى هــــذه الدائرة ، بالمغناطيس وبرادة الحديد . المغناطيس يمغنط كل حبة من حبات البرادة ، ثم تصبح كــل حبة بدورها مغناطيسا قائما بذاته ، يؤثر فى غيره ويتأثر به .

★ ★ ★

وعلى كل حال ، فقد سرى تيار (النهضة) فى غــرب أوروبا . ولكنه كان قد اندفع بقوة كبرى فى ايطاليا . وأصبحت هذه البلاد المعين الاول ، الذى ورد اليه الناهلون منهـــذا التيـــار . وفى كل قطر ، تشكلت النهضة بشكل خاص به ، يتلاءم مع خواصه العقلية ، وسـماته الروحية والنفسية ، وظروف حياته ، وأحواله الاجتماعية . ان (رابليه) يحـــدثنا ، كيف أن الباحثين عن معبـــد (باك بك) Back Buck ، حينما عثروا عليه ، ووصلوا الى المذبح ودخلوه ، قدمت اليهم الكاهنة النبيذ ، فتناولوه شربا وغبا . وعلى الرغم من أن الشراب كان واحـدا خالصا ، وله طعم واحد بطبيعته ، الا أن تذوقه تباين بتباين الشاربين واختلاف تذوقهم له ، فاختلف استمراؤهم لهذا النبيذ . وهـذه الحالة نفسها تصدق كل الصدق ، على خمر (النهضة) ونبيذها . »

ولقـــد اختلفت مذاقات (النهضـة) فى ايطاليا نفسها ، تبعـا للخصائص المميزة لروح كــل مدينة . فــكل مدينة كبيرة أو مقاطعة ، لونت (النهضة) وصــبغتها بالألوان التى تتفق مع روحها . وحسبنا اشارة موجزة ، الى الفن مثلا . فالفن الذى صدر عن كل مدينة من مدن ايطاليا البارزة (روما ، ونابولى ، ومانتوا ، وأومبريا ، والبندقية ، وسيينا) اختلف ، على هذا الأساس ، عن فن كل مدينة سواها . الا أن روما كانت الجـــدول الذى تلاقت فيه وتجمعت هـــذه التيارات الفنية المتباينة ، فجمعتها ونقدتها ، دون أن تكون لروما منحة فنية طـــريفة خاصة بها . ولكى نوضح ذلك قليلا نقــول : لئن كانت مانتوا Mantua وفــــرارا Ferrare تتبعان المذهب العقلى ، فان البنـــدقية ونابولى كانتا وثنيتين يقدسان الطين . ولئن كانت سيينا Sienna رمزية صوفية، فان فلورنسا كانت موطن صراع عنيف بين الشك والايمان ، وبين الجمال

والواجب ، وبين العقل والنقل . فقــد أقامت فلورنسا فنها المثالى ، بالتزاوج بين قداسة الجمال ، وجمال القداسة ، والوثنية والمسيحية . وقصارى القول ، عبدت فلورنسا فى محراب الفن ، وفى وقت واحد ، اله الروح السامى اللطيف ، واله البدن الفيزيقى الكثيف .

فلورنسا ! لقد كانت أولى المدن ، بعد أثينا ، فضــلا على التراث الانسانى ، كما يقول (رينان) Renan . ففيــها تسامــت الطقوس الجمالية ، وازدهرت الآيات الفنية الفريدة ، التى حــيرت العلمــاء . وذلك فى فترة كان مرجلها يغلى بحيوية فــوارة ، جمعت بين ألوان الحياة المتناقضة ، التى أصبح المؤرخون يعرفونها بكلمة واحدة ، هى (الغزارة) . لقد أصابت فلورنسا حينذاك حمى هستيرية عجيبة ، جعلت عضلات أبنائها تنشط وتنفتل ، ونظراتهم تقوى ، وأرواحهم تدب فيها الحياة . وكانت تلك العضلات ، والنظرات ، والأرواح ، بمثابة عناصر لشخصية فلورنسا ، وعوامل تشكيل لملامحها البارزة . ان فلورنسا ذات الاسم المزدهر ، ترقد وسط حوض نهر (الأرنو) الجميل ، وتحيط بهــا الحدائق ، وتطوقها التلال ، وتبدو من بعيد كالقلعة شاهرة الســلاح ، وذلك بأبراجها التى تتوج قصورها . ان فلورنســا جمعت فى فنهــا المعمارى ، بين رقة ذات ذوق مرهف شفاف ، وبين قوة تصل الى حــد الضراوة . وقد جمعت فى حياتها الاجتماعية ، بين البحث الجاف ، والعبث المائع . فكانت الحياة فيها فاخرة ، يتسامر القوم فيها بالشعر الرقيق ، والعشق الدافىء ، وباللغة الجميلة ، وفى نفس الوقت ، لابأس من دس السم ، والاغتيال والقتل ، كما لو كانوا حينذاك ، فى أظلم أيام العصور الوسطى .

ولم تكن فلورنسا مركز اشعاع فنى وعقلى فحسب ، بل كانت أيضا ميدانا للشحناء ، والبغضاء ، والتمزق والتفرق ، وذلك بين الأسر الكبيرة وعملائها . ولقد بلغت الفوضى السياسية ، أقصى ما بلغت اليه ، فى نهاية القرن الخامس عشر .

وحول فلورنسا ، نجد ايطاليا ، وقد بلغت من الانقسام مبلغا لم

تشهده من قبل ، وغدت مسرحا للأحداث المعقدة ٠ ومما زادها تعقيدا ، نزول الجيوش الفرنسية فيها ٠ فقد ملأ مسرح التاريخ الايطالى شتى الحكام المستبدين،أى الطغاة ٠ ولم يكونوا سوى نتاج اجتماع العنف مع التجارة ، كما يقول (فيشر) * ٠ فالمدن الايطالية لم تكن تعرف سوى العنف والجموح ٠ ولم تكن تركب سوى متن الأثرة الفردية ، وأطماع التجارة ، ومطامع السياسة ٠ فالحرب تشن لأتفه الأسباب ، والأحلاف تعقد حسبما يملى شيطان المصلحة ٠ وكانت السياسة لا يسيطر عليها سوى مبدأ التحول من الموقف الى ضده أو نقيضه ، حسب الظروف والأحوال ٠ ومما كان يطعم الفساد فى ايطاليا ، ويجعله ينمو ويترعرع، ما كانت عليه الأحزاب السياسية من انحلال ، اذ كان ديدنها الفساد ، وناموسها الضلال ، وهمها اثارة الفتن ، لتحرق ولا تنير ، متخذة من مصلحة الوطن والمواطنين حطبا ووقودا ، فى غير حياء أو خشية وطنية ، ودون اعتبار للصالح العام،وبلا مراعاة لحرمة القوم أو الوطن٠ فما لبثت كل مدينة ، أو مقاطعة ، أن أهتز كيانها جزعا وحسرة ، ثم شوقا الى يد من حديد ، تكبح جماح الروح الحزبية ، وتصون سلامة الوطن ، وتحافظ على صناعتها وتجارتها ، وتحيى مواتها ٠

★ ★ ★

أجل ، فلو بلورنا المعرفة فى هذه الفترة لكانت (النهضة) ، أى (البعث الجديد) ٠ ولو بلورنا (النهضة) لكانت ايطاليا ٠ ولو بلورنا ايطاليا لكانت فلورنسا ٠ ولكن ماذا عساها أن تكون فلورنسا لو بلورناها بدورها ؟ لا ريب ، فى أن تصبح بللورة فلورنسا ، بروحها الذى يجمع بين الرقة والضراوة ، وبين اللطف والعنف ، سوى عبقرى جبار الرأى ، قاسى الفكر ، ثاقب النظر ، و (شيطان) يستمطر الأخلاقيون اللعنات على أم رأسه ، وقد جرد الأخلاق من سلطانها

---

* هـ ٠ ا٠ ل٠ فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، الترجمة العربية ، للدكتور محمد مصطفى زيادة ، والاستاذ الباز العرينى ، والدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، ص ٤٢١ ٠

فى غـــاب الســـياسة ، بل جعـــل الاخـــلاق عبـدة للدولة وأمة (بفتح الالف والميم) تأتمـــر بأوامرها ، مادام فى ذلك نفـــع للدولة أو مصـــلحة • فلا فلسـفة للدولة سوى فلسـفة واحـــدة ، هى (حق الدولة) ، علاجا وحيدا لايطاليا ، لتدب فيها الحياة • وهذه الفلسفة انما هى الفلسفة الوحيدة الخصبة والثرية التى تحفظ بقاءها •

واذ بهذا الجبار يصرخ فى هذه الفترة ، بلغة القوة والعدد ، وينفخ فى نفـير أجش كالبـــوق ، وليس ناعماً كالنـــاى ، ويحـــذر من أن (ما ينبغى أن يكون) هراء ، وسياسة عرجاء ، وفكرة فجة ، تفسد عقول الساسة والقادة ، ولا تدل هذه الفكرة ، أن دلت على شىء ، الا على فكر سياسى سقيم وعقيم ، ينتهى بصاحبه الى كهوف الأوهام الرطبة • اذ أن هذا الذى يجعل الدولة تقف على ساقيها ، فى معترك الصراع ، انما هو القوة والعدة ، من أجل (الوصـــول) و (النصر) ، و (الحفاظ على البقاء) ، حتى لا ترمى (بضم التاء وفتح الميم) فى أعماق الجب بين الرمم والعظام النخرة ، وقد فوتت على أنف الدولة السحرى ، أن يستنشق عبير المنعة ، ونسيم القدرة ، وأريج الحرية ، لتسرى جميعها فى كيانها وبنيتها ، علاء ، وسيطرة ، وعظمة ، ومجدا • ان هذا (الشيطان) هو الذى بشر بشرعة (الوسيلة) من أجل (الغـــاية) ، وهـــذه الغـــاية واحدة وحيدة ، هى الدولة • والدولة نفسها ، لابد أن تؤمن بهذه الوسيلة وذلك الهدف ، حتى ولو وجدت الوسيلة الناجعة فى حلبة السياسة قـــذرة ، أو دنيئة ، أو منحطة ، أو مفترسة ضارية ، أو فتاكة وحشية ، فما عليها سوى أن تتشبث بها ، وقد استقينت بتبصر ، أنها تفتح أمامها طـريقا فســيحا لمصلحة عليا ، أو مستقبل كبير زاهر مفيد ، وتضمن لوجودها مكانة قوية سامية رفيعة ، تبدو فيها معانى السبق الســـياسى الطليعى وحقائقه ، فى كل اتجاه ، من أجل صالحها وشعبها ، ليتحقق لها بالفعل الوجود القوى ، فى أروع الصور وألزمها ، والقدرة الحاسمة فى مواجهة العقبات والمكاره ، فى صبر ومثابرة ، وصرامة وجدية ، حتى النصر ، تحت لواء الحكمة ، وحسن التبصر ، وتقليب الأمور دائما ، غير خجلة من وسيلة أو أخرى ، تحقق لها أهدافها ، وخاصة أن الخجل أو الحياء ، كثيرا مالا يشـفى الدولة من داء ، أو يضمن لها حياة أو بقاء •

الفصل الثالث

الشيطان وتعاليم الشيطان

ولم يكن هذا (الشيطان) سوى نموذج من النماذج الفكرية النادرة والخبيرة ، التى فصلت الأخلاق عن السياسة ، بعدما خبرت السياسة ، ولفحت وجهه بلهيبها ، وهو يعمل حول بوتقها . فعرف كيف تحرق ، وكيف تذروا الرماد ، وكيف تأكل حتى نفسـها ، وكيف تتخلص من أعدائها ، وكيف تنشر نورها . وهذا الشيطان ، قـد امتزجت روحه بالسياسة وانصبغت بها منذ وقت مبكر ،فدرس مظاهرها ، وعرف باطنها ، وجرب حيلها وألاعيبها ، وعين كمائنها وخنادقها ، حتى أصبحت السياسة بالنسبة له كوطن يعيش فيه ، وشاعت روحها فى روحـه ، وتشبع هو بقواها ، فى مدها وجزرها ، فانعكس على مرآة نفسه بجلاء ، صـراع القادة ، وصراع الحكام ، وصراع الأحزاب ، وصراع الدول ، فاهتز قلبه فى كـل حـين أسـفا وحـزنا ، لمنظر وطنـه ايطاليـا ، وهى « بلا نظام »* .

ان هذا الشيطان هو (نيقولا ماكيافللى) . ولد عام ١٤٦٩ ، فى الفترة التى يسميها مؤرخ كبير انجليزى ، هو (ج . أ. سـيموندز) J.A. Symonds ، « عصر الطغاة » . واذا علمنا أن أباه كان محاميا ؛

---

* محمد مختار الزقزوقى : نيقولا ماكيافللى ، القسم الثالث ، (نص كتـاب الامير) ، الباب السادس والعشرون

مكننا أن نرجــع الى عامل الوراثة ، ركنــا هاما من مذهبه ، وهو السعى وراء (النصر) وتحقيق (الغـــاية) بشتى السبل ، والالحاح من أجل (الوصول) الى المبتغى من الغايات . ونحن نعول فى ذلك على (فردريك نيتشه) فى القرن التاسع عشر ، وهو يصور لنا الطابع العام الذى يرثه العلماء عن آبائهم ، خصوصا اذا كان الآباء أصحاب مهنة . يقول نيتشه : « يكاد أن يكون فى مقـــدور المرء أن يدرك من وراء » « الطابع العقلى العام لعالم من العلماء، ولكل عالم طابع وميل عقلى ، » « كل التاريخ السابق على وجود هـــذا العالم - تاريخ أسرته ، وما » « عملت به من مهن وحرف . فولد المحامى سيكون بالضرورة محاميا ، » « حتى فى بحوثه العلمية ، اذ أن غرضه الاول ، هو أن يجعل رأيه » « ونظريته ينتصران » . ونحن نضيف الى هذا الرأى ، عاملا آخـر طبــع تفـــكيره . فماكيافللى ، الذى كثـــيرا ما عرف مسارح السياسة وكواليسها (دون ديكور أو مكياج) ، وكشفت عيناه (الواقعبكله وكليله) ، لم يكن يغمض عينيه خوفا وقشـــعريرة ، فيغيب عنه (الواقع) ، فلا يبصره بدقة ووضوح . ومن ثم كان يسمى الأمور بمســـمياتها الحقيقية الدقيقة ، دون أن يضفى عليها ما يشوب حقيقتها ، حتى ولو كانت هذه المسميات قاسية . انه (الواقع) الذى كان يبغيه دائما ، ولا شىء غيره، فى ميدان السياسة ، سواء فى (غابة الأسد) الوحش المفـــترس ، أو فى (مغارة الثعلب) الحيوان الماكر المراوغ.ولامراء فى أن من يقربون هذه (الغابة) أو (تلك المغارة) ، هم فحسب أصحاب الجراة ، وأهل الذكاء ، لا أهل السذاجة أو الغفلة . فالغابة والمغارة لا يعرف سكانها رحمة أو شفقة ، ولا الروح الرومانتيكية الحـــالمة . وليس فى التعامل معهما ، سوى صور شتى من تبصر ، وانقضاض ، ومخاطرة ، وانطلاق. وقبل المغامرة لدخولهما ، لابد من أن نحسب لكل أمر حسابه ، وأن نضع لذلك خطة ماهرة حاذقة ، ذات ألمعية هادئة ثاقبة ، وحجر الزاوية فى كل هذا وذاك ، هو (العقل العملى) .

تلفت ماكيافللى حوله ، ووجد ايطاليا منقسمة الى خمس امارات، وألفاها ميدانا للصراع بين فرنسا وأسبانيا ، والامبراطور (ماكسمليان) Maxmilien ، ومملكة الصقلتين الكبيرة le royaume des Deux Sisiles

تحت نفـوذ أسـرة حاكمـة أجنبيـة ، و (سـفورزا) الذى استدعى الفرنسيين لدخول ايطاليا ، وايطالى آخر من آل (مديتشى) Medici ، بلغ به الانحطاط والدناءة الى حـد تسـليمه حصـونه واستحكاماته لهؤلاء الأجانب ، ولكن فلورنسا قامت بانقلاب وطردته . ولقد قدر لهذه الامارات أن تفزع وتطرد الفرنسيين ، وتم ذلك بمساعدة الأسبان وجنود الامبراطور . لقد كان الوطن الايطالى فريسة بالفعـل لظروف قاسية ، وانحلال واضمحلال ، وشرائع قومية فاسـدة ، وقيم وطنية هزيلة ، وشيع غير بناءة ، أما وجه ايطاليا فكان شاحبا باهتا . اذن ، لابد من تطهير الحرم القومى من هـذه النجاسة والخبث ، ولابد من اعلان رسالة قومية جديدة ، ولابد من أن تصنع من هـذه الحبات المفككة حجرا صلدا أقوى من الصوان ، ولابد من تحطيم أصنام عديدة ، ولابد من اقامة عهد ونظام جديدين ، يطهران نفوس أبناء ايطاليا مما أصيبت به من آفات وأوهام ! ولكن ماكيافللى ، وهو يحيا هذه الظروف ، لم تدعه هذه الظروف أن يفكر ، شـاء أم أبى ، الا تفكيرا قوميـا خالصا . وبالفعـل فان تفكيـره هو الذى أتى بهـذا الشعار ، وهو « ايطاليا تعمـل من نفسها » "Italia fara de sa" ، وكان ذلك فيما بعد فى القرن التاسع عشر ، حيث رفع زعماء (حركة البعث الايطالى) هذا الشعار .

والواقع ، لم يكُن علاج لذلك سـوى عقيدة (تأمر) ان توصد جميع أبواب ايطاليا فى وجـه كل من لا يكون ايطاليا ، ولا تجيز أو تسمح بأى حال ، بأن يحيـا تحـت سـمائها من لم يرضـع لبن « الذئبة »* . ونفس هذه العقيـدة ، لابد أن تخلق من العصى المتفرقة

(*)اشارة الى (رومولوس) . وهو فى الأساطير القديمة ، مؤسس روما . وهو ابن (مارس) من بنت (نوميتور) ابن آخر ملوك (البالونجا) . وحين ولدت التوأمين (رومولوس) و (ريموس) أمر (أميليوس) أخو (نوميتور) الأم بأن تقذف بالتوأمين فى اليم . وحين حملهما التيـار أرضعتهما (ذئبة) . ولما كبرا قتلا (أميليوس) الغاصب ، وأعادا (نوميتور) الى وضعه السابق ، ثم أخذ هـذا فى تأسيس مدينة (روما) على تل (بلاتين) . أما (رومولوس) ، فقـد صعد الى السماء ، فى عربة (مارس) ، واتخذه الرومان الها يعبدونه باسـم (كيرينوس) .

حزمة قوية واحدة ، لهـــا قائد واحـــد قوى ذكى وزكى ، عالم بشتى الدروب ، لكى يدل ايطاليا ويرشدها ، الى الوحدة ، والقوة ، والحرية .

★ ★ ★

وأخيرا وقع اختيار ولاة الأمور فى (الجمهورية) على ماكيافللى ، لكى يحيا حياة تهتز بالحركة ، وتزخر بالنشاط ، فى بقاع منطقهـــا الحذر والحساب ، وتقدير الأمور بعد تقليبها ، مع قوة الملاحظة . وانه لاختيار موفق . فماكيافللى يستطيع بفطرته واكتسابه ، أن يحيا هذه الحياة . فهو صاحب دبلوماســـية دقيقة ورقيقة ، لا تعرف الحلم ولا الوسن . وهو صاحب خبرة يقظة ، ويطيب له أن يحل الرموز والمعميات . وهو صاحب حاسة دقيقة جدا ، وأذنين مرهفتين تلتقط كـــل خبر . وهو صاحب عينين لا تنزوى عنهما ملاحظة كل أمر . هذا وماكيافللى يجيد الغوص والتسرب الى عمق الضـــمير والنفس ، ليكشـــف أسرار الرؤساء والشعوب . ونحن هنا نواجه ماكيافللى (الدبلوماسى) ، الذى أوفد فى مختلف البقاع فى سفارات عديدة . وكان من بينها سفارة عام ١٥٠٢ . والى أين ؟ الى (رومـــانا) **Romagna** حيث شبكة السياسة الدقيقة ، وغلالتها المحبوكة ، مدا وجزرا ، وهدى وضلالا ، وتقلبها فى أطوار متغايرة ، ونزعات متنافرة ، ودسائس مظفـــرة ، وحبائل مدبرة . انها (رومانا) ، حيث وجد ماكيافللى فكرته عن القائد المأمول فى صورة انسان ، فأثار ذلك عاطفة هذا (السفير الفلورنسى) ، وألهب احساسه بهذا القائد ، بل وشعر بأن هذا القائد قـــد اغتصب اغتصابا اعجابه هو . انهـــا (رومانا) عرين (قيصر بورجيا) **César Borgia** المروع .. !

ان قيصر هذا هو « ثور الحلبة السياسية » . وهو الذى صرع عددا لا بأس به من الطغاة الصغار ، فى بعض المناطق . وهو الذى كان يطلق العنان لفتاكته الضارية ليســـوى القلاقل ، ويقضى على الفتن والدسائس ، ليستتب النظام والاستقرار ، فى ممتلكات الكنيسة ، ولحســـاب والده (البابا اسكندر) . ان الكتاب قد رسموا صورة (قيصر بورجيا) بأحلك

الألوان وأقتمها ، وأقساها وأبشعها ، ونسوا أن روح هذا القيصر ، انما نبعت من ينبوع عصره . ولم يكن فى هذا نغمة نشاز ، بقدر ما كانت صورة عبقريته التى صوروها (وحشا) فاق شتى الوحوش ، وشيطانا أكبر من مختلف الشياطين ، على الرغم من مظهره الجميل ، والناعم كالزند ، الا أن النار كامنة فيه ، وشعلات الزند لا تنطلق الا وقت الضرورة ، وحين يلزم الأمر .

كان قيصر بورجيا (ولد ملك) ، بكل ما يعنيه (جوبينو) Gobineau من هذه العبارة . فقيصر لم يدع أبدا فى الظل شيئا كان يمكن أن يدفعه لأعلى سلم العظمة . وهو لم يكن وليد فطرة فحسب، أو نتاج اكتساب ودربة وكفى ، أو صورة لعصره ليس الا ، بل كان جماع هذه العوامل التى تفاعلت واتفقت ، لكى تصب شخصيته القوية ، فى نموذج وحيد قوى ، يخصه هو دون غيره ، لأنها كانت شخصية (فرد بمفرده) ، بكل ما تعنيه هذه العبارة . فبين (قيصر) وغيره حدود ، ولكنها حدود غير مشتركة ، لأن البشر جميعه ، لم يظهر منه من قبل ، أو فى حينه (قيصر بورجيا) ، وان كانوا جميعا ، لا يولد الواحد منهم (ابنا لملك) !

★ ★ ★

ولقد لاحظت فلورنسا (قيصر) يعلو ويعلو ، بينما عينها ترنو اليه وتراقبه . والانسان حين يرتفع بمفرده ، ويظل يرتفع ، لابد أن نجده فى لحظة ما عاليا فريدا بمفرده ، وحيدا فى قدرته . وهذا بلاشك ، يقلق خصوم (قيصر) ومنافسيه . ولذلك سرعان ما أرسلت فلورنسا ماكيافللى بالذات ، سفيرا لها لدى قيصر ، بينما هى تعلم ، أن قيصر يحتقر الديمقراطيات ، ويزدرى (رجال المصارف) ، و (تجار الصوف والحرير) ، وقد أصبحوا سادة وحكاما وقادة فى فلورنسا !

« نيقولا ماكيافللى ، سنوفدك الى فخامة (دوق فالنتينوا) » Duc Valantinois" ، مع وثائق الاعتماد ، وستسرع ما أمكن الى » هناك ! » وسرعان ما أخذ ماكيافللى يعد نفسه لمقابلة (قيصر بورجيا) .

ويالها من مهمة شاقة ، وعسيرة ، وشائكة ! ماكيافللى يناور ويحاور (ثور حلبة الصراع السياسى) ويفاوضه ! ويفاوض (قيصر بورجيا) مفاوضات ناجحة ، ولمصلحة فلورنسا ! قيصر الذى ينشب مخالبه وأنيابه فى مصير ايطاليا ! ولماكيافللى أن يختار من أساليب المبادأة مايراه مناسبا !

وركب ماكيافللى حصانه ، وأسرع الى (أوربينو) Urbino حيث بلاط قيصر ، بجوه من الصمت الثقيل، الذى يصيب النفس بالقلق. وقيصر معروف بالصمت ، على عكس أبيه ، الذى كان يتكلم كثيرا ، ولكنه لا يفعل شيئا مما يقول . وصمت قيصر يجعل النفس تهرول فى الحال الى طباق الشك ! وقيصر لايقابل السفراء الا ليلا ، وقد صفدت الكائنات فى الصمت ! ويعزو بعض معاصريه ذلك ، الى الحبوب الحمراء التى انتشرت بين ملامح وجهه . وبعض آخر يعزو هذا الأمر ، الى أن قيصر مولع بالاخفاء ، فهو لا يرغب الا فى أن ينقل أسراره من صدره ، ليخفيها فى أعمق جوف ، هو جوف الليل ، وليدسها فيه ، امعانا فى ألا يعرفها أحد ، مهما حاول أن يتفرس فى وجهه،ليحيط ولو بطرف مما يخفى من عواطفه ونواياه .

وأخيرا قابل ماكيافللى قيصر ، وخرج ليسجل ما دار بينهما ولخص انطباعاته فى عبارة موجزة هى : «قيصر فريد جدا ، وغامض » « جدا ! » . وقام ماكيافللى بتمثيل (ملهاة) مع قيصر ، كان لها اعتبارها . (فالسفير الفلورنسى) لم يستطع أن ينفذ أو يحيط بنوايا قيصر . وفى النهاية غادر (أوربينو) كما قدم اليها ، دون أن ينجح فى تحقيق أغراض أولى الأمر فى فلورنسا . وتكررت هذه السفارة ثلاث مرات . وفى المرة الثالثة ، أقام ماكيافللى لدى قيصر ثلاثة أشهر ، قابله فيها ما يزيد على العشرين مرة.ولكن الموقف السياسى كان قد تغير، وأصبح قيصر يشك حينذاك فى رجاله وقواده ، ويحتمل أن يتخلوا عنه ! اذن ، لابد من أن يعدل قيصر موقفه من فلورنسا ، حسب منطق السياسة. قال ماكيافللى : « ان الناجح من الأفراد ، من كان أسلوبه فى العمل »

« والتصرف ، يتفق مع روح العصر ومستلزماته . ومن يخيب ، هو »
« بالمثل ، ذلك الذى يتصرف ، بطريقة تخالف هذه الروح ! »(١) .

وهكذا ، أصبح قيصر بطلا عند ماكيافللى . ولكن هذا البطل قائد لا ذمة له ، على الرغم من أنه قوى فى كل شىء ــ قوى فى شخصيته ، وقوى صلب فى اراءته ، وقـــوى فى دهائه ومكره ، وصبره لا ينفد . وكانت جميع هذه القدرات عنده بلا حدود ! ولقد اقشعر ماكيافللى من قوة اعجابه بقيصر . وأحس بينه وبين نفسه ، بأن رجلا من هذا الطراز يستطيع أن يخلص ايطاليا ! وقد كان لماكيافللى تقرير عنوانه : «وصف» « للطريقة التى استخدمها « الدوق فالنتين » (قيصر بورجيا) ، لقتل فيتللوتسو فيتللى ... الخ »(٢) ، وذهب النقاد الى أن هذا التقرير ، ما هو الا هيكل مذهب ماكيافللى وفكره . وبالأحرى هو هيكل « كتاب الأمير » .

وفى عام ١٥٠٣ يلقى البابا (اسكندر السادس) ربه . ويوفـــد ماكيافللى الى (المجمع الكنسى) ، وينتخب (الكاردينال دىلاروفير) Cardinal de la Rovére باســـــم (يوليوس الثـــانى) Jules II .
وكان (قيصر بورجيا) ، من سرير المرض ، قد أيده وبايعه فى مقابل وعد من البابا بأن يبقيه فى أملاكه . ولكن البابا لم يف بوعده . فكان اندحار (بطل ماكيافللى) ! ولماذا ؟ لقد أخطأ هذا (البطل) فى هذا الشأن ، « اذ قد نسى أنه بالأمس ، أهان (الكاردينال دى لاروفير) . ومن هنا ، كان لابد أن يكون بعيد النظر ، فلا ينتخب هذا الكاردينال للبـــابوية ، حتى لا يسىء الى نفسه اســـاءة يلام (قيصر) عليها ، وحتى لايكون فىذلك قصير النظر ! والصحيح أن كانالواجبعليه وقتذاك ، الا ينتخب كاردينالا قد أساء اليه بالأمس ، وأن يحسب حسابا لما قد يقوم

---

(١) المصدر السابق ، القسم الثالث (نص كتاب الأمير) ، البـــاب الخامس والعشرون

2. "Description de la façon employée par le Duc Valantinois (César Borgla) pour tuer Vitelozo Vitelli ....etc."

به (دى لا روفير) لو تربع على كرسى البابوية ! « لأن الكراهية ، » « أو الخوف ، يدفعان الرجال الى الأذى »(١) ، «ومن يظن أن المنفعة» « الحديثة ، تمحو أثر الاساءة القديمة من نفوس العظماء ، يخطىء » خطأ كبيرا »(٢)٠ولهذا أخطأ الدوق فى هذا الاختيار ،وكان هذا سبب » « هلاكه فى النهاية »(٣) ، وهذا هو « اللوم الوحيد »(٤) الذى يوجه الى قيصر بورجيا !

أجل ، لقد كان أعجاب ماكيافللى (بقيصر بورجيا) عنيفا ٠ فقد استهواه منه القائد الرئيس ، الذى انقض كالغول على أعدائه يتخلص منهم ، ويقطع كل ما يصلهم بالحياة والوجود ٠ وهو الذى جعل الأمن يستتب فى ربوع بلد مزقت جسده ذئاب الأحزاب ، وهتكت عرضه ، ودنست أرضه ، واغتصبت حقوقه ٠ ولقد انطبعت هــذه المعانى فى نفس ماكيافللى وتكاملت ، فى شكل صورة (البطل) الذى يلزم لايطاليا، حتى يبتر ماضيها الفاسد من تاريخها، ويعوضها عما فاتها ، ويخلصها من الذلة والفوضى والفساد ، وقد أجاد هذا البطل فن الحرب والنصر والظفر ، وصنعة الارتقاء والوصول ، وحذق منطق تبرير (الوسيلة) بالغاية ومذهب (حق الدولة) ، وقد أصبحت هذه جميعا عنده ، الخير السياسى الأسمى ولا سواه ٠ وأخيرا صاغ ماكيافللى هذه المعانى ، فى فى شكل كتيب ، يكون فى متناول من يأنس فى نفسه رئاسة الدولة ، أو بالأحرى فى متناول منشىء نظام جديد ، ليرجع اليه ويطلع على روح السياسة ومادتها ، وأساليب الغلبة فى حلبتها ، ووسائل فن الحكم والمحافظة عليه، وأساليب صيانة أمن الدولة وسلامتها،كما هى لغة العصر الحديث ٠ وبين هذه الأساليب ، تحتل الحيلة والدهاء والمكر ، والقوة والضراوة،مكانا بارزا٠اذن لامناص هنا سوىالفصل بينالأخلاق والسياسة٠

---

(١) محمد مختار الزقزوقى : نيقولا ماكيفاللى ، القسم الثالث (نص كتاب
(٢) نفس المصدر
(٣) نفس المصدر
(٤) نفس المصدر

ولا غاية من هذا الفصل بينهما ، سوى تخليص ايطاليا من البرابرة !
ويطلعنا على ذلك ، الباب الأخير من هذا الكتيب ، وهو الباب السادس والعشرون ، وعنوانه : (حض على تخليص ايطاليا من البرابرة)* .

أجل ، تخليص ايطاليا من البرابرة،ومن خبث (بفتح الخاء والباء) الأجانب ونجاستهم ، ومن الضعف والفساد والذل ، والتخلص من الجنود المأجورة ونفاقهم ، والتنسيق بين الشعب وقواته المسلحة !

ان الدفاع عن الوطن عرضا وأرضا ، لابد أن تتولاه عناصر الوطن الجوهرية الوحيدة ، أى أبناؤه . فهؤلاء هم الذين لا ينفصلون عنه ، الا اذا انفصل النبات عن التربة التى يزرع فيها . فالمكان الذى تزرع فيه الشجرة ملك لها بالضرورة ، وواجبها الأول هو الدفاع عنه دوما ، وليس مجرد دفاع عنه ضد غيرها فحسب ، بل وضد الكون جميعه ، لو هبت عليه عاصفة ، أو وقع عليه اعتداء ، اذن ، لابد من الاستغناء عن حزم الحطب اليابسة الجافة ، التى لا أثر فيها لعصارة حية استمدتها من تربة ايطاليا ، فليس لها البتة جذور عميقة فى أرضها ، ولا صلة لها أبدا بما ينبت فى تربتها . فلا جنود مرتزقة ، ولا عساكر مأجورة ، والدفاع مهمة أصحاب الأرض والعرض . ولا صلة بين الدين والسياسة ! ولا علاقة بين السياسة والأخلاق ! ولا بأس من أن يكون الدين والأخلاق وسيلتين من وسائل السياسة ، ما حققا لها غاية أو مصلحة ! «وما أكثر» « ثناء الناس على الأمير حين يحفظ العهد ، ويحيا مستقيما أمينا ، » «بلاخداع أو خبث.ولكن التجربة فى أيامنا،تدل على أن أولئك الأمراء،» « الذين أتوا أعمالا عظيمة ، هم الذين لم يراعوا الوفاء الا قليلا ، » « وهم الذين استطاعوا أنيشوشوا العقولبالمكر،وهم من تمت لهم الغلبة» « على هؤلاء الذين اتخذوا الأمانة قاعدة لهم »* . « ولذا يجب » « على الحاكم العاقل ، ألا يحفظ عهدا يكون الوفاء به ضد مصلحته ،» « وحين تنتهى الأسباب التى جعلته يرتبط به . ان هذا المبدأ قد يكون»

---

* نفس المصدر ، القسم الثالث (نص كتاب الأمير) ، الباب السادس والعشرون

« شرا ، لو كان جميع البشر خيرين ، ولكن لما كانوا جميعا أشرارا ، »
« فلن يراعوا وفاءهم معك ، فأنت لذلك فى حل من أن تحفظ عهدك »
« معهم . ان الحاكم الذى رغب فى أن يظهر عذرا مموها لعدم وفائه »
« بوعده ، لم يخفق أبدا فى أن تكون عنده أسباب شرعية لذلك .(١) »
« لأن الانسان اذا نظر نظرة صحيحة فى الأمور ، فانه يجد أن بعضها »
« الذى يبدو فضائل قد يرمينا فى التهلكة لو سرنا عليه ، وبعضها »
« الآخر الذى يبدو رذائل ، ينجم عنه سلامة للانسان أكبر وهناءة »
« أعظم »(٢) . و« لذا يتحتم على الأمير ، الذى يبغى المحافظة على »
« نفسه ، أن يعرف كيف لا يكون خيرا ، وكيف يستخدم هذه المعرفة ، »
« وكيف لا يستخدمها تبعا للضرورة »(٣) . « ولذا من يترك ما يفعل »
« بالفعل ، الى ما ينبغى أن يفعل ، سوف يعلم ، أنه يسعى الى »
« حتفه دون بقائه . ان المرء الذى يريد أن يحترف الخير فى كل شىء ، »
« سوف يحزن بين الاشرار ، وهم كثيرون جدا »(٤) .

★ ★ ★

وفى النهاية ، فاضت روح ماكيافللى ، واختفى جسده . ولكن ترك ماكيافللى آثاره الفكرية . وأصبحت هذه الآثار موضوعات لدراسات شتى ، دارت بين لوم وتجريح ، ثم اجلال وتقدير . ولاقت الكثير من القسوة فى نقدها ، وانصبت اللعنات المحمومة كالقرب (بكسر القاف وفتح الراء)على رأس صاحبها.فهو صاحب «كتاب الأمير»، حيث فصل بين الأخلاق والسياسة،وبين السياسة والدين ! وكتابه هذا هو«الوصايا العشرة مقلوبة »(٥) ، وهو «تعاليم الشيطان»(٦) . ونفس هذا الكتاب، جعل اسم صاحبه يدرج فى كل لغة للدلالة على «الشيطان» نفسه، وأصبح

---

(١) نفس المصدر ، القسم الثالث (نص كتاب الامير) ، الباب الثامن عشر
(٢) نفس المصدر ، القسم الثالث (نص كتاب الامير) الباب الخامس عشر
(٣) نفس المصدر
(٤) نفس المصدر

5. The Ten Commandments Reversed
6. The Devil's Catechism

« الشيطان نفسه » هو «نيكالعجوز»(*) Old Nick . ولم يكن سبب ذلك سوى أن « نيقولا » هو اسم « ماكيافللى » ! ولكن من حسن حظ ماكيافللى ، أن أصبح فكره من جديد ، موضوعا لمناقشات ودراسات وبحوث شتى عميقة ، خصصت وكرست له . ومن العجيب أنها انتهت جميعا برد الاعتبار اليه ، وخاصة فى العصر الحديث ، حيث ظهرت للدول أشكال جديدة فى القرن العشرين ، وأصبحنا فى حاجة ملحة تماما الى دراسة (كتاب الأمير) هذا ، للبحث عن حلول لبعض مشاكل العصر الرئيسية ، وخاصة الفصل بين الأخلاق والسياسة ، وحدود قوة الدولة ، وفن الحكم والسياسة ، واستراتيجا السيادة والسيطرة وأساليبها . فلنحاول الآن ، أن نعرض نقد كوكبة الناقدين لماكيافللى ، ومواقف غيرهم من جماعةالحكام والرؤساء والقادة منه.ويجبأن نلاحظ، أن هذا العرض نفسه ، هو بيان فى نفس الوقت لمواقف جميع هؤلاء بدورهم من مشكلة الفصل بين الأخلاق والسياسة ، أو الصلة بينهما ، وهذا هو موضوع كتابنا .

★ ★ ★

ان المعاصرين لماكيافللى لم ينظروا اليه الا من خلال (السفير الفلورنسى) ، وهو يعمل فى (الجمهورية) حينذاك ، وقد أحب عمله ، وتفانى فى أدائه ، حتى أبرز ما كان يحرزه من الحرص على ممارسة واجبه ابرازا دقيقا رقيقا ، لا تشوبه شائبة ، من تقصير أو اهمال أو تسيب . فقد كان أولو الأمر فى فلورنسا يعتبرونه الموظف الصالح والمناسب فى موقعه ، والذى يمكنهم أن يثقلوا كاهله بالمهام الكبرى ، والتى فى مقدوره أن يقوم بها ويؤديها على خير الوجوه . فهو مفاوض ماهر ومناور حاذق ، وهو محدث خصب الفكر،وهو كاتب لامع.

ولم يكن سوى القليل جدا من معاصريه ، هو الذى قرأ (كتاب الأمير) الذى لم ينشر الا بعد وفاته . ولكن سرعان ما أصبح اسم

---

* نفس المصدر ، القسم الأول (التقدمة) ص ٦٥

ماكيافللى مضغة فى الأفواه ملطخة بالعـــار . وسر ذلك ، هو هـــذا الفصل الجرىء بين الأخلاق والسياسة فى هذا الكتيب . فأجمع أهـــل فلورنسا فى منتصف القـــرن الســـادس عشر على أن (كتاب الأمير) كتاب بغيض مرذول ، يوحى بالاستبداد . وبالمثل وقف أهل روما من هذا الكتاب نفس الموقف . وجدير بالذكر ، أن البابا (كليمنت السابع) Clement VII (١٥٢٢ — ١٥٣٤) قد أجاز نشر الكتاب وسمح به . ولكن قسيسا انجليزيا ، هو الكاردينال بولوس Cardinal Polus كان أول رجل من رجال الكنيســـة يحمل على الكتاب وصاحبه حملة شعواء ، ويفتح عليه نيرانه، لأنه كتاب خطير.وكان ذلك فى مؤلف لهذا الكاردينال عن وحدة الكنيسة ، حيث عالج فيه ماكيافللى وتناوله كما يتناول تماما الشيطان ذاته . وهنا استيقظت البابوية بثقلها فزعة مذعورة ، فأمر البابا (بول الرابع) بوضع كتب ماكيافللى فى (القائمة السوداء) ، وحرم نشرها ، وصدق على هذا الأمر (مجلس الثلاثين) .

ولم يكن حظ ماكيافللى عند البروتستانت أسعد منه عند الكاثوليك. فالبروتستانت ، وقد رغبوا فى توجيـه ضربة قاضية الى الكاثوليك ، استعانوا بفكر ماكيافللى نفســه ، من حيث غيروا بعض الأوضاع بعض التغيير .وكتب أحد أتباع مذهب (كالفن) فى لوزان ، وهو (جانتييه) Gentillet عام ١٥٧٦ ، مؤلفا فى ألف صفحة عنـــوانه « المقـــال فى طريقة الحكم الصالح .. ضد نيقولا ماكيافللى الفلورنسى »* . وخلط فى كتـــابه هـــذا خلطـــا بين ماكيافللى و (كاترين دى مـديتشى) Catherine de Midici ، وســـانت بارتلمـــى Saint-Barthélemy ، وروما ، والبابوية ، والايطاليين عموما . ولقد ترجم هذا الكتاب الى عدة لغات ، ولاقى رواجا عظيما ، مما أضفى الشهرة بالشر على ماكيافللى على نطـــاق واسع وبألوان قاتمة وحالـــكة . فهـــو « شـيطان » « الأمـــراء الفاســـقين » ، ســواء كانوا من المسـيحيين أو الأتراك . وهو « علة الشر فى أوروبا » . وهو « سر عدم وفاء البشر وخبثهم ».

---

* Discours sur le moyen de bien gouverner, contre Nicolas Machiavel, Florentin

وحرق (الجزويت) صورة ماكيافللى فى ميدان (أنجلوشتات) فى بافاريا ، وعليها العبارة : « رجل ماكر غدار ، وصاحب الأفكار الجهنمية الممتاز ، ونصير الشيطان » . وفى فرنسا ، أعلنوا عليه حربا صليبية شعواء ، ووجهوا اليه الطعنات الرسولية الحمقاء ، ووصفه (بوسفان) Possevin بقوله : « خلبوص فاجر ، يدس السم » . ومما يثير الدهشة ، أن عينى (بوسفان) لم تريا قط ، سطور هذا الكتاب !

وبينما كانت هذه الثورة الصاخبة المحرقة ، تندلع من باطن هؤلاء ، كان أصحاب السلطة ، وأهل النفوذ ، والقادة والرؤساء ، فى شتى بقاع الأرض ، هنا وهناك ، عاكفين باستمرار على أفكار ماكيافللى كطعام لهم ، وغذاء لنفوسهم ، وقد توفر كل منهم تماما على فهمها وهضمها ، وراء ستار الخلوة ، وتحت قباء العزلة ، كلما واتتهم الفرص والمناسبات ، وفى أوقات فراغهم ، ليجدوا عند ماكيافللى المخرج من الصعاب والمآزق السياسية ، التى كانت تعترض سبيلهم . وما أكثر هؤلاء ! ولكن نكتفى بأن نذكر منهم ، (شارل الخامس) ، و (كاترين دى مديتشى) ، و (هنرى الثالث) ، والبابا (سكستس الخامس) Sixte V . وهذا الأخير ، قد أمعن وأسرف فى ذلك ، فهو الذى غاص فى أعماق (كتاب الأمير) وبين شتى دقائقه ، وحتى ما بين سطوره ، وهو عطشان ملهوف يروى ظمأه منه ، وفى النهاية لخصه بنفسه !

★ ★ ★

والحقيقة ، أن ماكيافللى، لايزال حتى الآن يثير النفور والاشمئزاز والفزع . فهو الذى يصدق عليه قول (نيتشه) عن نفسه ، حين احس بأنه قد أصبح (عارفا لذاته البشرية ، وجلادا للبشر) . اذ هو ماكيافللى الذى قدر له أن ينفذ الى صميم هندسة الطبيعة البشرية ومادتها من طين وصلصال ودم لونه واحد فى كل مكان ، ويصل الى قوانين تشبه قوانين نيوتن، نخضع لها جميعا نحن البشر ،وتسخرنا وتحكمنا . فالانسان الحيوان السياسى حيوان مفترس ، مصلحته سنام شيمه وخصاله ، ولا يتوانى فى الفرصة المواتية ، أو التى يجعلها هو مواتية على منجلة « طبيعته التى

لا تزال فجة غريرة » ، عن اقتناصها وخطفها بخفة ، ولا بأس فى ذلك من العنف والقوة ما أسعفاه ، ولا غبار أبدا على الحيلة والوسيلة ما أنصفاه ، ليحقق مصلحته ومبتغاه ! أما الأخلاق ، ساعتئذ ، انما يعتبرها بمثابة جناحى (انكار) الملصقتين بالشمع ، والذى سرعان ما يذوب فى أشعة الشمس ، وهو يعلو ويقترب منها ، بينما هو يريد الهروب من حيث هو فى أخدود فى (جزيرة كريت) ! وسرعان ما ينفصل الجناحان ! ان اقتناص المصلحة عند (الحيوان السياسى) فى هذا الموقف عادة لا يركن الى الأخلاق ، وانما ينطلق على صاروخ المبادىء السياسية ، ومنها (أفعل ثم برر) ، (واذا فعلت فانكر) ، و (أن تفرق لتسود أنت) ، وغير ذلك الكثير !

ان ماكيافللى قد جرؤ بأمانة ووعى ، وعلم وخبرة ، على أن يقطف ويتناول ثمرة شجرة المعرفة فى السياسة وفن الحكم،فأبصر بدقة عورة بنى جنسه ، ولم يخجل من تصويرها ، ثم قام بتحرير كتيب عنها . ولكن بنى جنسه ،على الرغم من تاريخهم الذى يعجزون عن اخفاء حقائقه ومساوئه، حكموا عليه فى ثورة الغضب بالطرد والحرمان من فردوس رضاهم ، بينما عجزوا تماما ، وأولا وأخيرا ، عن تكذيبه بالتخلى عن طبيعتهم فى السياسة . والغريب أن بنى جنسه ، على الرغم من أن ماكيافللى شاهد عدل من بينهم على هذه الطبيعة ، وهو الخبير بها ، وهو الباحث والدارس للتاريخ على مستوى عال من الدقة ، لم يقفوا منه عند هذا الحد ، وانما أخذوا يتبارون فى شن الحملات الطاحنة عليه . وكان من أشرسها ، حملة رجال الكنيسة ، ولا أقول رجال الدين . والأكثر غرابة ، أنهم انطلقوا كالصواريخ قبل اختراع الصورايخ ، يسلبونه محاسن نفسه ، ويعيرونه مساوىء غيره ، وهى مساوؤهم هم بالذات كساسة أولا وأخيرا !

★ ★ ★

وعلى كل حال ، فانه ابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ظهرت جماعات المدافعين عن ماكيافللى ، الذين أخذوا يدافعون عنه فأخذت تتناول الدراسات العلمية النزيهة ، على موائد البحث العلمى

الموضوعى البحت تحل محل اللعنـــات المشبوبة . فلنحاول أن نعرض هذا الأمر ، لنتبين فى يقين علمى ، كيف كان ذلك ، وكيف أفضى ذلك الى رد الاعتبار الى ماكيافللى ، والى ظهور (الأنبياء غير العزل) فى القرن العشرين ، ولنبدأ بحملة رجال الكنيسة .

★ ★ ★

وهنا نتساءل ، هل كانت هذه الحملة حملة دينية رسولية خالصة حقا ، أم دفاعا من رجال الكنيسة عن أنفسهم ؟ اذ كان البابا والكنيسة هما ظـلا (بكسر الظاء وفتح اللام وتشديدها) اللـــه فى الأرض فى العصور الوسطى. أما الانسان عندهم فهو دودة صغيرة حقيرة، وله بدن هو معقل لروحه . ودنيا الانسان لوعة ودمعة ، وحسرة وبكاء وشقاء ، وهى تبعد ما بين الانسان وربه . ومناهج الحيـاة بدورها ، طـــرق خطـيرة واسعة تؤدى بالانســـان الى الخطيئة . والدنيا ملهاة للبشــر عن غايته الأولى فى الحياة وهى خلاص الروح ، وهذا هو هم الانسان الوحيد . والفنون شر ، والسرور كغاية فى الحياة كمين للروح ! وكان من أثر ذلك على السياسة، أنه لم يعد لها واجب، كما هو نظرية (القديس توماس)، سوى كشف النظام الذى يحقق خلاص الروح !

وكان ماكيافللى قد رفض هذه النظرات وأخذ يحطمها ، وهو يعلن أن الانسان فى الأرض غاية ، وعـــلاقته بانداده من المواطنين من أهم الغايات . ولابد لهذه الغاية ألا تكون بعيدة عنه بعـد النجوم ، أو سرا غامضا من عالم الأسرار . ولابد من أن تكون الغـاية هنا على قدر عزم الانسان . ولابد من اثراء شـخصية المواطن وحيـــاته ، وليس افقارهما واجدابهما . ولابد من تربية ملكات الانسان، وليس اضعافها أو اعدامها . ولابد من تطعيم الحياة بالنشاط والعمل ما أتيح لنا ذلك ، حتى تصبح الحياة فى جملتها مسرحية زاخرة بشتى القوى التى أودعها الله فى كيان الانسان ، الذى يسعى ويجتهد . اذ الانسان ليس له إلا ما سعى ، حتى لا يحيا هوانا ، وكأنه لم يحظ بصنعة الخالق القوى القادر الحكيم ، وهو الذى دفعه الى عالم بركته فى حــركته ، وهيـأ العالم ليجنى الناس من

فردوسه خير الثمار ، ومن بينها الذكر والامتياز ، والمجد والكمال ٠وهذه الثمار لا نراها عادة الا فى أعلى فروع شجرة الحياة، ولا نقطفها الا حينما نكون عمالقة لا اقزاما ، وأقوياء لا ضعفاء ٠ ولكن المسيحية كما سبق ماكيافللى (نيتشه) فى ذلك ، هى كما صوراها دين الضعفاء العاجز عن أن يضمن للمراكز الموجهة (بكسر الجيم المشددة) انتصارا فى حرب أو معركة ، أو قضاء على فتنة أو مؤامرة ٠ وهكذا صور ماكيافللى قبل نيتشه ، الفضائل المسيحية «بالألاعيب التى تجعل من الضعف فضيلة » ٠

اذن ، كان لابد من أن تقوم الكنيسة بهجوم ضد ماكيافللى وتصادر كتبه ٠ اذ هو الذى بادر بتجريد الحملة على رجال الكنيسة ، وخاصة أنه هو الذى يحملهم مسئولية ضعف ايطاليا ، فى أوقات كان فى مقدورهم توحيدها ٠ ولكن الكنيسة ، على العكس ، كانت تتصدى لمن يحاول ذلك، وكانت تتيح للأجانب أن ينتهكوا حرمة الأرض وقداسة العرض٠ فتارة كان يدوس هذه الحرمة وتلك القداسة الفرنسيون ، وتارة كان يدوسها الأسبان ، وتارة ثالثة كان يدوسها الألمان ٠ ومما يبكى الأحرار ، أن موقفها هذا كان يختفى وراءه باستمرار هدف للكنيسة وحيد، وهو فى كل مرة مصلحتها الخاصة ! ولم يكن ماكيافللى ليطيق صبرا ، فسخر علانية وصاح مع كل وطنى فى ايطاليا وقال : « ندين اذن نحن الايطاليين ، »
« الى كنيسة روما وقساوستها ، بما أصبحنا فيه من سوء وعدم التدين٠»
« ومع ذلك ، مازلنا ندين لها بدين أعظم ، سوف يكون علة دمارنا ، »
« وهو أنها جعلت بلادنا ، ولاتزال ، منقسمة غير متحدة ٠ ويستحيل »
« يقينا على بلد أن يتحد ويكون سعيدا ، الا اذا دان بالولاء »
« لحكومة واحدة ، سواء كانت جمهورية أو ملكية ، كما هو الحال فى »
« فرنسا وأسبانيا ٠ ان الكنيسة هى العلة الأولى ، دون سواها ، لحالة »
« ايطاليا التى تختلف عن حالة فرنسا وأسبانيا فى ألا يحكمها رئيس »
« جمهورية واحد ، أو ملك واحد ٠٠٠ ولما لم تكن الكنيسة ، اذن ، »
« على درجة من القوة لأن تكون قادرة على حكم جميع ايطاليا ، أو »
« تسمح لأية قوة أخرى أن تقوم بذلك ، ظلت الكنيسة دوما السبب فى »
« عدم تمكن ايطاليا من الاتحاد ، فى ظل حكومة واحدة ، وأن »

« تظل يحكمها عدد من الامراء والحكام ، كانوا الاسباب العـــديدة »
« لانقسامها ، وهيأوا لها عوامل الضعف الشديد ، حتى غدت ايطاليا »
« فريسة ، لا للبرابرة الأقوياء فحسب ، بل وفريسة لكل من أراد أن »
« يعتدى عليها »(١) ٠

ومن العجيب،أن ماكيافللى،لم يكن يحتقر الدين،بل على العكس هوالذى قرر القوانين علاجا لشئون البشر وصلاحهم، وبين بوضوح الا أثر للقوانين بدون دين،«لأن الدين الذى جاء به (نوما) Numaفى روما ، »
« كان أول العوامل لثراء تلك المدينة ٠ لأن هذا الدين ، هو الذى أتى »
« بالقوانين الصالحة ، والقوانين الصـــالحة هى التى تجلب الحظ »
« السعيد ، والحظ السعيد هـــو علة النجاح فى جميع الأعمال »(٢) ٠
وأعجب من ذلك ، تلك العبارات الدينية الحارة ، التى جاءت ، حتى فى أكثر كتبه اثارة ، وهو (كتاب الأمير) ٠ ومنها حديثه عن (موسى)» وهو يتحدث عن أءلئك الذى حكموا بفضـل قدراتهم ، وليس بفضـــل الحظ(٣)، اذ يقول : وينبغى علينـــا ، الا نتخـذ (موسى) كمقياس لغيره ، « لا لشىء سوى أنه رسول الله» ، « الذى حمل رسالة مولاه » ،»
« وعمل بما أمره الله به »٠ومعذلك يظل (موسى)» جديرا بالاعجاب،»
« ولو لســـبب واحد ، هو أنه كان أهـــلا لأن يصطفيه اللــه ليــكون »
« كليمه »(٤) ٠ هذا وهو يعتبر الامارات الكنسية هى الامارات الوحيدة السعيدة الآمنة ، التى تعيش فى سلام وأمن ، والله قد شرفها بحفظه٠وهو الذى امتنع عن الحـــــديث عنها ، واعتبر رفعتها ترجع الى أســـباب أعلى من مستوى العقل البشرى(٥) ٠

وفضـــلا عـــــن ذلك ، فماكيافللى فى كتـــابه (المطارحات) Discourses ، يخصص خمسة أبواب كاملة ومتتالية ، لبيان أهمية الدين

---

1. Machiavel : Discourses, XII
2. Ibid.

(٣) انظر معنى (القدرة) ومعنى (الحظ) عند ماكيافللى ، فى القسم الخامس من كتابنا عنه

(٤) نفس المصدر ، القسم الثالث (نص كتاب الأمير) ، الباب السادس

(٥) نفس المصدر ، القسم الثالث (نص كتاب الأمير) ، الباب الحادى عشر

القصوى فى الدولة ، وفائدته الكبيرة ، وجدواه الواسعة ٠وأول هذه الأبواب الباب الحادى عشر ، وعنوانه « فى دين الدولة » ، حيث يجعل تقوى الله دافعا قويا يدفع المواطنين الى خدمة الدولة ، فتأثيره أكبر بالفعل من تاثير الخوف من الحاكم ٠ ويستشهد فى هذا الشأن بالرومان الذين كان المواطن عندهم يخشى عدم مراعاة الوفاء أكثر من خشية مخالفة القوانين ٠ اذ كان الرومانى يخشى جبروت الله أكثر من خوفه من طائلة القانون ٠ كما كان الرومان يستخدمون الدين فى قيادة الجيوش، وتوحيد الشعب، والحفاظ على قيادات الجيوش من الفساد لتظل صالحة ٠ فهو القائل : « من الصعب تكوين الجيوش حيث ينعدم » «الدين، ومراعاته هى سر عظمة الجمهوريات، واهماله هو علة دمارها»٠ ومن يريد الاستزادة فى هذا الموضوع، فعليه أن يرجع الى الأبواب (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥) من (المطارحات) لماكيافللى ٠

هذا ، ولا يفوتنا أن نشير الى أن ثمة شراحا لماكيافللى ، مثل (فليس الديريزيو Felice Alderisio ،صوروا ماكيافللى مسيحيا ورعا تقيا ، اعتمادا منهم على خطاب لماكيافللى الى بعض أصدقائه ، يحضهم فيه على التقوى والورع ، ويعظهم الموعظة الحسنة ٠ وعلى كل حال ، فحجة هؤلاء لم تصل الى حد محو الانطباعات السيئة التى خلفها (كتاب الأمير) وما ترتب عليه ٠

★ ★ ★

ولم يكن للأخلاقيين أن يهنأوا بالا حين فصل ماكيافللى فصلا تاما بين الأخلاق والسياسة ٠ وسرعان ما استشاطوا غضبا ، وحملوا عليه حملة أخرى ٠ فلننظر فى دعواهم ضد ماكيافللى ، من خلال أحدث ما وصل اليه البحث العلمى الموضوعى فى طبيعة الدولة ٠

ان الدولة ، وبمعنى من المعانى ، هى « المجتمع نفسه ، باعتباره» « وحدة سياسية ، ادارية ، قانونية »*٠ ولكى تقوم هذه الوحدة ، لابد

---

*Duguit : Manuel de Droit Puplic, I, 190

من أن تتركز (سيادة) المواطنين وتتمركز فى تعاليم معينة • والدولة غالبا هى هذه التعاليم نفسها ، فهى « المراكز الموجهة والواعية للجماعة »(١) • ولما كانت (السيادة) ، هى أولى خصائص هذه الجماعة ، فان طبيعة الدولة من طبيعة المجتمع • ولتفسير ذلك ، نجد أن الظواهر الاجتماعية ، لها خواص (نوعية خاصة بها) **sui generis** بالضرورة • وهذه الضرورة هى التى تجعلنا نتخيل أنه ليس من الممكن أن تحل « حياة الجماعة » فى مكان آخر غير شعور الفرد ، لأن المجتمع ليس مجـــرد « مجموع من الأفراد » ، مع أن وجودهم ضرورى لوجود المجتمع ، « والا بدت هذه » « الظواهر معلقة فى الهواء ، أو سابحة فى الفضاء »(٢) •

ولـــكى نقـــترب أكثـــر لتوضـيح هـــذه الحقيقة نقـــول : ان الظواهر الاجتماعية هنا كالظواهر الطبيعية • « فاذا تفاعلت بعض » « العناصر فيما بينها ، فنشأ عن اتحادها بعض الظواهر الجــــديدة » « فيجب علينا أن نقول بأن هذه الظواهر الأخيرة ، لا توجد فى كل » «عنصر من تلك العناصر على حدة ، بل توجد فى الكل ، الذى نشأ بسبب » «اتحادها» فقط • اذ هى لاتوجد فى العناصر التى هى بمثابة أجزاء لهذا الاتحاد • « وعلى ذلك ، لا توجـــد سيولة المـــاء أو خواصه ، غذائية » « كانت أو غير غـــذائية ، فى أى من الاكســـجين أو الهيـــدروجين » « على حدة ، وانما توجد فى المـــادة التى تنشأ بسبب اتحاد هذين » « الغازين »(٣) • وبالمثل ، فان الجماعة تتكون من أفراد ، وليســـت مجرد رص الأفراد سويا فى مجموعة واحدة» • ولكنها (كائن جديد) (من نوع جديد) ، يختلف عن الأفراد ، وعقليته تختلف أيضا عن عقلية الأفراد ، وبالتالى تكون قوانين الجماعة غير قوانين الأفراد •

ولما كانت الدولة ، كما سبق القول ، هى (المجتمع نفســـه) ».

---

1. Ibid

(٢) اميل دوركايم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، الترجمة العربية ، للدكتور محمود قاسم ، والدكتور السيد محمد بدوى ، ص ١٣

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤ ، ص ١٥

« باعتباره وحدة سياسية ، ادارية ، قانونية » ، وطبيعتها من طبيعة المجتمع ، وهى أعلى جماعة بشرية كما افترض الاغـــريق ، بل هى أكثر التعاليم الاجتماعية ضرورة لحماية البشر وسـلامته ، فينبغى أن تظل على مستوى خاص بها ،أعلى من كل المستويات الأخرى ،وأن تظل هى والتزاماتها عاليــة علوا كبيرا فـوق التزامات الأفـراد . ومن ثم ، فلا مناص من أن يكون فن السياسة بطبيعته فنا قائما بذاته ، عاليا على كل فن سواه . ولا مفر أيضا من أن يكون الخير الأسمى فى السياسة ، غير الخير الأسمى فى الأخلاق ، لأن الأخلاق وجدت للأفراد ، وخيـر السياسة الاسمى ليس بخير فردى ، اذ هو سلامة الجماعة ككل لا يتجزأ ، وهذه السلامة ينبغى ألا تكون وسيلة لغايات أخرى سواها .

ان الأخلاق الفردية ، مع ضرورتها ولزومها للأفراد ، ليست حالها بالنسبة للفرد هى نفس الحال بالنسبة للدولة ، لأن للدولة ، كما سبق القول ، طبيعة تختلف عن طبيعة الفرد . ولذا كان للدولة منطق خاص ، وحقوق وواجبات خاصة . أليس من حق الدولة الاعدام والقصاص ؟ وهل الدولة تقوم باعدام القاتل بغير حق بقصـد الانتقام ، أم المحافظة على سلامة الجماعة ؟ اذا كانت غاية الدولة هى الغرض الأول ، فان الدولة تدوس الأخـلاق بغير وجه حق عامدة متعمدة ، ويكون هـذا منها بمثابة فساد لا مبرر له . أما اذا كانت الغاية هى الغرض الثانى ، فان هذا من حق الدولة ، على أساس أن «حياة الجماعة» خير وأبقى من حياة الفرد ، ولا بأس من تجريده من حيـاته ، مادام حقه هـذا قد أصبح يتعارض مع « حـق الجماعة » فى الحيـاة . اذن هـذه الجماعة ، لا ينبغى للأخلاقيين أن يطالبوا بأن تقف على المستوى نفسه الذى يقف عليه الفرد . فمن حق الدولة فحسب ، أن تأتى أعمالا محظـورة على الفرد ، باعتباره فردا عاديا ، لأن الغاية هنا ، وكما قلنا ، هى (سلامة الجماعة) ، ومنطقها « الفرد للمجموع » . وهل يمكن أن ننـكر ، أو نتناسى ، أن خيانة فرد عادى لآخر ، ماهى الا مجرد خيـانة فـردية عادية ، أما خيانة فرد للدولة فهى (خيانة عظمى) ، وجزاؤها الاعدام، بالصورة التى تقررها بالفعل شتى الدول ؟

وطالما صحت هـــذه الأســانيد ، التى ســقناها من تونا ، فلا مبرر لدعوى الأخلاقيين فى حملتهم على ماكيافللى ، اذ هـــذه الأسانيد هى بوضوح الدعامات نفسها التى وضعها ماكيافللى وأرسى عليها مذهبه، من حيث الفصل بين الأخلاق والسياسة بجرأة ، بيد أنه أراد أن يجئ هذا الفصل بناء هادفا • فهو لم يذهب الى أبعد من أن تحرص الدولة على الالتزام الجازم والحاسم،بألا تتقيد فى حراسة نفسها وأمنها وسلامتها، وحراسة المصلحة العامة لها ، وتامين جميع هذه الضروريات ، بأية أخلاق فردية لزيد أو عمرو من الناس ، لأن حقوق الدولة وواجباتها فى هذا السبيل ، لا تدخل فى دائرة هذه الأخلاق ، وعلى حـــد تعبير نيتشه ، فهى حقوق وواجبات ليست لها طبيعة الخير،ولا طبيعة الشر ، ولا تنتسب لأى منهما •

حقا ، اننا جميعا نعجز عن أن ننكر أن سلطان الضـــمير أجدى على الناس من أى سلطان لقانون،وأن الأخلاق هى القانون الأكبر•ومع ذلك فلا نستطيع ، ولا يستطيع أخـــلاقى حكيم ، أوتى خــير الحكمة الكبير والنبيل ، أن يرفض من مركز حكمته ، اعفاء الدولة من قواعد الأخلاق الفـــردية ، كمـا ســبق أن بينا • ولا جـــدال بتاتا فى أن الـــدولة التى تربط بين أبنائها بروابط الأخلاق،من واجب وفضيلة،وشرف وعدالة، وصدق ووفاء ، وأمانة ونبالة ورحمـــة ، وتضــامن وتكافل ، وحـــب وتضحية ، وتوفق فى أن تتخلل بالفعل هذه المعانى السامية والفضـائل العالية شعاب قلوب ابنائها،وأن تسرى هذه الفضائل فى هذه القلوب مسرى الدم فى الانسان ـ هذه الدولة انما هى التى تبنى وتشيد،وتصعد وتمجد، ويرجى من أبنائها الخير كل الخير، سواء لهم هم بالذات كأفراد ، أو لهم كأمة ، أو لهم كدولة ، ولن تدمى أية أشواك لأبنائها هؤلاء يوما ما أبدان بعضهم بعضا • فلا يكون شأنهم هنا شأن القنافذ حين يلتصق بعضها ببعض فتدمى أبدان بعضهم بعضا • ويلاحظ أنه بغـــير هـــذا الرباط الخلقى المتين تتحول الدولة الى مجرد (ديدبان) أو (جلاد)، يساق سوقا وكرها ، الى منطق استخدام القوة باسم الضرورة ، حتى تقطع الدولة السبيل على من تســـول له نفســه المناوأة • الكذب شر ورذيلة ، ولكن هل يظل كذلك ، حين تضطر الدولة اليه ، ممثلة فى رئيسها ، لكى ينقذ

أمته بأسرها ، ويحافظ على سلامتها ، وهـذه السلامة هى واجبه الأول والأخير ؟ وعدم الوفاء بالوعد شر ، ولكن ، هل يظل ذلك كذلك ، حين تضطر اليه الدولة ، وتلغى مثلا اتفاقا لم يعد تنفيذه يفى بمصلحتها ؟

ان (الماكيافللية) ليست (غاية) ، وانما هى (منهج) . وعندما قال ماكيافللى ، بأن (الغاية تبرر الوسيلة) ، لم يكن يدعو الى ان تستخدم (الوسيلة) استخدامنا للقمـة الخبز وشربة الماء فى حيـاتنا الفردية اليومية ، اذ هو لم يكن يقصد البتة سوى « حق الدولة » ، وهى فى حومة السياسة ، أو بالأحرى فى غاب السياسة . لأن الدولة لابد لها عملا بأحكام الضرورة ، شاءت أم أبت ، أن تعرف جيدا ، كيف تسلك كحيوان الغابة أحيانا ، اذ « على الحاكم أن يحاكى الثعلب ويقـلد » « الأسد ، لأن الأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ ، والثعلب » « لا يقدر على أن يدافع عن نفسه ضد الذئاب ». لذلك يجب على الدولة أن تكون « ثعلبا لتعرف الفخاخ »، وأن تكون «ليثا لتخيف الذئاب»(١). ان الحكماء القدامى ، كانوا يوحون بذلك دائما لرئيس الدولة ليرسل أولاده أولا الى (كيرون) Chiron لتنشئتهم وتربيتهم بهذه الصورة . وهذا المعلم كان شبيها (بأبى الهول) الرابض على سفح هضبة الأهرام عندنا ، وكان نصفه بشرى ونصفه الآخر حيوانى!(٢) .

اذن ، ماكيافللى لم يكن يدعو الى التحلل من الأخلاق ، وخاصة أنه عاش حياته ، بين جدران داره ومنـزله ، وبين زوجته وأولاده ، ملتزما بحدود الفضيلة والخلق الكريم . ولم يعرف عنه أن تخلى يوما عن مكارم الأخلاق ، على درب من دروب حياته . فقد أخلص (الكاتب الفلورنسى) فى القيام بالولاء لواجباته فى عمـله العام ، وفى حيـاته الخاصة ، سواء بالنسبة للوفاء لزوجته ، أو البر الصادق والتربية الخلقية لأولاده . وثمة وثائق عديدة تشهد بذلك ، وهى رسائله التى جمعها الدارسون ،

---

(١) محمد مختار الزقزوقى : نيقولا ماكيافللى ، القسم الثالث (نص كتاب الامير) ، الباب الثامن عشر

(٢) المصدر السابق

ووجـــدوها جميعا تنطق نطقا مبينا بقـــوة خلقه ، ورقة قلبـــه ٠ وقد عرف بذلك أيضا بين أصدقائه ، فكان نعم الصديق الوفى المخلص ، بل وكان يسمو بصداقته الى عليـــاء الوفاء الروحى ، الذى لا يقـــوم ولا يقترب أبدا مما قد يشـوب الصـــداقة ، حتى لو كان هذا مصـــلحة شخصية له ٠

وماذا يقول قائل لو عـــرف أيضا أنه أبى فى عـــزة وشـــموخ ، أن يبيع قلمـــه كمأجـــور فى عصـــره ، على الرغـــم مـــن رقة حاله وحاجته ؟ لقـــد رفض ذلك جميعه ، ولم يسلك سلوك معاصر من معاصريه ، هـــو (بيير لاريتان) Pierre L'Aritan ، صاحـــب السخافات المشـــهورة فى تلك الفـــترة التاريخية ٠ ويلاحظ فيها ، ان الخلق الكريم حينذاك كانْ عملة نادرة،لانتشار الفساد والافساد والرشوة، على نطاق واسع بين العاملين فى الدولة ٠ « لقد أشاع عنه أعداء له فى» « فلورنسا ، استعداده لأن يرتشى من البابا الجديد (يوليوس الثانى)،» « فى سفاراته الى روما ، بغيـــة أن يخـــدم البابا لدى (المجلس) » « فى فلورنسا ، أكثر من خدمة (المجلس) لـــدى البابا » ٠ ويقـــول (جانى)(١) Janni : « ان الاشاعة ضعيفة ، ومشكوك فى صحتها ، » « والشاهد على ذلك فقره وعوزه » ٠

وماذا نقـــول ، لو عرفنـــا أن ماكيافللى لم يكـــن يتملق (آل مديتشى) ، كما يبـــدو من ظاهـــر اهـــدائه (كتاب الأمير) الى (لورنتسو دى مديتشى) ٠ فواقع الأمر وحقيقته ، أن هـــذا الاهداء ، وكذلك اهداء كتابيه (تاريخ فلورنسا)(٢) ، و (المقال فى اصلاح دولة فلورنسا) (٣) اليهم ،كانتقليدا من تقاليد عصره المألوفةوالمعروفةفىفلورنسا، جاء فى صورة مرسمية عادية ٠ يقول (جانى) : « كان ينقص ماكيافللى» « استعداد حقيقى للنفاق ... فهو الذى لم يكن من اليسير عليه ، أن »

---

1. Ettori Janni : Machiavelli
2. Storie Florntine
3. Discours sur la reforme de l'Etat de Florence

« يمدح أصحاب السلطان. وهؤلاء لم يكونوا يلمسون فيه طبيعة العبيد. »
« والعبيد كثيرون فى قصـور الملـكية ، وحـكومة الأقلية ، وفى »
« ديمقراطية الأمس ، وفى ديمقراطية اليوم ، وفى ديمقراطيةالغد »(١).

بقى أن نقول : ان سائلا سأل ماكيافللى ذات يوم ، فى (محاورات فن الحرب) قائلا : ماهى الأمور الفـديمة ، التى ترغـب دائما فى تعظيمها ، واعلاء شأنها ؟ فأجاب : (تكريم الفضيلة ،والمكافأة عليها ، واحترام العادات العسكرية ، والنظام ، والتزام المواطنين بالتحاب فيما بينهم ، دون أن نحتقر الفقـر) . فمـا معنى ذلك ؟ ألا يدل هـذا دلالة قاطعة ناصعة ، على أنه لم يكن يدعو الى الانحـلال الأخلاقى ؟ ويجب أن نضيف الى ذلك قولا له آخـر فى (المقال فى اصـلاح دولة فلورنسا) هو : (اننى أعتقد أن أعظـم خـير نستطيع القيام به ،) (وينال رضا الله فى أعلى درجاته ، هو ما يقدمه الفرد لوطنه) . وقد ورد فى خطاب له فى ١٦ أبريل عام ١٥٢٧ ، أى فى مدى شهرين قبل وفاته ، قوله : « اننى أحب السيد جويشارديني(٢) ، ولكن حبى لروحى دون حبى لبلادى » . وهذه الفقرة مقتبسـة من خطاب لماكيافللى الى فرنسسكو فيتورى . ان (الوطنى العظيم كما كان يلقبـه ، (بنتو موسولينى)الزعيم الايطالى ، عشق وطنه . ورغم ان العشق دوامة حب قد تتلف النفس ، الا أننا نجد أن عشق وطنى لبـلاده هو قمة من قمم الايمان.اذن فقوله (حبى لروحى دون حبى لبلدى) انما هو شهقة محب يفنى ليبقى محبوبه . وهذا ما تسفر عنه قراءة الباب السادس والعشرين من (كتاب الأمير)(٣)، حيث الفصل التام بين الأخلاق والسياسة،وحيث تكاد تسمو معانىهذا الباب بكل نفس تعشق وطنها،مع عاطفة ماكيافللى وروحه ، وهو يصلى فى خشوع ودموع ، شاكيا باكيا ، يرجو من الله ،

---

1. Ettori Janni : Machiavelli.

(٢) مؤرخ ايطالى وصديق لماكيافللى

(٣)محمد مختار الزقزوقى : ماكيافللى ، القسـم الثالث ، (نص كتاب الامير)، الباب السادس والعشرون

أن يخلص ايطاليا وهى«بلا رئيس ولانظام ،مقهورة منتهية،ممزقة كل » « ممزق » ، ومغـــلوبة على أمرها » ، « تنتظر من يأســو جراحها ، » « ويضع حدا لاغتصاب لمبارديا ، والجشع والأسلاب فى ممــلكة نابولى » « وتوسكانيا ، ويـــبرىء ايطاليـــا من تلك الجـــروح ، التى طال » « تقيحها » • ولكن خاب أمل ماكيافللى فى حينه ولم يتحقق الا فى القرن التاسع عشر ، على يد زعماء (البعث الايطالى) Resorgimento وفى ذلك كان الفضل لماكيافللى أيضا •

وحين ننشد العدالة فى تقييم ماكيافللى ، من حيث الدور الذى قام به فى جرأة هادفة ،واستدلال واسع النطاق فى مجرى التاريخ ، وفى حومة السياسة ، لابد من ان نوجه اللوم الى ماكيافللى ، لاتخاذ (قيصر بورجيا) بطلا لكتابه (الأمير) ، ورفعه من شأنه واعلاء أساليبه • فالباب السابع من (كتاب الأمير) ، يحوى نصـــوصا تجعلنا ندير وجوهنا ونخفيها اشمئزازا وخجلا ، ولا تعطينا البتـــة ولو فرصة نحيلة للدفاع عنه ضد من قاموا بالحملات والمطاحنات ضده • ولكن لا تستقيم عدالتنا فى الحكم ضده ، أو له ، الا بالربط بين جريمته هذه والدوافع اليها ، وما أكثر الحالات التى تتحول فيها أحيانا الجريمة ذاتها الى بطولة ، والرذيلة الى فضيلة !

ان بطل ماكيافللى دوخ أعداءه بكل وسيلة حتى الجريمة ، وكان لا يتوانى عن افتراس السلطان واغتصابه على متن ما استطاع من شرور وآثام • ولكن ألا نستطيع ، على هذا الأساس ، أن نعذر ماكيافللى ؟ ان بطل«السفير الفلورنسى»،كان يرنو الى أحد أمرين،فاما أن يحتل مكانة (القيصر) ، أو يورى فى تراب قبر • وهـو الذى داس على فـــكرة الجنود المأجورة وسحقها بنعاله ، وباشر بتشكيل قواته المسلحة الوطنية• وعندما أنيطت بماكيافللى مهام الدفاع عن حدود فلورنسا ، دبلوماسيا وعسكريا ، قرر ماكيافللى هذه الفكرة نفسها لحراسة أرض ايطاليا وعرضها،

---

* محمد مختار الرقروقى . ماكيافللى ، القسم الثالث (نص كتاب الأمير) ، الباب السادس والعشرون

سنين عديدة دون الاعتماد على الجنود المرتزقة علة خرابها الوحيدة ٠ فالجنود المرتزقة « هم الذين ساقوا ايطاليا الى العبودية ، » وأنزلوها الى الحضيض»(١) ٠ بينما (قيصر بورجيا) « حين عول » **« على نفسه ، واعتمد على قواته ٠٠ كانت شهرته فى ازدياد مستمر ، »** « ولم تبلغ أبدا أعلى درجة لها ، الا حينما أصبح تماما سيد » « قواته »(٢) ٠

★ ★ ★

وهكذا كانت هذه الحملات أهم المطاحنات ضد ماكيافللى ٠ ولكن الا يمكن أن نستميح له عذرا ؟ ان حب الوطن حين يصبح عند أبنائه ثورة عشق أمر طبيعى، اذ أرواحهم يجب ألا يشغلها عنه خلد، وأن تثور لكرامته ثورة لاتعرف الحدود ٠ وماذا كان فى وطنه ايطاليا حينذاك ؟ ايطاليا تدوس سيادتها وشرفها شتى النعال ، من فرنسية ، وسويسرية ، وأسبانية ٠ ولكن ماكيافللى (الوطنى العظيم) و (السفير الفلورنسى) ، لم يطق صبرا ، وانقلب لهول المأساة المروعة فظا شرسا فى فكره، وكان عليه ،باسم الضرورة التى تملى على الانسان دون هوادة ألا يؤخر أحكامها فى التو واللحظة، ألا يقف فقط عند هذا الحد، بل ويتجاوز ذلك الى أشد قسوة وشراسة ليبتر فورا الرؤوس ، ويجز الرقاب، تلبية لأقسى الضرورات، وهى سيادة الوطن وسلامته ، فمن يلبى مجرد دعوة الى وليمة للذئاب ، لابد له من أن يصحب معه كلبه ، كما يقول المثل الألمانى ! ويجب أن يلاحظ، أن المفكر وليد عصره ٠ والقرنان الخامس عشر والسادس عشر لم يكن يشمئز الناس فيهما فى ايطاليا من الضراوة كأسلوب فعال فى ميدان السياسة ٠ لقد وصل هذا الأمر بالناس حينذاك ، الى أن الخيانة نفسها أصبحت سلاحا فى حلبة الحيوانات السياسية ٠ اذن فقد كان طابع عصر **ماكيافللى عدم الوفاء بالوعد ٠ فملك فرنسا وقتذاك كان غدارا غير وفى** و (ليون العاشر) Leon X كان خداعا غدارا ، يتحالف فى ١٧ يناير ١٥١٩ مع (شارل) ملك أسبانيا ، وفى بحر ثلاثة أيام سويا يبرم

---

(١) المصدر السابق ، القسم الثالث (نص كتاب الامير) ، الباب الثانى عشر٠
(٢) المصدر السابق

معاهدة سرية مع ملك فرنسا ! وكان هـــذا هو الجو الذى عاش فيـــه ماكيافللى فى فلورنسا ، وهى حينذاك تؤمن بالخنجر مبضعا حاسما فى العمليات السياسية ، وبالسم دواء ناجعا للتخلص من الخصوم !

وجدير بالذكر ، أن أحد شراح (كتاب الامير) لماكيافللى حيث نجد أقوى آيات الفصل البين بين الأخلاق والسياسة يقـــول فى الموضـــوع : ان ماكيافللى ، حـــين كتـــب هـــذا الكتيب ، حض على تخليص ايطاليـــا مـــن البرابرة (الأجـــانب) وتوحيـــدها ، لم تـــكن رسالته تربية حمـــل وديع ســاذج ، يقدم نفسه لقمة ســـائغة للسـباع . وانما كان واجبه العظيم أقسى من ذلك وأعنف ، اذ هو اعـــداد « مخلص لايطاليـــا » اعـــدادا سياســـيا بـــكل الامكانيات العملية ، حتى يستطيع أن يؤمن طريقه تماما فى غاب السياسة الكثيف ، غير هياب ولا وجل ، وبصيرا حريصا ، لكى لا يفاجأ لحظة حين يجـــد نفسه ، فيما هو أقل من غمضة العين وانتباهتها ، أسيرا فى شبكة ، أو فريسة لمخلب أو ناب . ان ماكيافللى قد فصل فصلا كاملا بين الأخلاق والسياسة، على هدى نجم التاريخ البشرى كما سجله على نفسه بالذات الانسان (الحيوان السياسى بطبعه) ، ومن منطلق ظروف ايطاليا الملحة القاسية ، وبدءا من منطق الضرورة وتحكمه المستبد الطاغى ، وقانون الصراع السياسى الذى غايته النصر والغلبة فقط . وغير خاف أن وطيس الصراع كان حاميا حموا قاسيا . لقد قصد ماكيافللى ، (أن يحذر عصره من أخطار الحكم الضعيف)*. فحكومة ضعيفة ، لا تحمى ايطاليا من شر المعتدين ، وشر الطامعين ، وشر المتآمرين ، وشر الخونة والمستغلين ، وتعجـــز عن تحقيق غاية السياسة ، وهى أولا وأخير سلامة الدولة ، واسعاد شـــعبها فى نهاية المطاف .

(*) هارولد نيكولسون : الدبلوماسية ، الترجمة العربية ، لمحمد مختار الزلزوقى الباب الثانى ، ص ٤٥

الفصل الرابع

من التشهير الى التقدير

فصل ماكيافللى بين الأخلاق والسياسة ، وهوجم على نحو ما بينا . ولكن نقده أخذ يتطور من اللعنات والمطاحنات الضارية ، الى الدراسات الموضوعية ، وأخيرا رد اليه اعتباره . ويمكن القول بأن هذا قد ظهر فى (عصر التنوير) Aufklärung فى القرن الثامن عشر ، عندما اشتد الحماس فى الايمان بالعقل ، والكفر بحق الملوك المقدس ، وتحرر الدول من هيمنة رجال الدين ، وليس الدين بالذات . وحينذاك أخذ ماكيافللى ينتقل من حضيض المنبوذين ، الى علياء العباقرة المفكرين ، وفى النهاية قدر حق قدره ، فتنقل رفاته الى (كنيسة الصليب المقدس) Santa - Croche (بانثيون فلورنسا) ، وكتبه تظهر وتنشر ، فى طبعات عديدة جديدة فى شتى عواصم أوروبا . فنجد فى فرنسا مثلا ، (جيروديه) Guirodet ينشر ترجمة كاملة لمؤلفات ماكيافللى عام ١٧٩٩ ، وفيها يفسح أشرف مكان ومكانة لوطنية (ابن فلورنسا) ليتبوأهما باستحقاق . ونجد (جان جاك روسو) J.J. Roussea يقلد ماكيافللى عقود الثناء . والغريب أن يكون الدافع (لروسو) الى هذا هو (كتاب الأمير) بالذات ، اذ ان (روسو) قد اعتبره خير العظات للأمم ، وانجيل أنصار النظام الجمهورى .

ولكن كانت هناك نغمة نشاز ضد (الكاتب الفلورنسى) ، ظاهرها الطعن فى ماكيافللى ، وباطنها اعلاء شأن ماكيافللى . فقد كتب العاهل البروسى العظيم (فردريك الثانى) كتابا ، ضد أستاذه

الروحى ماكيافللى ، عنـوانه (ضـد ماكيافللى) Anti - Machiavel **ونشره هـذا الحاكم الوراثى ، تحت اشراف (فولتير) · ولكن متى** كتب هذا الكتاب ، ثم متى نشـره ؟ لقـد تمـت الكتابة وهو ينتظر **ارتقاء العرش ! ولكن حين ارتقى كرسى الحـكم ، وتربع فيـه تماما ،** سرعان ما منع نشر هذا الكتاب ! وهـكذا أثبت (فردريك الثانى) ، وهو المعروف بأنه كان ، وظل دائما ، أخلص تلاميذ ماكيافللى وأوفاهم لأستاذه ، حتى فاق (ريشيليو) فى هذه التلمذة · و (ريشيليو) هذا هو الذى هدم نفوذ البروتستانت فى بقية أنحاء أوربا ، من أجـل هـدف واحـد ولا سـواه ، هو (شـرف فرنسا القومى) ،· أما المصالح الكاثوليكية فليس لها بتاتا أن تعـلو أو تعـدل مصالح وطنه ! وحتى يحبك فردريك ماكيافلليته ويغطيها ويخفيها ، وحتى لا يسبقه أى نجيب من تلاميذ ماكيافللى فى هذا الشأن ويبزه، وبينما هو ينتظر ارتقاءالعرش كما سبق القول ، دأب على أن يصف أستاذه ماكيافللى فى كتابه (ضد ماكيافللى) تارة (بالحقير اللئيم) ، وتارة أخـرى (بالرجل غير الأمين) · ويلاحظ أنه لم يصدر هذا الكتاب ، كنوع من التسلية وشغل وقت فراغ ، وانما كان يرنو الى كرسى الحكم وينتظره !

لقد كان (فردريك) هذا أكثر الحكام العظام ممارسة للمبادىء الماكيافللية · ونستشهد فى ذلك بمثال واحد من تاريخه العظيم · فهو الذى استولى على سيليزيا، بالرغم من اعتراف أبيه بوراثة (ماريانريزا)· وتم استيلاؤه عليهـا وابتسـامة (ثعلب ماكيافللى) تفتر على ثغره ، بعدما جعـل من نفسـه فى هذا الأمر (أسـد ماكيافللى) ! وقال فى هذا الشأن مبررا هذا الاستيلاء : « ان المحلفين سـوف يصلون الى أسباب عملى هذا ! » · وفضلا عن ذلك ، فقد ظل بالفعل تلميذا مخلصا وفيا ذكيا لأستاذه ماكيافللى·وتظهرنا علىذلك أقواله فى مناسبات عديدة· ومنها قوله : الحرب والسلام هما مجـرد وجهين متعاقبين للصـراع البشرى الذى لا ينقطع · والدبلوماسية بدون جيـوش موسيقى بغـير آلات · وهذه الأقوال ، انما جاءت منه بوحى من ماكيافللى ، وانبثقت من فكره الذى كان يشرق وظـل يشـرق بهـذا الوحى · وبذلك يكون

(فردريك) ، قد سبق (كلاوسفتز) Clauswitz ، حين أعلن الأخير بعد ذلك ، أن السياسة هى مواصلة الحرب ، ولكن مع اختلاف الوسائل ٠

وكم يشهد سـجل (فردريك الأكبر) ، بمواكبته دائما روحا وعملا لمبادىء أستاذه ماكيافللى ، فوصـل به الأمر الى حد أن جعل من نفسه خادم الدولة حـين قال : « أنا أول خـادم للدولة » ٠ ولم تصـدر منه هـذه العبارة كمجـرد تعبـير عن واقع حكمه ، بل كحقيقة حكمه ، ومـن ثم كان يعطى تعليماته المشـددة للبروسـيين قائلا : (ينبغى لبروسـيا ، ألا تضـحى بفـدية تفتديه بهـا من الأسر ، لو وقع أسيرا !) ٠ وهكذا جعـل من (بروسيا) دينا ، ومن أداء الواجـب نحـوها آيات ، ومـن التضـحيات فى سـبيلها صلوات ، ليستدر بذلك أمرا واحدا ووحيدا ، هو أن يكون موضع رضـا بروسيا ٠ وفى جميع هـذه الأمور ، كان حريصـا على أن تظـل الهوة قائمة بين الأخلاق والسياسة ، حتى قال (فولتير) عنه فى ذلك بلهجة ساخرة فى مذكراته بينما هو يعتبر اياه أنجب تلاميذ ماكيافللى النجباء : « لو كان لماكيافللى تلميذ من بين الأمراء ، فلربما كانت أول وصية » « يوصيه ماكيافللى بها هى أن يكتب كتابا (ضد ماكيافللى) ! » ٠

وفى فترة مبكرة من القـرن التاسع عشـر ، وهو عصر القومية الرومانتيكية ، نجد فلسـفة (هيجل) تنحو وتذهـب الى أن الدولة هى الآلة التى بها يحقق الله ارادته (فوق التاريخ ، والأحرى خـلال التاريخ) ٠ واتجهت هذه الفلسفة الى وضع القوى التى تشكل (عالم الانسان) فـوق طاقة البشر ٠ وأدى التفاعل بين هـذه الفكرة التى تعتبر الدولة قـوة الهية وسلطة عليا منظمـة ، وبين فكرة الأمـة باعتبارها هوية روحية واحدة ذات جـذور عميقة فى أعماق الشـعب البعيدة ، أدى هذا التفاعل بينهما الى ظهور فكرة (الدولة القومية) ٠ وسـرعان ما اهتزت هـذه الفترة بأفكار ماكيافللى القومية فى (كتاب الأمير) ، الى حد أن (القومية) بتيارها الجـارف ، استطاعت أن تجرد فكرة (أسرة الشعوب) من الوقوف على ساقيها ٠ لقد تم لهذا القرن اكتشاف (ماكيافللى القومى) ، (وماكيافللى المحرر) ، (وماكيافللى الديموقراطى !) ٠

وفى الفترة التى تلت (حروب نابليون) ، سلط رجال الفكر فى المانيا بحوثهم الطريفة والمكثفة الضخمة على ماكيافللى . وكانت النتيجة سيل ضخم من الدراسات أخذ يتدفق . ومن باكورة هذه الدراسات دراسة (فيشته) Fichte لماكيافللى ، كجزء من كتابه (خطاب الى الشعب الالمانى) Adress to the German Nation. ولكن يجب أن نلاحظ أن (هيجل) هو الذى كاد أن يصل بفلسفة ماكيافللى وأفكاره الى حد الموافقة الكاملة على ما انتهى اليه (ابن فلورنسا) . وانه (هيجل) هو الذى رد على سخط الاخلاقيين على ماكيافللى وغضبهم ، وعلى رفضهم الخصومة التى أبرزها بين الواقعى والمثالى ، كما سبق البيان . اذ (هيجل) هو الذى أنكر وجود هذه الخصومة ، وأنكر الفصل بين الأخلاق والسياسة . ولنا أن نتساءل : وكيف تم ذلك ؟ والجواب ، أن (هيجل) فى (فلسفة القانون) The Philosophy of Law ، ذهب الى أن (الدولة) ، هى الفكرة الأخلاقية الملموسة ، وهى غاية فى حد ذاتها. وليس للدولة من واجب أعلى من المحافظة على بقائها . لأن (الواقعى) هو (الحقيقى) وهو (العقلى) . و (العقلى) هو (الحقيقى) و(الواقعى). وهنا نجد أنفسنا أمام (نظرية (اسبينوزا) فى الحلول)، وقد كيفت تكييفا سياسيا . قال (هيجل) : ان الدولة تركيب روحى ، وأعلى تجسيم للعقل . وتربط بين أجزائها غريزة النظام المتأصلة فيها. والدولة سيدة نفسها . وهى كذلك فى علاقاتها مع الدول الأخرى . وعلى ذلك فالقانون الدولى ، ليس بعقد حقيقى ، اذ لا دولة ملزمة بغيرذلك، قانونيا أو أخلاقيا . ولا تحل الخلافات الخطيرة من غير حرب. فالحرب ليست شرا ، وليست خيرا ، ولكنها شىء طبيعى له فائدة ، اذ هى مظهر طبيعى . والدولة حين تقرر الحرب ، يجب ألا تنظر بعين الاعتبار الا الى مصلحتها . وهكذا سار (هيجل) فى اثر ماكيافالى وتابعه ، ودعا الى الدولة معبودا ، وجاء بشتى الطقوس لتمجيدها . ومما يزيد الصلة بين (ماكيافللى) (وهيجل)وضوحا، قول (هيجل) : ان مجرى التاريخ ، ينحرف عن جادة الفضيلة والعدالة !

وكان (رانكه) Ranke بالمثل ، وهو من أساطين المؤرخين الكبار الألمان،ومن أبرز من اهتموا بماكيافللى وهو يبحث عن حل لمشكلة

المانيا الأولى والكبرى ، وهى الوحد القومية . ولقــد اعتبر (رانكه) صاحب (كتاب الأمير) هو مؤسس المنهج التاريخى الحديث ، وهو الذى أرسى أيضا قواعد التحليل التاريخى الحديث . واعتبر (رانكه) ماكيافللى الشــجاع الذى فســر تفسـيرا صريحا صحيحا داء ايطاليا الذى كاد ان يفتك بها . وهو الذى قرر ببسالة ووضوح دون جبن أو حياء، الدواء الفعال لما أصابها ، اذ هو ماكيافللى الذى كانت لديه « الشجاعة التى تصف السم دواء » . وقد أدخل (رانكه) (وصــفات ماكيافللى الخطيرة) ، فى باب (القتل من باب الرحمة) ، أى الرحمة فى صورة قتل . ولم يفت هذا المؤرخ الألمانى الكبير أن يشــهد بأن ماكيافللى قد افترى عليه كثيرا . ويرد (رانكه) ذلك ويرجعه الى أن من هاجموه لم يقرءوه . فماكيافللى عنده (الكاتب العالى القدر) ، (ولم يكن شريرا بأى معنى من المعانى) .

ومن المواقف التى جاءت شبيهة بموقف (هيجل) من ماكيافللى ، موقف (ترايتشكى) Treitchke . ففى محاضراته التى ألقــاها فى (هيدلبرج) Heidleberg ، وفى (برلين) ، وذلك فى القسم الخاص بالعلاقة بين الدولة والقانون الأخلاقى ، يسلم بأن ظهور المسيحية قــد جلب معه مشكلة لم يكن للقدامى عهد بها . ثم يشــهد ويعلن عن فضل ماكيافللى وقدرته حين جعل الدولة تنهض لتقف على ساقيها ، وليس على سيقان غيرها ، ويخلصها من نير الكنيســة . فماكيافللى ، عنـد (ترايتشكى) ، هو الذى أعلن لأول مرة فى التاريخ بأن الدولة قوة . ولكن نراه يعيب على ماكيافللى ، أنه لــم يبرهن على ضرورة أن يسوغ الحاكم حكمه عن طــريق السعى من أجل مصلحة المحكومين ، وذلك حين يتولى الحاكم السلطة ويقبض عليها . كمــا يعيب على ماكيافللى أيضا اعجابه الشديد (بقيصر بورجيا) .

قال (ترايتشكى) : «انواجب محافظة الدولة على سلطانها واجب» « عظيم ، لا تقارن عظمته بأية عظمة أخرى . ولكن أغراض الدولة » « لابد أن تكون أخلاقية ، خشــية أن تناقض الدولة طبيعتها . وكل » «حكم أخلاقى يصدره المؤرخ ، لابد أن يقوم على أساس افتراض أن »

« الدولة قوة ملزمة بالحفاظ على نفسها ، فى الداخل والخارج » . ان هدف (ترايتشكى) فى ذلك واضح تماما . ومع ذلك ، فثمة اختلاف بينه وبين ماكيافللى، ومحل هذا الاختلاف هو الوسائل لا الغايات. فرسالة هذا المؤرخ الألمانى الكبير ، هى العظمة الروحية والأخلاقية للدول الكبيرة القوية . لأن الدولة الصغيرة لا تاريخ لها ، اذ هى عاجزة عن حماية نفسها . ان الدولة فوق أفرادها وتعلو عليهم . ولا توجد الدولة الا لكى تحقق مثلا أعلى للسعادة الفردية ، ولاتسنطيع الدولة تحقيق ذلك ، الا اذا كانت قوية ، وفى غنى عن الاستفتاء أو التساؤل عن موافقة مواطنيها على أعمالها ، اذ هى الحارسة للتراث القومى ، وهى الوصية على الأجيال المقبلة . ويستمر (ترايتشكى) قائلا : ان الدولة ، غير ملزمة بأى ولاء لسلطة خارجة عنها . ان القانون الدولى مجرد عبارات، ولا صرح لعدالة يستطيع أن يحكم بين الجماعات ذات السيادة . ان المعاهدات قيود للدولة تقيد بها نفسها بنفسها حرة مختارة ، ولا تستطيع أية دولة كائنة من كانت أن تقيد حرية دولة أخرى فى هذا المجال . وواجب الدولة ، أن تكون تماما على أهبة الاستعداد للحرب . والحرب صحيحة وسليمة ، حين نخوضها من أجل الشرف ، أو من أجل مصلحة قومية . وهى وسيلة من وسائل التهذيب والارتقاء . وهى ليست بالضرورة شرا ، اذ هى آلة الدولة ، ومدرسة الوطنية ، لأن الأمة لا تتحد اتحادا روحيا صادقا الا فى الحرب من أجل الوطن وأرض الآباء والأجداد. ان الحرب هى الدواء الوحيد للشعب المريض. وانها المثالية هى التى تبغى الحرب ، أما المادية فهى التى ترفضها . ان الحلم بسلم دائم ، يدل على جيل راكد ومنحل فاسد ، اذ الصراع هو قانون الحياة .
« ان الأمل فى القضاء على الحرب ، ليس مجرد هراء ، ولكنه يتنافى »
« مع الأخلاق أيضا . ان اختفاء الحرب ، سوف يحيل الأرض الى »
« معبد كبير للأنانية » . ونحن هنا بازاء عبارة (مولتكى) Moltke المشهورة ، وهى : « السلم الدائم حلم ، وحتى ليس بحلم جميل ! » ولا غرو فى ذلك ، فماهية الدولة ، عند (ترايتشكى) هى القوة أولا ، والقوة ثانيا ، والقوة ثالثا .

ولقد قيل فى التقارب الفكرى بين (ترايتشكى) وماكيافللى :

لو فرضنا أن كان (ترايتشكى) (ايطاليا) يعيش فى القرن السادس عشر، وماكيافللى (ألمانيا) يعيش فى القرن التاسع عشر ، فهل كان يقول كل منهما ما قاله الآخر ، ودون اختلاف بينهما ؟ لقد نظـــر ماكيافللى الى ايطاليا ، ونظر (ترايتشكى) الى المانيا ، وما أرق الفارق بين القـــرن السادس عشر والقرن التاسع عشر !

★ ★ ★

وفى ايطاليا ، نجد (مازينى) Mazzini يصيح : « اتركوا المجال للشباب » و « ضـــعوهم على رأس الثـــورة ، وافهموهم أن عليهم » « واجبا نبيلا يجب أن يؤدوه ، واذكوا فى نفوسهم شـعلة الحماسة ، » « وأقنعوهم بقدرتهم ، ثم اقذفوا بهم فى وجـــه النمسويين » . ونلفاه يبشر بالوحدة التى «غدت انجيل الأمة، وبايطاليا جمهورية غير مجزأة». « وكفيلة بالغاء كل الامتيازات » . ونسمع فى ايطاليا أيضا عبارةتعلن:» « لا يمكن التفاهم مع الرهبـــان » ، ونشـــيدا ينادى : « الى السلاح يا ايطاليا الى السلاح فقد بزغ فجرك » . ونقرأ كتابات (داتسيجليو) D'Azegleo تحض الجيل الايطالى على الرجولة ، وهجر الغوانى ، والتفرغ لاحياء الوطن ! وحينـــذاك لم يكن يغيب عن الآذان صيحات (جيســتى) Guisti تقول : « يا حبذا مقبرة كريمة تجعـــل الأحياء يغتبطون بها» ،ولتنطلق هذهالصيحاتفىكبرياء فىوجه«كل من يصورايطاليا ميتا لن يصحوا » . أما (كافور) Cavour فكان يحذر من الانسياق مع نيار لا يلائم الظروف ويعلن : « الى الحرب...الىالحرب بلا تريث »، ويصيح فى ساعات الضيق والقلق ، وهو يضع ايطاليا على الخـــريطة ، قائلا : « ما أنذلنا ، اذا فعلنا من أجل انفسنا ما نفعله من أجـــل » « الوطن ! » . وهكذا نجـــد (كافور) وزعماء (البعث الايطالى) ، يمارسون رسالتهم بوحى من ماكيافللى ، وهم يؤمنون به كرسول للوحدة الايطالية ، ويحلمون بكيان قومى واحد لايطاليا ، حتى يستعيدوا ماضيها العريق يوم كانت روما سيدة العالم ، وهم متلهفون فى حرارة ويتطلعون الى أن ينصهروا فى سبيكة ايطالية واحدة ـ (البيمونتى) المجتهـــد الرزين ، و (الفينتسى) أو (النابولى) اللذان يمثلان العامل العاطل

الخليع ، و (التوسكانى) الذكى اللطيف ، و (الصقلى) السفاك حديدى المزاج . وذلك جميعه حتى يجدعوا أنف من كانوا يشيعون أن الايطاليين لا يجمعهم أصل واحد مشترك . اذ أن الدم الجرمانى هو دم أهل الشمال،والدم العربى أو النورماندى أو الأسبانى، قد يكون له أثر فى سكان صقلية.أما الدم الايطالى أو الاترسكى القديم النقى ، فلم يعد له أثر بتاتا خالصا ، وانما نجد مجرد آثار له غير نقية فى توسكانيا ، وبعض المناطق الوسطى . ولكن على الرغم من ذلك واختلاف اللهجات الايطالية ، فاللغة واحدة ، وذكرى الماضى المجيد واحدة ، والحلم بالمدينة الخالدة أى (روما) واحد، والأدب المشترك واحد ، والجميع عن بكرة أبيهم يفخرون بولدى فلورنسا : (دانتى) Dante ، و (ماكيافللى) .

وعندما استدعى زعماء (البعث الايطالى) ماكيافللى ، استدعوه « كعظيم لم يفهم ، وقد عانى العذاب من أجل حرية الوطن ، حين » « أبصره يحتضر ويموت » . « فجعل من نفسه ، وهو جالس على جثة » « وطنه ، مؤرخا لأسباب هلاكه وموته » . ووجد هؤلاء الزعماء فى المؤرخ الفلورنسى هذا الذى « وصف الوحدة القومية ، كانجع دواء » « لجميع آلام ايطاليا »(*) .ياالماكيافللى الوطنى التعس فى زمنه،وذلك على حد عبارة (تومازينى) Tommazini عام ١٨٨٣ ! لقد فتش الألمان والايطاليون بين آثار (الكاتب الفلورنسى) عما كانوا يحتاجون اليه فى حركات التحرير ، ووجدوا عنده مبتغاهم ، من مبادىء التكتل والاتحاد ، وانتهاز الفرص والمناسبات .أما الألمان ، فقد أخذوا عنه فكرة (حق الدولة) Staatraison ، وفكرة (السياسة الواقعية) Realpolitic . وأحست ايطاليا احساسا عميقا بفضل تفكيره الواقعى العملى الثاقب ، وسرعان ما احتلفت بذكراه احتفالا قوميا كبيرا ، فوضعت فلورنسا بالذات لوحة على قبره ، ونقشت عليها العبارة : « لا مديح يليق بقدر مثل هذا الاسم العظيم ! » .

والواقع ، وكما يرى بعض النقاد ، أن هذه الهالة الرومانتيكية التى

---

* Mazzini : Aux Jeunes d'Italie.

وضعها زعماء (البعث الايطالى) حول ماكيافللى ، حالت فى حقيقة الأمر بينهم وبين فهمه من شتى الوجوه . ولكن لهم العذر فى ذلك ، اذ هذا ليس واجب من يسعون ويمضون مباشرة الى صنع التاريخ وخلقه ، وانما هو واجب أهل الفكر وقادته ، الذين يعيشون فى أبراج التأملات . فلنحاول أن ننظر فى بعض هذه التأملات والدراسات العلمية، والتى أسهمت بلا شك فى رد الاعتبار الى ماكيافللى ، ومهدت له الطريق فى العصور الحديثة .

★ ★ ★

وأولى هذه الدراسات ، كانت دراسة (سانكتس) Sanctis الشاملة* وهو من أوائل النقاد الايطاليين فى منتصف القرن التاسع عشر ، وصاحب (تاريخ الأدب الايطالى) .ولقد شغل حديثه عن ماكيافللى فى هذا الكتاب جزءا كبيرا منه ، اذ قام صاحبه بتحليل ماكيافللى وشرحه ، بعقل منهجى حديث ، وقدمه للقراء فى صور متعددة ، مابين (ماكيافللى الانسان) ، (وماكيافلى الوطنى) ، و (ماكيافللى المؤرخ) و (ماكيافللى الفيلسوف السياسى) و (ماكيافللى الشاعر) و (ماكيافللى الكاتب الساخر) . وكان من نتيجة هذه الدراسة ، أن شكلت دعامة عريضة قوية ، لما سوف يكون فيما بعد من تقدير ماكيافللى حق قدره .

ومن هذه الدراسات دراستان ضخمتان ، واحدة (لتومازينى) . وهى دراسة واعية واسعة غزيرة المادة تجعل القارىء لها يضل الطريق بعض الشىء الى درجة قد ينسى فيها الفكرة الأصلية ، وذلك لتفاصيلها الكثيرة . أما الدراسة الأخرى فهى كتاب (فيلارى) Villari ، وهو مؤلف شيق لطيف ، أخف من الكتاب السابق الذكر ، الا أن تشابك التفصيلات تكاد أن تنسينا أنفسنا ونحن بينها . ومع ذلك ، نجد (فيلارى) يعترف (للدبلوماسى الفلورنسى) « بعاطفة » « وبطولة ، ترد اليه الاعتبار، وترفع من شأنه ، على الرغم من »

Sanctis : Histoire de la Litterature Italienne.

« اصرار (فيلارى) على أن فى ماكيافللى شيئا ما ، « يثير الرعب ، » « ويبعث على الفزع ! » ٠

وفى انجلترا نجد السياسى الكبير والمؤرخ الحجة (ماكوولى) Macaulay يبحث فى ماكيافللى ، ويربط بينه وبين الزمن الذى عاش فيه ٠ وعلى هذا الأساس ، يبرئه مما لحق به من تهم ولعنات دارت حول فصله الأخلاق عن السياسة ، ودعت الكثير الى أن يصوروه كافرا بالأخلاق ٠ يقول ماكوولى : ان ماكيافللى ، كان يعشق بلاده ويعبدها ، وأبصر معبوده مهددا باستمرار ويدنسه الأجانب على الدوام ، وينهبه الغزاة والبغاة ، والأجانب ، والجنود المعتدون الذين لا هم لهم سوى أن يجدوا فى كل أرض تطؤها أقدامهم ما يحلو لهم من اللذات ، وخصوصا السبايا الفاتنات ، ليشربوا كؤوس جمالهن الايطالى، ويرشفون رحيق زهراته ، باسم حق الغالب ، وبمقتضى شريعة الغزو والنصر ! وقد كانت ايطاليا بالفعل تسبح فى بحور الجمال الباهرة الأخاذة، وانشغلت بذلك عن الدفاع عن الوطن ، وكان قد قيض لها انتصارات فنية وعقلية عظيمة ، اذ أن أمراءها كانوا يحتقرون قوة الجند البدنية ، وهم بالذات لم يكونوا جنودا وقوادا ، بل كانوا تماما عشاق جمال ، وفرسان جدل ٠ واذا كان ذلك كذلك ، فما وجه العجب ، حين حركت ماكيافللى آلام وطنه وجروحه ، وقد تبلورت وتركزت عنده فى صورة تطلع عارم ملهوف الى «مخلص لايطاليا» (بضم الميم وفتح الخاء وكسر اللام وتشديدها) ، لينتشلها ويخلصها بالأساليب والأدلة التى صاغها ، وهو يقرأ تاريخ البشر ويدقق فيه ، حتى ينقذ أبناء بلاده من ركل قدم لجندى غاشم، أو من لكمات لأيدى المعتدين ؟ وكيف كان لهم أن ينازلوا جيوش المعتدين ، دون أن يسلطوا عليهم على الأقل قدرات ذكائهم فى صورة مكر ودهاء ؟ لماذا نصيح بأن السياسة الماكرة تمرغ فى الوحل قداسة الأخلاق ،بينما لانصيح هذه الصيحة وقد دفعت بندقية غاشمة فى يد جندى معتد غاشم مواطنا أعزل فى عقر داره ؟ ولماذا نلوم هذا المواطن الأعزل وهو المعتدى عليه ، حينما لا يفى بوعده وهو يقصد تخليص بلاده ثم نحكم عليه بأنه كفر بالأخلاق ؟ ومما يدعو للحيرة والحسرة والأسى المرير ، أننا فى نفس الوقت ، نغمض العين عن المعتدى الأثيم ، وكأنه هو الذى لم يدس على الأخلاق والفضائل !

هـــذا موجـــز دفاع (ماكوولى) عن ماكيافللى • ومن طبائع الأمور ، أن نجد هذا الدفاع ينحو ويمهد السبيل لرد الاعتبار لماكيافللى، لكى لا يظل يفزع الناس بقناعه الشيطانى ومن ثم لا يعود رسول الشر ، أو أستاذ الكذب والغدر ، بينما هو لم يكن كذلك • وانما كان مساقا بدافع حماية وطنه ، وبدافع الاهتمام به،وبدافع توفير أسباب القـــوة والغلبة والنصر له ، على أساس سياسة واقعية فعالة قـــوية التأثير ، استقاها بصورها الجزئية والكلية ، وفنها وأسلوبها ، من تاريخ البشر السياسى بالذات !

وحين نودع مقالة (ماكوولى) هـــذه ، نلقى مؤرخا انجليزيا كبيرا ، هـــو (آكتون) Acton ينادى فى انجلترا بدوره ، مع المنادين فى ألمانيـــا ، بماكيافللى مؤسسا للتحليل التاريخى • ويعد (آكتون) هـــذا فى نفس الوقـــت ، الشـــارح لماكيافللى الـــذى يعـــول عليه • فلقد تناول هذا المؤرخ مؤلفات ماكيافللى بالدراسة ، فى المقدمة العلمية العميقة والمحصة ، لطبعة (بيرد) Burd (لكتاب الأمير) حيث قال عن ماكيافللى : (انه كل التاريخ الأخـــير) • وقـــد علق (آكتون) هنا تعليقات شتى جـــذابة ، تحتوى على نصوص كثيرة ، اقتبسها من كبار الكتاب ، وكبار الساسة ، فى القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة • ولا ريب أن هذه التعليقات ، بنصـــوصها التى اقتبســـها (آكتون) ، قد دلت بما لا يدع مجالا للشك ، على قوة تسلط ماكيافللى على العقل الأوربى فى هذه الفترة • هـــذا ، ولم يفت هـــذا المؤرخ الكبير ، أن يوضح تمـــام التوضيح ، أن ماكيافللى كان المعـــين الذى استقى منه المسئولون عن مذابح الحروب الدينية ووردوا اليه •

★ ★ ★

وفى القرن العشرين ، قـــرن العمـــاء القومى ، ازداد الاهتمام بماكيافللى • فذهب كثير من النقاد والشراح والمفـــكرين ، الى حد أن اعتبروه أول من فكـــر تفكيرا حديثا • اذ أنه لم يؤمن بالتقـــدم أبدا ، وشأنه فى ذلك شأن العديد من المفكرين المحدثين • وهـــذا من ناحية سلبية • أما من الناحية الايجابية ، فهـــو الذى آمن بالقـــومية والمنهج

العلمى ، على الرغم من أن ايمانه بهذا المنهج لم يتجاوز مرحلة التخلص من الأفكار السابقة أثناء البحث والتفكير . وقد يعزى هذا الاهتمام ، الى الشبه الكبير بين مشاكل القرن العشرين وبين مشاكل عصر ماكيافللى . اذ نجد أن رجل هذا القرن يرغب فى السلام لنفسه ولدولته ، أما ماكيافللى فكان يرغب فى السلام فى دائرة مدينته ووطنه فقط . اذ لم يتأت لذلك العصر قوة حاكم من حكامه يفرض بها الوحدة القومية على ايطاليا . وانها هذه الوحدة هى التى كانت قد وقرت فى قلب ماكيافللى ، وصدقتها أعماله وكتاباته ، فكانت همه ليل نهار . وبالمثل كان هم القرن العشرين بالفعل القومية والوحدة القومية ، وظهور الدول القومية على خريطة العالم . ويلاحظ أيضا أن هذه الدول نفسها ، عندما عانت عناء شديدا من عدم الاستقرار ، اتضح الاهتمام بماكيافللى على نطاق واسع ، فأصبح مادة للدراسة الهادفة ، فى معسكر المثاليين ، وفى معسكر المغامرين السياسيين على السواء .

والحقيقة التى لا مراء فيها ، أنه مهما كانت مثلنا العليا فى السياسة واضحة ، وذات مبادىء أخلاقية واضحة ، فلا غنى لنا عن قراءة (كتاب الأمير) ، حيث فصل صاحبه فصلا كاملا حاسما بين الأخلاق والسياسة . وذلك يؤكد لنا تماما أن الحاكم وهو يسوس الدولة لا يمكنه دائما أن يطبق القانون الأخلاقى تطبيق الفرد العادى لهذا القانون ، وهو يحرس بقاءها ومصلحتها ، اذ فن الحكم ، على حد تعبير (نيتشه) ، لا هو من الخير ، ولا هو من الشر .

ولقد أجاب علي هذه المواقف العويصة (ماينكى) Meinecke ويمكن اعتبار اجابته هذه حلا لها ، ودفاعا عن ماكيافللى . وقد وردت هذه الاجابات ، فى مقالة (ماينكه) عن (فكرة حق الدولة) Die Idee Staatraison . وهذه المقالة قد ازدحمت بطابور نظيم من الحجج لبعض الثقاة من أصحاب الشهرة المدوية . وهؤلاء يرفضون الملامح الفظة لمذهب ماكيافللى ، بينما يسلمون بأن الأخلاق العامة غير الأخلاق الفردية ، والاثنان ليسا بالشىء الواحد عندهم . فلماذا ؟ والجواب : لا مفر للحاكم ، حين يواجه (طوارىء عليا) ، من

أن يلجأ وهو بين مطرقتها وسندانها ، الى المناهج والطـــرق والحلول (الاستثنائية) . وعلى جناحى هـــذه الحقيقة ، يكون ماكيافللى قـــد قدم لنا ، **بفصله بين الأخلاق والسياسة ، الدواء الناجع والمؤثر والفعال** لذلك ، على الرغم من أن هذا الدواء لا يفيد ولا يشفى أحيانا كثيرة ، لو استخدم استخدامنا للخبز والماء فى حياتنا اليومية ، وكما سبق القول .

ذهب (ماينكى) الى أن (حق الدولة) **raison d'état** هو هذا (الآمر) الذى يملى على الحاكم فى هذا الموقف وأمثاله ، ما ينبغى أن يقوم به ، لكى يحافظ على الدولة ومصلحتها سليمة وقوية .فالسعى وراء القوة أو وراء التملك غرائز أولية ، والأحرى أن نقول انها غرائز حيوانية. وهى قوية فى الفرد ، وقوية فى الجماعة . ولكنها تتتجاوز عند الانسان دائرة حاجاته المادية .لأن دائرة الأفق تتسع كلما ارتفع الانسان وهو يتدرج الى أعلى سلم الكائنات .هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى ، فان الانسان كلما صعد على سلم الحضارة ، ونظم حيـــاته الاجتماعية ، يصبح من واجبه أن يحسب حسابا للأخلاق ، وأن يحسب حسابا للقانون ، ولكنه يجـــد بين (السلطة) **Kratos** وبين (الأخـــلاق) **Ethos** ، قنطـــرة هــــى (حـــق الـــدولة) أى (حاجـــاتها) . وهذه القنطرة تجمع بين (الواقعى) و (المثالى) ، وبين (الغريزى) و (العقلى) ، وبين (الطبيعى) و (الروحى) ، بيد أن الهدف فى النهاية (أخلاقى) ،وهو صلاح الدولة وبقاؤها وسعادتها ،بينما وسائل الوصول الى هذا الهدف وتحقيقه كثيرا ما تكون وســائل بدائية وحشية ، فتتأرجح طاعة الحاكم لـ (حق الدولة) بين الظلام والنور ، بينما هو بطمـوحه ومطامعه مشدود دائما شدا محكما بظروف المحكومين ، وغالبا مايـكون هو نفسه قد أعد حساباته من حيث تدعيم ذاته بالقوة والنفوذ . وهكذا نجد هوة اختلاف سحيقة عميقة بين الدولة وبين جميع أنظمتها الأخرى قاطبة . وفى الوقت نفسه نجد أن هذه النظم بدورها تنحو عادة نحو قيم سامية تلتزم الدولة بالعمل بها ، لكنها تضـــطر فى بعض الظروف ، الى حلول لا مفر لها من أن تقوم بهـــا فى بعض المواقف ، تصنع من مادة الخطأ .وهـذا الموقف فى حقيقته يشكل وجها من أوجـــه التاريخ أو أوجه السياسة ، الشديد القبح والمثير للأسى والمرارة ، ويجعل (تخليق)

moralisation تخليقا كليـــا شاملا خالصـــا نقيا ، ضـربا من ضروب المستحيل ، وتجعل أيضا التزام الدولة بالعمـل دائما طبقا للقانون الذى ترعاه هى،وتحرسه وتطبقه هى ، وتنفذه هى، أمرا عسيرا غير ممكن . اذن فما أشبه الدولة فى هذا المقام بالحيوانات البرمائية . فهذه الحيوانات تعيش على اليابس والبر من ناحية،ومن ناحية أخرى فى الماء والبحر.وكذا الدولة نجدها تحيا فى وقت واحد فى عالم(الطبيعة) وفى عالم(الأخلاق). والصراع بين العـــالمين صراع أزلى أبدى ، ولا أدرى من (بفتح الميم وسكون النون) من هذين المتحاربين سيكتب له النصر ، ومتى يكـــون ذلك ، وأين مرسى ذلك ، ومتى يقع ذلك ويكون منتهاه ! فهذا علمه فحسب عند ربى فقط ، ومن ثم فليس لى أو لغيرى علم به بتاتا حتى أذكره !

★ ★ ★

وحين نشرف على ختام هذا الفصل ، لابد لنا من أن نقـوم بكرة سريعة لنوجز ما ســبق أن سردناه ونقول : ان ماكيافللى لم يأت بأفكاره على أجنحة عقله فحســـب وتفكيره الشخصى ، أو خيـــاله وتوهمه ، أو عواطفه ومزاجه ، أو انفلاتاته وشطحاته ، أو هواه وما سواه ، وانما رجع ماكيافللى الى التاريخ ، وهو السياسى الخبير،وهو الوطنى العظيم، وهو المؤرخ المدقق ، وهو الكاتب الأمين ، وهو الذى قصـــد « التاريخ العام وهو المحكمة العامة » ، واستقراه وأنطقه بتمحيص دقيـــق وعناية فائقة ، فى شتى أبعاده واغواره . ثم ســـجل أســـراره وحقائقه على شاشة الفكر العلمى عارية بلا دثار أو ازار ، أو على الأقل بورقة التوت كستار . فصورها لنا بريشته البـــارعة كما هى تماما دون (ماكياج) أو (رتوش) ، بعدما لمس حقيقة ما شاهده فى متحف التاريخ برمته ، ووجده لم يعط أبدا حـــق الحيـــاة والوجود ، « الا للحيـــاة » « القـــوية الكامـــلة ، المســـتيقنة من ذاتهـــا ، وضـــحى » « دائما بالحقيقة والعدالة ، من أجل القوة والجنس ، وقضى بالاعدام » « على هؤلاء الذين جعلوا الحقائق فوق الأفعال،والعدالة فوق القوة.»*

---

* الدكتور عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر ، قوى التاريخ .

وهذا هو ماكان عند تلاميذه من (الأنبياء غير العزل) منذ بدأت السياسة، وهذا ماسوف نراه عندالساسة من مريدىماكيافللى وتلاميذهحتىالآن٠اذن لم يكن أمام ماكيافللى ، وهو يكشف الغطاء عن تاريخالبشر بحذافيره ،ويميط اللثام عن فن السياسة فى حقيقته كما مارسه فى الواقع (الحيوان السياسى بطبعه) ، سوى أن يكون شاهدا أمينا على هذه الممارسة ٠ الا أن ماكيافللى لم يقف عند هذا الحد ، وانما جعل من نفسه ناصحا وداعية للانسان الى أن يثق فى ذاته ونفسه ، فيعطى القيم البشرية مكان الصدارة بين شتى القيم ، بعد تخليصها وتنقيتها من شوائب أفكار العصور الوسطى ، كفكرة القدر مثلا ، وأن يجتذب الانسان للسياسة استقلالها من تلابيب الأخلاق الفردية ، وأن يفصل التدبير السياسى فصلا كاملا عن جميع التدابير الأخرى ٠ وعلى ذلك برز ماكيافللى بصورة فذة ، بين أساطين الفكر ورواده الأوائل فى عصر النهضة ، وهو لا يؤمن بهذا (الخير الأسمى) أو (الفردوس) الأعلى ، الا فى صورة (دولة ذات سيادة) يلعب فيها الدين دوره ، اذ هو الذى يأتى بالقوانين الصالحة ٠ وهذه القوانين هى التى تأتى بالحظ السعيد ٠ والحظ السعيد هو عله النجاح فى جميع الأعمال ٠ فالدين عنده هو الذى يحفظ قيادات الجيوش من الفساد لتظل صالحة ، ويوحد بين أبناء الشعب الواحد* ٠

وهكذا كان ماكيافللى ابن (عصر النهضة) البار ، وذلك فى دعوته الى تحرير الانسان اله الأرض من كل قيد كبله به الشياطين لمصلحة أنفسهم ٠ لقد كان ابنا بارا لهذا العصر ، فى كلبيته **الهادئة ، وفى نزعته العملية ، وفى ذريعته الواقعية ٠ وهنا نتساءل :** أليست هذه الخواص بدورها خصائصالتفكير الحديثالى حد كبير؟ أليس ماكيافللى هو الذى قضى على الأفكار الكاثوليكية السياسية ؟ بلى ٠ فهو الذى أعلن أن للدولة هوية طبيعية ٠ وهذه الهوية تظهر وتوجد بين مجموعة من القوى الطبيعية الأخرى ٠ ولابد لرجل الحكم أن يحيط علما بها ، ويعمل لها الحساب الدقيق،وذلك فى الصراع العنيف فى عالم السياسة ٠ وأليست هذه الأفكار الأولى التى أرساها

---

* انظر صفحتى ٦٥ ، ٦٦ ٠

ماكيافللى هى الدعامة الأولى التى يقيم عليها قـادة الفـكر السياسى الحديث فلسفاتهم السياسية ؟ قد يكون ثمة اختلاف كبير بين ماكيافللى وبين بعض هؤلاء الذين جعلوا العامل الاقتصـادى أول العوامل تأثيرا وسيطرة فى الأزمات الاقتصـادية والاجتماعية والفـكرية . ولـكن (ابن فلورنسا) وهؤلاء ، على اتفاق فى تفسير الدولة تفسيرا بشريا ، وفى قياس الأحداث وتقييمها بمقاييس بشرية . أليسـت هذه من أولى الأفكار التى يجب ألا تغيب أو تفوت على رجل السياسة فى مواقف شتى فى حومة السياسة ؟

ومن ناحية أخرى ، كان ماكيافللى (الوطنى العظيم) ، قد هام بفكرة (السيادة) ، وفكرة (القومية) ، ورفض المعنى الاقطاعى لهمـا ، وأسـكن فى مكانهما سـلطة مركزية قـوية ذات سـيادة . أليست هذه بمثابة قطب الرحى فى تفكير المفكرين المحدثين ؟ فهـذا (بودان) Bodin ، وكذلك (هوبز) Hobbes ، يكرسان تفكيرهما من أجل تعريف السيادة . وهذا بالمثل أيضا (لوك) وغيره يهتمون أيما اهتمام بالمشاكل التى يثيرها هـذا التعريف . ولمـاذا ؟ لأن (السيادة) هى المشكلة الأولى بين مشاكل العصر الحديث . وهكذا تبرز أمامنا صـلات قوية واضحة بين ماكيافللى والقرن العشرين .

وفضلا عن ذلك ، فلم يكن هناك ، من سـبق ماكيافللى فى تقنين (القوة) وتقديرها وبيان فاعليتها وتأثيرها فى التـدبير السياسى ، حتى لقب (بأبى القوة) ، وحتى قيل ان ماكيافللى وقف من (القوة) موقف (هارفى) Harvey فى (الكهرباء) ، فكلاهما أخضع للبحث العلمى الدقيق ما اعترف بوجوده .

هذا ، ومنذ ما يزيد على المائة عام ، نجـد اللورد (جراى) Lord Grey ، وهو أسطين من أساطين السياسة الانجليزية ، وكان من أشدهم اصرارا على التمسك بالأخـلاق يقـول : (ان سياسات الدول الكبرى مستيحل أن تسـير وفقا لقواعد الأخلاق) . وروى عن (السير ونستون تشرشل) Sir Winston Churchil ، حين قرأ الكلمات المحفورة على

قبر تقول : « هنا يرقد السياسى العظيم والرجل الصـــادق » ، أسـرع ليقول فى دهشة : « هـــذه أول مـــرة أرى رجلين مدفونين فى تابوت واحدا ! » • ان (المراكز الموجهة (بكسر الجيم) للجماعة) ، مضطرة رضيت أم أبت ، الى أن تتحرك بشرط أن تكون بوصلتها (بضم الباء) ونجمها الهادى (النظرة الواقعية) ، وفقا لما رأى مكيافللى فى بطون التاريخ وأحشائه • فالشر خالد • والشر لا يقضى عليه بغير الشر ، ولا مانع من أن يكون (الشر المضاد) أقل الشرين • وهذا هو الفن الماكيافللى الأصيل • فكم من رئيس أو حاكم ، حين تؤدى به سقطة فى حياته قد تأكد له أن سر فشله وسقطته نســـيانه أو تناسيه أو اغفاله ، أو أنه لم يعمل حسابا لحد هام خطير من حدود المعادلة السياسية ، ألا وهو حد (الوقائع) العديدة التى تحرك الصراع البشرى والسياسى ، سواء سلكيا أو لاسلكيا ، ان صح هذا التعبير ، أى فى ظاهر هذا الصراع أو خفاياه ، وهنا يعذر العذر كله لمكيافللى وتلاميـــذه الذين يتشبثون بأفكار (ابن فلورنسا) ويتخذونها وقاية لهم وعلاجا ، حتى يكونوا أكـــثر استعدادا لمنازلة من من يتصـــدى لهم ، فلا تضيع منهم فرصـــة لا يســـتغلونها حتى ولو كانت وسيلة قذره مرة المذاق ولكنها تحقق لهم الانتصار على مطامع متآمر ، أو حليف ماكر ، أو عدو خفى ، أو خصم مبين • ان ماكيافللى قد اشفق على رئيس الدولة أو الحاكم ، فنصحه بأن يكون قويا بتبصر ، حتى ولو كانت الوسيلة ماكرة ولكنها حلوة المذاق كقطرة عسل تصيد ذبابا أكثر مما تصيده مبادىء دستور الأخلاق لو طبقها • و (ابن فلورنسا) يحذر الرؤساء والحكام من (التردد) على الرغم من أنه قد يكون أفضل فى مواقف عصيبة تعن وتستجد بالنسبة للرؤساء والحكام • وعلى كل حـــال ، فان وضع الأحداث هـــو الذى يهيىء للحـــكام والرؤساء الامكانيات التى يمكنهم الاستفادة منها ، عن طريق أسلوبهم ، وذلك ليصلوا الى الغايات المنشودة •

والآن لم يعد يبقى سوى أن نفسح المجال لكى نتوج أقوالنا بحديث المؤرخ الكبير (ماكوولى) ليقول قوله فى ماكيافللى ، وليكون قوله هذا القول الفصل • وهذا المؤرخ (ماكوولى) بدوره يقــول فيه (صمويل

سمايلز) Samuel Smiles في كتابه (الرجال الذين لا يمكن شراؤهم)*
(كان قبل كل شيء نزيها) ، و (هو الذى لم يستطع أحد أن يشترى)
(ضميره،مهمابلغ الثمن)، على حد قول (سدنى سميث)، فلا الألقاب،)
(ولا النياشين ، كان لها البتة تأثير عليه) . (وهو الذى لا يرقى اليه)
(فساد.(وكان يحب بلاده حبا صادقا أمينا ، صحيحا أصيلا.فلم تستطع)
(الدنيا أن ترشوه حتى يهمل مصالح وطنه !) .

وماذا عسى أن يحدثنا به (ماكوولى) هـــذا عن ماكيافللى ؟
والجواب : لقد قدر (ماكوولى) ماكيافللى فقال فيه : انه (أول مشرع)
(واع يبرز قوى حية معينة فى العالم الحاضر . ولم ينقص من سلطانه)
(الدين ، أو التنوير التقدمى ، أو يقظة الرأى العام الدائمة . فالقضايا)
(التى لا تزال سائدة ، والمذاهب التى تظهـــر فى السياسة ، وفى)
(الفلسفة ، وفى العلم ، انما هى تجدد سلطانه) .

---

* Samuel Smiles : Men who cannot be bought

الفصـــل الخامس

« الأخـلاق تكفى نفسها بنفسها »

وفى القرن الثامن عشر ، وسط عواصف الشك ، وأعاصير النقد ، قد يهتز الايمان بالأصول والمبادىء · ولكن عناية الله كانت قد قيضت للفكر والايمان والأخلاق والانسان ، حكيما من أكبر الفلاسفة المحدثين ، وقمة من أعلى قمم التنوير ، ومفكرا من أوفر المفكرين حظا فى حرية الرأى ونزاهته ، ومواطنا من أكثر مواطنى مدينته (كونجزبرج) Konigsberg ممارسة للنظام ، مما جعل الشاعر الألمانى) هينرش هاينى Heinrich Heine يصور لنا هذه الحقيقة قائلا : « لست أظن « أن الساعة الضخمة فى أعلى برج الكاتدرائية ، كانت تؤدى عملها » « اليومى بشكل أدق وأكثر نظاما من مواطنها (عمناويل كانت) » Emanuel Kant · لقد كان جيرانه يعرفون أن الساعة قاربت منتصف الرابعة ، وهو يغادر داره ، وعصاه فى يده ، مرتديا معطفه الرمادى متجها الى (نزهة الزيزفون) (١) ، الذى أصبح فيما بعد يعرف باسم (كانت) ، أو باسم (نزهة الفيلسوف) ، وذلك تكريما لشخصه وتخليدا لذكراه(١)· ويعزو البعض شهرته بالنظام وممارسته له ، الى اعجابه بالرومان فى مراعاتهم للنظام والتزامهم بالواجب ، فالنظام جزء لا يتجزأ من التقدم ·

ومما لا شك فيه ، وكما سنرى فيما بعد ، أن نجد بين من تحدثوا فى الأخلاق على مستوى فكرى عال وعميق ، من يفوق (كانت) أو يعادله

فى كتاباته الأخلاقية . فهو الذى عــرف أن خـــير ما يجب أن نطبعه فى عقل الانسان ، وما ينبغى أن ندمغ به شـــغاف قلبـه وارادته ، هو الأخلاق . وكم كان (كانت) أخلاقيا فى شخصه وســلوكه ، ومريدا من مريديها بالفعـــل ، حتى وهو لا يتحـــدث عنها مباشرة . وظل كذلك وهو يعالج مشاكل الانسان والانسانية ، والسياسة ، والنظام الجمهورى والنظام الملكى الدستورى ، والسلام العالمى ، ونبذ الحروب ! وماذا كان يرجو ويأمل ؟ انها الأخلاق يريد أن يجعلها أظهر حاجة للانســـان من أجل كماله البشرى . وثمة حقيقة كبرى لابد من أن نقتنع بها ، ألا وهى: أننا لو انتزعنا الايثار بمختلف عواطفه السمحة الخيرة من حياتنا نحن البشر لغابت عنا الأخلاق ، فهى التى ترشـــد الحكام والمحكومين على السواء ، رغم أن الأخلاق (لا تحكم) ، وانما هى السياسة وحدها التى تحكم وتدير . بيد أن الأخلاق هى التى تزود الحكام بشـتى المبـادىء والعقائد والمذاهب ، التى يمـــكن أن يستخدموها فى تنظيم العـــلاقات بين الناس من أجل سعادة مجتمع سـليم كـريم ، ليحقق ذلك للجميع طاعة القانون والحرية والرضا . وجميع هـــذه الأمور تشـكل حاجات أخـلاقية للأفراد والجماعات ، وفى الوقت نفســه تحـــدد ســمات الدولة التى تتمشى مع كرامة الانسان وعزة المواطنين . انه (كانت) الذى لم يمل أبدا من الاشادة بالأخلاق وجدواها ،من أجل كمال الانسان فى شتى مساعيه فى الحياة .

فهو الذى اعتبر الأخلاق خير ذخيرة وافية للانسان « تكفى نفسها بنفسها(٢) » و « تقود حتما الى الدين »(٣) ، والدين بدوره « يقوم فى معرفة كل واجباتنا من حيث هى أوامر الهية »(٤) ، وهو « الايمان الذى يجعل الجوهرى فى كل عبادة الله يقوم فى أخلاقية الانسان»(٥) ، وقد « قهر الانسان نفسه ، ونظم سلوكه وأحكمه ، لا بقصـــد فائدة » ، وانما طاعة للقانون الأخلاقى . هذا ، ويقول (كانت) ان « اللـــه هو الحاكم الأخلاقى فى العالم » ، والشعب ليس « سوى شعب الله الخاضع للفضيلة » ، مما جعل الباحثين فى (كانت) يعتبرون الدين نفسه عنده هو « دين أخلاقى » (٦) . ولا غرابة ، اذ أن (كانت) هو صاحب

العبارة المعروفة التى تقول : « شيئان يملأنى اعجابا ، السماء ذات النجوم فوق رأسى ، والقانون الأخلاقى فى نفسى » .

وهذه العبارة هى التى نقشها أهل مدينته على قبره ، يوم خرجوا يحملون نعشه الى مقره الأخير ، وأعلنوا الحداد العام يوم وفاته . فهو صاحب عبقرية حتمت على المؤرخين أن يجعلوا صاحبها حدا من حدود تأريخ (بفتح التاء وسكون الهمزة) الفكر العالمى الحديث،عندما اصطلحوا على تقسيم التاريخ الفكرى الى فترتين الأولى (ماقبل كانت) ، والأخرى (مابعد كانت) . وهو الذى عاش موسوما بالشرف والاستقامة والنزاهة ، وكان يحلو له دائما أن يردد قول (جوفينال Juvenal : « ليس أشد على النفس ، من أن تطأطىء رأسها للعار والخزى ، وأن يدفعها حب التمسك بالحياة ، الى فقدان أسباب الحياة » . وكانت نفسه الكبيرة تفيض شفقة وألما ، وهو يرى العبيد فى بعض نواحى بروسيا . وعلى كل حال ، فقد كان من بين الذين بادروا بالغاء الرق فى شرق بروسيا جوقة من تلاميذه القدامى(٧). ولا عجب ، فلابد أن كان أساتذهم قد حدثهم على أن «الانسانقيمة وغاية، وينبغى أن يعيش ويحيا حياته ، باعتباره حيا صاحب حياة ، وسيد نفسه » فهو « الناطق باسم القانون الأخلاقى »(٨) .

★ ★ ★

وكأن (كانت) كان على موعد مع القدر ، عندما خصه فى طفولته بأمه هذه.فلقدكانت له بالفعلأفضل حرفاستقر فى قلبه جاء خيرا من ألف حرف فى الكتب . فهى التى بثت فى نفسه معانى الجمال فى الكون ، ومعانى الجمال فى الطبيعة ، وذلك فى السنوات الثلاث عشرة الأولى من عمره وحتى وفاتها . وأنى (بفتح النون وتشديدها) كان يمكن أن يستقر فى قلب الطفل (كانت) حرف خير من أمه ، ومبادىء نظام التعليم فى بروسيا فى هذه الفترة آسنة فاسدة ، بعيدة كل البعد عن فن التربية ، وهذا هو الفن الذى « لا يصير الانسان انسانا (حقا) الا به »(٨) ، اذ « الانسان هو ما تصنع منه التربية »(٩) ؟ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان النظام البروسى بعيدا عن التهذيب أيضا ، والتهذيب هو

« السعى الى منع الحيوانية من أن تكون خسارة للانسانية ، ســـواء فى الانسان المفرد ، أو فى الانسان الاجتماعى ، وهو « لا يقوم الا فى كبح التوحش »(١٠) ٠

ويطلعنا الكثير ، على غثاثة نظام التعليم البروسى فى القرن الثامن عشر ٠ فأولا يحدثنا (فردريش ديتس) Fr. Dittes فى مؤلفه فى هذا الموضوع (١٨٧١) قائلا : « فى كل مكان تقـــريبا كان المعلمون يعينون من بين الخدم ، والصناع الفاسدين ، والجنود المسرحين ، والطـــلاب المنحلين ، وبالجملة من بين أناس أخلاقهم مشبوهة ، وتربيتهم مشكوك فيها ٠٠٠ وسلطتهم هزيلة ٠٠٠ وفى كثير من البلاد كان معظم الأطفال، خصوصا البنات ، لا يتلقون أى تعليم »(١١) ٠ ولئن كان هذا النظام قد شهد أفذاذا مثل (لسنج) Lessing و (رابنر) Rabener و (جللرت) Gellert ، الا أن نبوغهم لا يمكن أن نرده الى هذا النظام فقط الا فى قليل جدا ، اذ الثابت أن نبوغهم هذا يعزى الى ما كانوا يقومون به من قراءة حرة واطلاع خارج قاعات الدراسة ٠ وهذا هو تعليل (أ٠بنلوش) A. Pinloch ، وهو تعليـــل مقنـــع ٠ اذ أن هنـــاك شـــاهدا من ذاك العصر يقول فى هذا الشأن : « ان المعلمين أنفســـهم كانوا لا يعرفون كيف يعلمون (بضم الياء وتشديداللام وكسرها) : لقد كانوا مجرد مدربين لببغاوات يعلمون الأولاد أشياء لا يفهمها هؤلاء »(١٢)،وثانيا ، يجب أن نعلم أن (العلم والتربية) لم تكن غير أمور ثانوية قليلة الأهمية ملحقة باللاهـــوت مضايفة له »(١٣) ٠ وثالثا ، « كان المعلمـــون سطحيين ، جهلاء لا يحسنون لغتهم القومية ، غير مندفعين فى الحضور ، لا يراعون الضمير، ولا يحضرون الدروس (بتشديد الضاد وكسرها)، ولا يصححون الواجبات »(١٤) ٠ ورابعا ، فقد أخذ على المعلمين وقتذاك « افتقارهم الى الضـــمير ، والمهابة ، وكراهيتهم لكل محاولة للاصلاح » ، على حد قـــول (مللر) Miller ٠ وهو يعلل ذلك « بقلة اعتبـــار المعلمين ، وانعدام المراقبة على المدارس » ٠ وخامسا ، فقد نادى (كانت) نفســه باصـــلاح ذلك قائلا : « ان معاهد التعليم والتربية معظمها ردىء ٠٠٠» « ولابد من اعادة تشكيل المدارس من جديد ، ان شئنا أن نؤمل فى » « أن يخرج فيها شىء حسن ٠ فالمعلمون أنفسهم فى حاجة الى تلقى »

« ثقافة جديدة »(١٥) . ولذلك وغير ذلك ، غدت المدارس فى ظل هذا النظام « المؤسسات المضحكة » التى نادى (روسو) نفسه بالغائها ، وخصوصا وأنها أصبحت فى الواقع ساحة « للمشاجرات بين المعلمين » انفسهم،وبلغ ضعف التلاميذ مبلغا سيئا للغاية،حتى جار رجال الجامعات بمر الشكوى من هذا الضعف المخزى والمزدرى . ومثال ذلك شكوى جامعة يينا Jenna للحاكم نفسه . فكان من الطبيعى ، وعلى حد قول وكيل لمدرسة ثانوية وقتذاك،أن أصبح التلاميذ «ثيرانا ، وغوغاء ،وأبناء « شياطين ، ووحوشا ، وجواميس ، وأفظاظا ، وأفاع(١٦) ، » « وأوغلوا فى الفساد ، من سكر (بضم السين وسكون الكاف) ، وعربدة» « وصخب فى الليل ، واثارة الشغب فى الكنيسة أثناء الشعائر الدينية،» « والتشاجر فى الشوارع ، والساحات العامة . وكان هؤلاء يحملون » « سيوفا على جوانبهم » .

ومن هنا كثرت بينهم «المبارزات بالسيوف »(١٧) . فلم يكن أمام بروسيا سوى أن تتصدى لهذه الطامة القومية الكبرى الخطيرة، كيلا تخسر نفسها ، وحتى تحمى نفسها من غوائل كثيرة ، وتتيح لنفسها توفير متطلبات فوزها بصولجان المجد والرفعة . فشرعت دون تأجيل أو تسويف أو ابطاء ، تمشى أولى الخطوات التى لا مناص منها نحو التقدم ، ألا وهى خطوة اصلاح نظام التعليم ، وفتح شتى النوافذ والمسالك لنشر العلم،مما ترتب عليه احتلالها قمما رفيعة عزيزة بين دول أوروبا ، فى الثقافة والموسيقى . وكان رفع مستوى المعلم علميا ثقافيا وماديا وكرامته واعتباره ، ليصبح بالفعل القدوة الصالحة والأسوة الحسنة،حجر الزاوية فى هذا الاصلاح للتعليم ونشر العلم.ومنصور هذا الاصلاح كان وضع التعليم العام على أسس صحيحة مفيدة ، .والاكثار من عدد الجامعات وشغلها بكبار الأساتذة النابهين ، والبحوث والرسالات والدراسات العلمية المتخصصة ، وفتح جميع الأبواب على مصاريعها للقراءة للجميع لتكون على مستوى ما عرف به الألمانى من تفوقه المتميز فى كثرة الاطلاع وجديته ، والاكثار من عدد المدارس.ففى عام١٧٥٠ قاموا باعداد المعلم فانشأوا مدرسة المعلمين فى برلين . وفى عام ١٧٥٢ منعوا تعيين معلمين من بين الجنود والمشوهين فى الحروب كتعويض لهم .

وفى عام ١٧٦٣ أصدروا (لائحة هيكر) للتعليم الاجبارى .... الخ .
وكان من أهم ما ترتب على هـــذا الاصلاح للتعليم ونشر العـــلم ، قوة الاقتصاد عندهم ، فلم يعد لاقتصادهم ند فى قـــوته فى شـــتى أنحاء أوروبا . فالمال ، كما حدثنا (كانت) « هو أقوى ما تملكه الدولة من » وســائل العمل » . فهو ضرورة وأىضرورة تأتى فى طليعة عوامل القوة المتعددة بالنســـبة لـــدولة من الدول فى معـــركتيها التقليديتين اللتين تتعاقبان فى حياة الدول تعاقب الليل والنهار ، وهما معركة الســــلام ومعركة الحرب ، والواحـــدة منهما مولجة فى الأخـــرى . فنجحوا فى اغتنام ما وسعهم من غنائم كبيرة وعديدة وضرورية ومفيدة فى معركة السلام ، بفضـــل هذا الاصلاح للتعليم ، وذاك النشر للعلم . ومن الطبيعى أن كل ما تصيبه الدولة من قوة فى أى ناحيـــة من مرافقها لا مصير له سوى التجمع فى النهاية فى بؤرة استعداد الدولة للدفاع عن نفسها وصد العدوان عليها ، وهى تقف يقظة على أهبة هذا الاستعداد باســتمرار ، اذا لزمت الحرب كضرورة ذات جدوى . فالقوة مطلب سياسى له وجوه عديدة . وكل وجه منها لابد ان يكون بدوره قويا ، فالمدخـــل الوأســع والعريض ، والذى لا ينتهى ويؤدى حتما ومباشرة الى شتى أوجه القوة لأى دولة،هو قوة العلم وصلاحية التعليم. اذ «ليس ثمة قانون أو شرعة أعظم من المعرفة شأنا » ، و « الجهل خراب الدول » . ان انتشار العلم، والصحة العملية المتوخاة من التعليم ، تتم على متن نجاح المعـلم بمختلف مستوياته فى رسالته ، وهى صناعة الأجيال أخطر الصناعات ، ومن ثم كانت هذه الصناعة أو الرسالة قوة سياسة ضخمة ضاربة . ولكن كم هى صعبة وشاقة ، ولا نظير لها فى ذلك سوى فن السياسة نفسه وأساليب حكم الناس . وموجز القول ، (فالعلم والمال) معا هما الأس والأساس لبناء الدول ، ومن المستحيل أن يكون هذا الأس أو ذاك الأساس ، هو (الجهل والاقلال) ، أو واحد منهما .

ان القوة ، بايجاز مقتضب ، هى ماهية الدولة ، بكل مافى هذه العبارة من معنى . فاذا دخلنا معبـــد التاريخ المقدس ، والأقـــدام منا حافية ، وندنو منه بينما هو يدنى مجلسنا ، ونجلس معه فى خشـــوع ووقار ، وقد أصبح هو نفســـه كاهنا تطهر وارتدى أرديته البيضاء ،

ليسمعنا ما هى حقيقة القوة منذ بدأ (الحيوان السياسى) أى الانسان ، سياسة كل أمس وهى تاريخ كل غد ، وباعتبار التاريخ كبير معلمى البشر الخالد ، وخير الرواة الأمناء الصادقين له ، والاسطين العملاق الخبير بطبيعة هذا (الحيوان السياسى.) ، فلن يقول لنا ولو بصـوت خافت وعاتب وحيى ، على الرغم من صوته الجهورى الذى فى مقدوره أن يسمع العـالم بأسره ، : « يا قوم ألم تقرأوا على باب معبدى هذا لافتة تقول للبشر عامة : « ويل للضعيف ؟ » • يا قوم ان طبيعة البشر لاتزال فجة غريرة منصرفة عن (الايثار) ، وتؤدى التحيـة فى كـل حين للقوة فقط ، ومن ثم فاننى أتلظى بنيران تعسف الانسان ، ولا أقوى الا على الاذعان لطبيعته التى مازالت معتلة فأطيعه فيما أمـرنى به ، فلا أفتح صفحة فى سفرى (بكسر السين) المقدس ، أو أقلد قـلادة من قلاداتى الخالدة ، الا للدولة التى تملأ مكانتها اليوم بالقوة التى تحمى أجيالها الحاضرة، وغدا ، وبعد غد ، وبطبيعة الحال ، فهذه الدولة نفسها هى التى ستظل تحمى أجيالها المقبلة بهذه القوة نفسها ، اذ هى التى ستصبح الوصية على هذه الأجيال التى لم تر النور بعد •

اذن ، فكم أصابت بروسيا وقد استحثت أولى الخطا للسير على درب الرفعة والمجد بالتصدى بقوة وجدية لهذه الطامة القومية الكبرى ، وهى اصلاح نظام التعليم ونشر العلم فيها • أليس التعليم والعلم معا هما وضع حـد لفترة تأخر وبداية فترة تحضر ؟ وأليس من شمائلهما الطيبة أنهما يوافيانا بالجميل من الزهر والحلو من الثمر ؟ بلى • ان التعليم بحق هو أهم فصول رواية تقدم الدولة • ومعركته غير المحدودة من أقدس المعارك ، والانتصار فيها لو قورن بالانتصار فى مختلف المعارك الأخرى للدولة من شأنه أن يبين فى الحال للرائى قوة دفع التعليم الضخمة الشاملة لمختلف القوى والقدرات والامكانيات الأخـرى فى دولة أو أمة ، ويبقى عليهـا فتية لا تشيب ، وقوية لا تنعدم ولا تغيب • فيغدو الفرد فى الدولة والمجتمع شبيها أو ندا أو مثيلا للنحلة ، وهى فى صميمها ليست بحشرة صغيرة حقيرة ، وانما هى معلم صالح وقدوة صالحة وأسوة حسنة لمن يبصر أو يتبصر • فهى دبيب لا يكل ولا يمل من الحركة والنشاط ، تجمع أفضل ما فى مملكة النبات من رحيق زهر أو نوار ، ثم تقدمه مرة أخرى الى أندادها ،

أو أفراد البشر عامة ، طعاما وغذاء أو دواء . وهكذا تقضى حياتها ترف لكى تؤدى واجبها الذى خلقت من أجله وأنيط بها ، مع حرصها الشديد من أن تمسها قذارة أو نجاسة . وان مسها من هذه أو تلك ولو فتيل نحيل ، فانها تقضى على نفسها بنفسها فى التو واللحظة ودون مماحكة ، باللاعودة الى الخلية ، فهى كنها ووطنها الذى يجب أن يظل نظيفا كريما .

وطالما أن المعروف أننا من على ضفاف النيل الخالد قد علمنا العالم وهو لا يزال يحبو (حضارة المحراث) أى (حضارة الثورة الخضراء) ، فيمكن لنا أن نقول بلغة هذه الحضارة ان التعليم هو فلاحة المجتمع ، وشأنه فى ذلك شأن فلاحة الأرض والنبات ، فهو الذى يجعل تربة المجتمع بيئة ثقافية حضارية منيرة ومستنيرة ، فتصبح خير مشتهى عند الحاكم والمحكوم على السواء ، مما ييسر المواءمة بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة ، ويكفل للأفراد والجماعات على اختلافهم طاعة القانون ، ومراعاة الآداب العامة والخلق الكريم . أليس المعلم الصالح ، وهو القدوة الصالحة والأسوة الحسنة ، هو المضغة فى جسم الأمة أو الدولة ، والمضغة هى القلب ، وهذه المضغة هى التى اذا صلحت صلح الجسم ، واذا فسدت فسد الجسم برمته ؟

★ ★ ★

أدركت بروسيا أهمية هذه المتطلبات وجدواها ذات النطاق الواسع ، فوفرتها لنفسها وحققتها على ضفاف مجرى حياتها . وتبعا لذلك أخذت تباعا تقطف من قطوفها الدانية وقد أصبحت بين يديها وفى متناولها بيسر ، بعدما قطعت رحلة الألف ميل بالخطوة الأولى وهى اصلاح التعليم ونشر العلم حسب ما سبق من قولنا . وكان من أهم ما ترتب على ذلك وأخطره وأخصبه تواجد الاقتصاد القومى القوى ، والجيش المدرب والمدجج والعرمرم ، والذى قادته عبقريات عسكرية بروسية من أمثال (مولتكى) MoltKe ، فى ظل قيادة سياسية فذة عقدت لمارد دبلوماسى كان فنانا سياسيا أبدع أفانين السياسة ، وأجاد أساليب الدهاء ، وبرع فى صنع شباك (بكسر الشين) الأحلاف ، وبز تماما كل نظير له فى انتحال أدق الذرائع لتبرير حروبه . فكان رجل دولة أبرز الكثير من حذقه فى ارتداء أردية السياسة القذرة من أجل بلاده . وقد صرح

ذات يوم بذلك على مسمع من (ترايتشكى) وهو معه قائلا له : « يجب أن نعترف بأن ملابسنا لم تكن على الدوام أنظف الملابس ! »٠ ومن عساه أن يكون هذا المارد القائد أو القائد المارد ؟ انه (بسمارك) وكفى ٠ وانها الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ التى خاضها من أجل الامبراطورية الألمانية ، والوحدة الألمانية ، هى التى أظهرتنا بوضوح ـ دون زخرف من زخارف السياسة التى تفـــوق ألوان الفسيفساء أو زخـارف الزجاج الملون ، أو ألوان ذيل الطاووس التى يســـحر بها أنثاه ـ على ما كان الألمان قد حققوه بالفعل بفضل المعـــلم الصالح والقـــدوة الصـالحة ، وما أدركه العلم والعلماء والمعلم حينذاك ، من تقدير وتشجيع ، حتى أصبح المعلم والعلم عندهم بالفعل واسطة عقـــد التقـــدم والنصـر على صدر المانيا ، فلم يعد المعلم مجرد رائد معركة التنوير والاستنارة وكفى ، وانما أصبح أيضا السر الدفين والخطير للانتصار فى الحروب واحـراز النصر فى المعارك !

وهذه هى الحقيقة التى كشف لنا عنها وللعالم فى نهاية هـــذه الحرب التى انتصرت فيها ألمانيا على فرنسا ، أسطين من أكبر أساطين العسكريةالألمانية حين سمع القائد الفرنسى المهزوم يقول، وهو يقف بجانب القائد الألمانى ، ويمر أمامهما الجيش الألمـــانى وهالات النصر تتوج هامات أفراده : «حقا،لقد هزم الجيش الألمانى الجيش الفرنسى!»٠ولكن ما طرقت كلمات القائد الفرنسى مسامع هذا الأسطين العسكرى الألمانى ، الا وانطلق كمـــدفع من مدافع (مولتكى) التى ذاع صيتها فى الأوساط العسكرية الأوروبية حينذاك يقول : « لم يهزم الجيش الألمانى الجيش » « الفرنسى وانما المعلم الألمانى هو الذى هزم المعلم الفرنسى » ٠ فكان هذا الأسطين تبعا لمأثورته هـــذه ، خير من أنبأنا بهـــذا السر الخطير ، فغدا (جهيزة) التى قطعت قول كل خطيب ، و (جهينة) التى عنـدها النبأ اليقين!ولا غرابة،فماأعظم شأنالتعليموانتشارالعلمفىبناء عظمةالأمم، فهما الطاقة التى تقوى الدول وتوطدها ، فلا تفتر دقيقة ، أو ثانية ، أو ثالثة ، عـن مـــلء مكانتها ، وشـــغلها بكـــل نفيس من نفائس المجد والرفعة ما أمكن ٠ وأقول ما أمكن ، لأن السياسة فن صعب الا أنها هى (فن الممكن) لافن المستحيل ٠

أجل ، العلم والمعـــلم والتعليم ، هى أكفأ الآليات لدولة لكى تملأ مكانتها ، وتدجج نفسها بأقوى الأسلحة المتعـــددة ، ومنها قوة جيش مظفر . وهذا ما ترتب عليه تقدم التعليم فى ألمانيـــا وانتشار العلم ، وســـبقها فى فـــروع الصناعات الكيماوية والصناعات الـــكهربية ، والتنظيم والتخطيط ،وزيادة كميات الفحم الحجرى فصارت أضـــعاف ما كانت عليه . كما زادت كميات الحـــديد المستخرج من لوكسمبورج واللورين . وطورت منطقة وستفاليا لتضارع نظيرتها فى هذا الشأن فى انجلترا .وضاعفت انتاجها من الحديد والصلب .ونوعت حرف أبنائها ، ووسعت نطاق صناعاتها البحرية ، فأكثرت من عـــدد سفنها فى المحيط الهندى وموانى افريقيا . وازادت من حمولة الســفن التجارية عندها بين عامى ١٨٧٠ - ١٨٩٠ حتى صارت سبعة أمثال ما كانت عليـــه من قبل ... الخ . هذا ، وكان ذلك يتم بينما الموسيقى الألمانية تشنف آذان هواتها ومحبيها فى أوروبا ، من خـــلال موسيقى (فاجنر) **Wagner** وكل(أوبرا) جاءت بها عبقريته الموسيقية فى احتفالات بيرويت **Bayreuth** الموسيقية . فموسيقى ألمانيا كانت قد عرفت كل مكان فى أوروبا ، وغدت أجور سماعها أرخص فى ألمانيا منها فى فرنسا ، وتملأ جو ألمانيا بصورة أوسع منها فى انجلترا . والحقيقة أن موسيقى ألمانيا أصبحت فى ألمانيا أشجى منها فى أى جهة أخرى ، ما خلا فيينا .

وعلى ذلك ، فلمـــا كانت الدولة ، باعتبارها « الشىء العظـــيم الأوحد»(١٨) ، الذى يشغل أعلى وظيفة اجتماعية « تمثل الفكرة العامة فى المجتمع(١٩)، وهى التى تقرر « بعض المبـــادىء العامة التى يسلم الناس بها كافة » ، و « نظام التعليم هو الذى يكفل الجزء الجوهرى فى الدولة الصالحة»(٢٠) ، ويسلم الناس جميعا به ، وخصوصا أنه«الوسيلة الايجابية التى يستطيع بها الحاكم تكييف الطبيعة البشرية على النحو «الكفيل بايجاد دولة متجانسة»(٢١) ، اذ هو « درب أعداد النشء على» « الولاء الروحى الشامل الذى يحق للدولة أن تتطلبه »(٢٢) ، وذلك «من أجل توفير أقصى قدر مستطاع من الوحدة داخل الدولة»(٢٣) ، هذا» « ومشكلة الدولة الفاضـــلة ومشكلة الرجل الفاضل ليســـا الا وجهين » « لموضوع واحد ، والاجابة عن أحدهما يجب أن تكون فى آن واحـــد »

« اجابة عن الآخر»(٢٤)،والدولة فى صميمها (منظمة تعليمية)* ، هذا من جهة ...

ومن جهة ثانية ، فلما كانت الشعوب فى جملتها معتلة ، والطبيعة البشرية معتلة ، وهذه الطبيعة « تتطور دون أن تتغير » ، وغرائز (الأثرة) أقوى من غرائز (الايثار) ، « والأثرة تشوه طبيعة أعظم الاستعدادات وتشل حركتها » ، بينما الايثار اذا توفر فى المجتمع ، يبنى بالطمأنينة والمودة والرضا والحب ، (بيوت الحياة السعيدة) ، كما أننا نجد أن « السعادة الوحيدة التى تتفق مع طبيعة الانسان توجد فى الاخلاص والحب »(٢٥) ، والفرد أو الجماعة عادة لا يسأم الواحد منهما من الحب ...

ومن جهة ثالثة ، فلما كان الذكاء لا غنى عنه فى حياة الفرد والجماعة ، من حيث ضرورته فى بناء الرجل الصالح والدولة الصالحة ... ولما كان ما يصنعه العقل المستنير بالعلم والمعلم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة ، من أقوى القوى السياسية فى مجتمع دولة أو أمة من الأمم ، « وذلك لقدرة الذكاء الواسعة فى حل مشاكل المجتمع ، بشرط أن « يصلح تعليمها ، وأن تستطيع فى يسر أن تتبين حل الصعوبات التى تعترضها وتواجه الشدائد عند قيامها »(٢٦) . هذا ، ولا يخفى أن « الذكاء (أداة عامة) يمتد استخدامها الى مالانهاية له »(٢٧) ، والتقدم العقلى أوسع نطاقا من جميع أنواع التقدم الأخرى المادية ...

فاذا كانت هذه المقدمات جميعها كذلك ،وعلى الرغم من ذلك،وفضلا عنذلك،فاذن، لا مندوحة فى أن نسلم بأن التقدم الخلقى، والذىيجىء معانتشارالعلموالتعليم،وهوفىالوقت نفسهأول مايصطفيهالمعلم ونظامالتعليم باعتباره واجبا لهما تستهدفه العملية التعليمية ، اذ هو أكثر أنواع التقدم أهمية، وذلك لدوره الهام فى سعادة الفرد والجماعة...وخاصة وأنه ثبت أنه ليس ثمة « تفوق عقلى يعادل فى قيمته التفوق فى الخير والشجاعة »(٢٨) . اذن ، « فلو كنا عقلاء لوجب علينا أن تتجه كل » «جهودنا الى هذه الناحية،ولوجب على الأقل أن نتذكر دائما » أن أنواع

(*) أفلاطون .

« التقدم الأخرى ليست سوى مجرد وسائل ، وأننا نرغب فيها على »
« اعتبار أنها وسائل « أما التقدم الخلقى فهو غاية فى حد ذاته »(٢٩) ، »
اذ هو منتهى غايات المعلم والتعليم ، وهو السيد الوحيد لجميع أنواع التقدم الأخرى ، وأكبر كفيل يحقق طاعة القانون باعتباره الأخلاق الصغرى ، وطاعة الأخلاق باعتبارها القانون الأكبر . على الرغم من أن التقدم الخلقى أصعب أنواع التقدم من حيث السيطرة عليه .

وصفوة القول فيمكن بنظام تعليمى ممتاز أو جيد تحقيق كل تقدم.
« أما ان أهمل التعليم ، فان أى عمل آخر تؤديه الدولة يكون غير ذى»
« شأن »(٣٠) ، اذ « آفة الدول خطأ نظمها التعليمية » (٣١) ، كما أظهرت التجارب من قديم الزمان .

★ ★ ★

وهنا نعود الى (كانت) . وقد يتراءى للبعض أننا قد استطردنا بلا مسوغ الى أهمية التعليم والعلم الكبرى ، بينما كنا نتحدث عن تكوين (كانت) الروحى بدءا من ميلاده وطفولته المبكرة ، فى وقت ارتدى نظام التعليم فى بروسيا أقذر الأردية ، الى حد أن وصم واقعه بشتى الوصوم ذات الألوان القذرة الحالكة ، وبات غثا غثاثة مشينة مزدراة ، فغدا طامة قومية كبرى ، وأضحى اصلاحه أعقد من ذنب الضب . وقد يكون هذا الذى تراءى للبعض صحيحا من ناحية الشكل والظاهر فقط ، اذ كان همنا الكبير والأصيل هو الوصول الى تلك المأثورة التى جاءت على لسان ذلك الاسطين العسكرى البروسى الخبير ، لتوضح لنا الحقيقة فى شأن التعليم البروسى وقد أصلح نظامه ، واتضح لهم ولغيرهم أنه الآلية السحرية فى بناء الأمم وعظمتها فى السلم والحرب على السواء . فلولا اصلاح التعليم فى بروسيا والوصول بصانع الأجيال الى أن يكون فى جوهره ضميرا وقدوة صالحة وأسوة حسنة ،ولولا فتح جميع نوافذ بروسيا للعلم ، ما كان لبروسيا هذا الجيش العرمرم . وما كان لهذا الجيش هذا النصر العظيم على جيوش فرنسا . وما كان لبروسيا على لسان (بسمارك) فى الصلح بين فرنسا وبروسيا فى فرانكفورت (١٠ مايو ١٨٧٠) أن يقتطع (الألزاس) Alzase وجزءا كبير من (اللورين) Loraine من فرنسا . والأدهى والأمر ،

ما كان لبسمارك أن يشترط على فرنسا ، أن « تطيب (بضم التاء وفتح الطاء وكسر الياء وتشديدها) خاطـــر الجيش البروسى بأن يحتـــل باريس ! » ، كما يحدثنا (فيشر) فى كتابه : (تاريخ أوروبا الحديث) . هذا ،وماكان لبسمارك أيضا أن يعلن قبل استسلام باريس بعشرة أيام،قيام الامبراطورية الألمانية فى ١٨ يناير ١٨٧١ ، (من قاعة المـــرايا بقصر فرساى فى باريس نفسها) ، والتى كان لويس الرابع عشر ، قد نقش فيها شعاره الذى يقول : Nec Pluribus Imper ، أى « شمس لا تدانيها شموس مجتمعة ! » .

★ ★ ★

وحين نستأنف العود الى (كانت) لنستعرض لوحاته فى مرسمه الفكرى التى رسمها بريشة فكر متميز دقيق وألوان خالصة نقول : كتب (كانت) فى الميتافيزيقا وأجاب فى كتابه (نقد العقل الخالص) عما يمكن أن (نعرفه) . وكتب فى الأخلاق فى كتابه (نقد العقل العملى) وأشباهه فى الموضوع وأجاب عما يمكن أن (نعمله)ونؤمن به وحيـــث رأى ألا قيام للأخلاق الا على هدى العقل وحده، فهو مصدر الالزام الخلقى ومن ثم أضفى على الأخلاق الصفة الارادية العقلية،وجعل القيمة الأخلاقية للفعل عنده تكمن فى الارادة والعقل.ويلاحظ أن العقل عنده « لا يعترف بقاض آخر غير العقل نفسه»(٣٢).فهو عنده «الكفيل بأن يوصلنا الى » « المعرفة الصحيحة التى تظهرنا على حقيقة الأشياء فى ذاتها ، بينما » « ادراك الحس لا يكفل سوى ادراك الظواهر فحســـب على طريقتنا » «الخاصة».وانه«العقل هو الذى يجب تحكيمه فى جميع أعمالنا». وعلى ذلك جاء (كانت) فى الأخلاق بـ (الواجب) و « الارادة الصالحة) و (الأمر المطلق) ... الخ . وفى السياسة قدم لنا (الحرية) و (العدل) و (النظام الجمهورى والملكية الدســـتورية) و (الجمهورية العالمية) و (تحالف الشعوب) و (السلام الدائم) ، من أجل (الانسانية) كقيم وغايات نهائية . وجميع هذه الأفكار دمغها بالعقل فى شتى آثاره ، سواء فى (نقـــد العقـــل الخـــالص (١٧٨١) ، أو فى (تأســيس ميتافيزيقا الأخلاق) (١٧٨٥) ، أو فى (نقد العقل العملى (١٧٨٨) ، أو فى رسالته (مشروع السلام الدائم) (١٧٩٥) ... الخ .ومن (نقد

العقل الخالص) نز دستور الأخلاق وانبثق ، فصاغ (كانت) قانونه الأخلاقى .

فما هو هذا القانون ؟ ان المبدأ الأخلاقى عند (كانت) هو (الارادة الصالحة) . أما القدرات الأخرى من ذكاء ، أو ثروة ، أو جاه ، أو خلاف ذلك ، فلا تدخل تحت سماء (الخير) ، فهذه أمور لا تحـــدد طريقة استخدامها ، فهى مجرد وسائل قد تتخذها (الارادة) لتحقق غايات غير أخلاقية ، فجوهر (الأخلاقية) هو (الارادة الصالحة) ، وهى فى حد ذاتها وحقيقتها (الخير) ، حتى لو عجزت عن تحقيق قصدها . فالمطلوب فى حرم الأخلاق ، أن يبذل الانسان منتهى جهده الى حد الا يبقى فيه منزع لتحقق (الارادة الصالحة) الخـــير والخلق الـكريم .

وما (الارادة الصالحة) ؟ هى الرغبة الخالصة فى العمل طبقـــا (للواجب) دون أن تكون هناك غاية أخرى ، حتى ولو كانت هـــذه الغايةفائدة تجنىأو نفع يبتغى،فكلا النفعوالفائدةفىهذا الشأنغيرأخلاقى عند (كانت) . و (الارادة الصالحة) لا تظهر نقية خالصة الا اذا حدث صراع بينها وبين الغرائز الفطرية والميول الطبيعية ، ووجدنا (الارادة الصالحة) تصر على (الواجب) والقيام به ، احتراما لهذا (القانون كغاية) . وانه العقل وحده هو الباعث الى هـــذا الاحترام . فالنفس كثيرا ما تميل الى احترام كبير (بكسر الراء وتنوينها) وتوقيره ، وقد أصبح (بالفضيلة) مثالا لاحترام (هذا القانون) .

وهل هناك (قانون) ؟ ان جميع ما فى الطبيعة يخضع لقانون أو قوانين تعمل بموجبها . والانسان وحده ودون غيره هو الذى اختص بالعقل ، فهو وحده صاحب هذا (العقل) وصاحب (الارادة) ، وله (قانون) . ولما كان الانسان أسير دوافع حبيسة فى نفسه، وهى تتعارض مع هذا (القانون) فلابد من أن يكون هذا (القانون) (أمرا) ، بل و (أمرا مطلقا) ، وأن ينطوى على (كلية القانون بصفة عامة) ، والعمل به كضرورة ، وأن يطابق هذا العمل القاعدة الأخلاقية .

والقانون بدوره لا يكون قانونا دون أن يكون (شاملا) و (كليا)٠ وتبعا لذلك يجب أن يكون (الأمر المطلق) (كليا) ، وأن تأتمر (الارادة الصالحة) بأمره ٠ وبناء على ذلك نجد (الأمر المطلق) يقول لنا أولا : (اعمل دائما بحيث يكون فى مقدورك أن تجعل من قاعدة عملك (قانونا كليا) للطبيعة)٠ وثانيا : (اعمل دائما بحيث تعامل الانسانية فى شخصك وفى أشخاص الآخرين كغاية وليس كمجرد واسطة) ٠ وثالثا : (اعمل دائما بحيث تكون ارادتك ، باعتبارك كائنا ناطقا ، الارادة المشرعة الكلية)(٣٣) ٠ وموجز ذلك : أنه ينبغى بنا أن (نعمل) كما لو كان الفرد منا (مشرعا للقانون) (بضم الميم وفتح الشين وكسر الراء مع تشديدها) ، دون أن يكون للعمل غاية أخرى سوى (الانسانية) ، وألا يكون وسيلة لقانون يفرض على الفرد من خارج ذاته ٠ فالانسان هو الذى يجب أن (يشرع) القانون ٠ (ولا شك أنه ما من انسان فان نطق بكلمة أعظم من هذه الكلمة التى يقولها (كانت) ، وتعبر عن مضمون فلسفته كلها ، ألا وهى « حدد لنفسك بنفسك»)(٣٤)٠ وجدير بالذكر أن الشاعر الألمانى الكبير (شيللر) فى مقاله الشهير عن (الرقة والكرامة) أخذ على (كانت) ما فى فكرة (الواجب) عنده من صلابة وقسوة ٠ قال (شيللر) : (ان فكرة الواجب فى فلسفة (كانت) الأخلاقية، تتميز بصلابة تفزع منها العواطف الرقيقة، وقد تغرى فى سهولة ضعاف الفهم ، الى أن يبحثوا عن الكمال الخلقى فى زهد الرهبان)(٣٥) ٠ وهذه الفكرة نفسها كانت موضع نقد (شوبنهور) لها ٠

★ ★ ★

ومما سبق ، فلا مندوحة فى أن نتنبأ بأن (كانت) وهو يعالج موضوع السياسة سينحو الى (تخليقها) moralisation ، وهذا أمر غير مستغرب ، فـ(كانت) هو الذى امتلأت نفسه بـ(القانون الأخلاقى)، وهو الذى جعل من الفرد فى حرم الأخلاق (مشرعا) لنفسه ، وهو يحيا حياته ٠

أليس (كانت) هو الذى خف فى أواخر حياته قبل وفاته عام

١٨٠٤ ليضع كتيبه (مشـــروع للســـلام الدائم) ويوضح فيـــه مع بعض التفصيل ، ما كان قد رآه فى كتابه (المبدأ الطبيعى للنظام السياسى ، باعتباره متصلا بفكرة تاريخ سياسى عالمى) ؟ (٣٦) ٠

أما فى الكتاب الأخير السالف الذكر ، فنجـــده يتجه الى الطبيعة ليفســـر نهجها فى تطوير حياة البشر ، اعتمـــادا على ما فى فطرة الانسان من صفات غير اجتماعية وعلى الرغم منها ، بينما الانسان ينشد التقدم على منوال الكفاح باعتباره رفيق التقدم ٠ فهو يرى أن هذه الصفات لابد من وجودها فى فطرة الانسان ، اذ لو غابت هذه الصفات عن هذه الفطرة لانعدمت تماما (فـــردية) الانســـان ، وانعدم التحـــدى والمنافسة ، فيأسن ويركد تيـــار الحياة ويجمد ، فالمنافســة والتحـدى ضرورتان لازمتان لتطوير الفرد وتنمية قدراته ٠ فبدون (الصفات غير) (الاجتماعية) هذه ، قد يعيش البشر عيشة الرعاة بكل معنى الكلمة فى) (وئام تام ورضا كامل ، ولكن جميع مواهب البشر ستظل فى هـــذه) (الحالة كامنة الى الأبد ٠ فشـــكرا اذن للطبيعة على هـــذه الصفات) (غير الاجتماعية ، ولهذه الخيلاء والغيرة اللتين تتسمان بالحســـد) (والرغبة فى التملك والقوة ، ويستحيل ارضاؤهما حتى الثمالة ٠٠٠) (ان الانسان يريد الوئام ، ولكن الطبيعة تعلم بصـــورة أفضل ما هو) (الخير للجنس البشرى ، ومن ثم تريد الصراع ، حتى يمكن للانسان) (أن يساق الى مران جديد لقدراته ، والى تنمية مواهبه الطبيعية الى) (درجة أبعد) ٠ اذن ، الصراع من أجل البقاء ليس كله شرا ٠

هذا ، وبينما الانسان يتدرج على سلم التطور فى خضم الصراع، سرعان ما يتبدى له شيئا فشيئا ، أن الصراع يجب أن تضـــبطه قوانين معينة ، وتنظمه ضوابط محددة وتحكمه ، وهنا ينبثق أصل (الجماعة المتمدينة) ويتواجد ٠ وبالمثل وعلى المنوال نفسه ، يتبين له أيضا أن الحرية التى كانت تراوده أصبحت بالنسبة له حرية مازالت تتوجس الخوف فى العلاقات الدولية، حيث لا ضابط يحكمها٠فكل دولة مازالت تتوجس من عدوان يقع عليها ، وتصطلى مع الجميع بفزع أسطورى ينصاعون له بصـــورة عامة ، فتأخـــذ كل دولة فى التفكير فى أن هـــذا الموقف

يدفعهم الى أن يدخلوا مع بعضهم بعضا فى اتحاد مدنى ينظمه القانون(٣٧) للخروج من هذا القلق الذى يدور حول توقع العدوان على أى منها فى أى لحظة • ويتضح لهم أن هذا الموقف قريب جدا من (حالة الحرب) • ومن ثم يأخذون فى التعاقد على التخلص من هذا القلق بنبذ العدوان من أجل الحفاظ على السلام•وفى هذا المقام يستشهد (كانت) بالطبيعة ، أو (الفنانة العظيمة) كما يحلو له أن يسميها ، ويستند الى مجراها الآلى نفسه الذى يدعو البشر الى السلام • فهى (على الرغم منهم غايتها أن تبسط على الناس جناح الوفاق والوئام) • فماء (الوفاق) الفرات ينبع من هضاب (الشقاق) ، وماء (النظام) الرقراق ينبع من بين أحجار (الفوضى) • أليست الطبيعة هى التى ملأت رحاب الأرض بشعوب مختلفة عاشوا معا ويعيشون معا ، وقد تحسسوا معا السبيل الى انجاز مصالحهم المشتركة؟(٣٨)•وفى هذا الموقف يشد من أزر الانسان وعزمه ؛ أنه حين يستقرىء التاريخ فى جملته ، يظهر له ويتبين أن خط تطور التاريخ ينحو باستمرار نحو زيادة مضطردة فى نبذ الحرب ، والعزوف عنها ، للخروج من هذه الحالة الفوضوية المروعة• وهذا المنحى يدلنا على أن هناك فكرة كامنة فى الطبيعة تسوقنا الى أن نضع دستورا سياسيا كاملا ، سواء فى الداخل أو الخارج ، وذلك بتنمية كاملة منا لهذه القدرات التى غرستها الطبيعة فينا(٣٩) من أجل ذلك • وهذا واجب الانسان الذى يجب أن يقوم به ، وهو واجب فى الامكان • واذا لم نحاول القيام به محاولة جادة ، فلن يكون التاريخ أكثر من جنون لا نهاية له ، وحينئذ (قد نفترض مثل الهنود أن الأرض مكان للتكفير عن خطايانا القديمة التى أتى عليها النسيان)(٤٠) •

★ ★ ★

اذن ، فـ(كانت) لا يستمرىء الحرب فى قليل أو كثير ، ويعدها ويلا ثقيلا من ويلات البشرية،ومن ثم فهو يستنكر فكرة(الجيوش الدائمة) ، ويرفع صوته مع الأجيال يشكو مر الشكوى من أن الحكام يرصدون جميع مواردهم لحساب الجيوش الدائمة والحرب القادمة ، بدلا من تدعيم التعليم العام باعتباره خطوة من خطوات التمدين • وقد عبر

عن ذلك قائلا : (اشتكت الأجيال مر الشكوى من أن الحكام لا مال عندهم لكى ينفقوه على التعليم العام ، لأن مواردهم قد رصدت لحساب الحرب القادمة ، فالشعوب لن تتمدن حقيقة حتى تلغى جميع الجيوش الدائمة الغاء تاما على مر الزمان) . وكم يشهد قوله هذا مع غيره من الأقوال فى الشأن نفسه على شجاعة (كانت) ونزاهة رأيه ، اذ (بروسيا) فى عهد (فردريك الأكبر) كانت أول دولة تأخذ بنظام التجنيد الاجبارى ، بينما (كانت) كان يستنكره على أساس أن (الانسان) قيمة فى حد ذاته وغاية ، وليس وسيلة لقيمة خارج ذاته . هذا ، ووجود جيش دائم لدولة يحفز غيرها الى التسابق فى التسلح ، والى القيام بحرب هجومية للتخلص من نفقات باهظة لجيش دائم . ومن شأن ذلك أن يظل العالم يعيش فيما يبدو أنه (السلام) ، بينما الحقيقة أن هذه الحالة ما هى الا (هدنة مسلحة) . وهذه (الهدنة) أشد وطأة على الدول من (الحرب)، وخاصة أن الحرب قد لا تكون طويلة الأمد أحيانا . وفى هذا الصدد ، لا يفوت (كانت) أن يتحفظ من أجل دفاع الدولة عن نفسها ضد العدوان عليها فيقول : ان التدريب العسكرى لمتطوعين لا يتنافى مع الأخلاق ولا يجافيها .

وعلى ذلك ، كان من الطبيعى أن يندد (كانت) بتلك الدوامات العسكرية التى دارت بقوة فى دول أوروبا وقتذاك ، وهى تستهدف (التوسع) : فى أمريكا ، وأفريقيا ، وآسيا ، بغية ارضاء شهواتها فى المغانم والأسلاب ، فيقول : (لو نظرنا الى المسلك غير الكريم الذى)
(تسلكه دول أوروبا (المهذبة) ، وبخاصة الدول التجارية ، لاستولى)
(علينا الفزع من هول المظالم التى ترتكبها تلك الدول فى (زيارتها))
(للبلاد والشعوب الأجنبية ، (فالزيارة) عندها مرادفة (للغزو))
(و (الفتح) .فالذين اكتشفوا البلاد الأجنبية ، وبلاد الزنوج ، وجزر)
(التوابل ، والكاب ، وجزر الهند الشرقية ، والهندوستان ، واستقدموا)
(اليها قوات أجنبية بدعوى انشاء مكاتب تجارية ، ضيقوا الخناق)
(بهذه القوات على المواطنين ، وأضرموا نيران الحرب بين الدول)
(المختلفة فى تلك البقعة الشاسعة من العالم ، ونشروا فيها الجوع ،)
(والتمرد ، والخيانة ، وما الى ذلك من شرور وآثام) (٤١) . ويقول

(كانت) مرة أخرى منددا بالاستعمار : (ان المرء يهتز لهول (المظالم التى تفرضها الحكومات التجارية ، أو الدول ذات العصبية) (الدينية ، باسم المدنية)(٤٢) ٠

ويرجع (كانت) هذا التوسع الأوروبى الاستعمارى ، الى الدساتير غير الجمهورية ، والدساتير الملكية غير الديمقراطية ، التى لا تصلح لأن تكون بمثابة دعامات (للسلام الدائم) ، لأن الدساتير الجمهورية والدساتير الملكية الديمقراطية عنده هى التى تعتبر بحق دون غيرها دعامات للسلام الدائم ٠ ففى ظلها يكون الفرد مواطنا بمعنى الكلمة ، وفيها يحيا المواطن حياة تستحق الحياة ، وفيها يعيش حرا كريما لا يعتدى أحد على حريته أو يستخف بكرامته ، أو يمتهن انسانيته ٠ وفيها يمارس الموطنون حقهم فى اعلان الحرب أو عدم اعلانها٠ اذ قرار الحرب (لا يمكن اتخاذه الا برضاء المواطنين)(٤٣) ٠ وبعبارة أخرى ، ففى ظل النظام غير الجمهورى أو غير الديمقراطى ، لا مندوحة للتاريخ من أن يظل يكتب بالدماء ، نتيجة لأن السيادة فيهما غير منوطة بالمواطنين والشعب ، وانما الحاكم المطلق الشمولى هو الذى يحكم بمفرده ، وهو الذى يملك بمفرده ، وهو الذى يتصرف بمفرده ٠ وتبعا لذلك لا يضيره فى شىء أبدا اعلان الحرب ٠ اذ هو لن يصطلى بنارها ، وهو (لا يخشى أن وقعت الحرب أن تؤثر على مائدته ، أو فى قنصه ، أو فى دور لهوه ، أو فى حفلات بلاطه ، الى آخر ذلك)(٤٤) ٠ فالحاكم الشمولى المطلق هو وحده الذى (يستطيع أن يقرر الحرب ، ولو لأوهى الأسباب) ، ثم (يترك مهمة تبريرها لرجاله من دبلوماسيين ، وهم دائما على استعداد لذلك)(٤٥)٠ هذا ، وفى ظل النظام الجمهورى أو النظام الملكى الديمقراطى ينفسح المجال أمام الحكومات لتحقيق الرفاهية والرخاء للمواطنين أفرادا وجماعات ، لتنمية المواهب والقدرات الفردية ، والسهر على الحفاظ على حرية الأفراد وكرامتهم على أعلى مستوى ممكن ٠ ويبرر (كانت) ويسوغ أفكاره هذه على أساس أن (الانسان) (غاية) و (قيمة) الى أبد الآبدين ٠ اذ هو يرى أن (كل رجل يجب أن يعامل كـ(غاية) فى حد ذاته وليس كـ(وسيلة) ، لأنه (روح حرة خالدة ، وله قيمته التى تعزى

الى حرية ارادته ، وانها لجريمة ضد الكرامة التى تخصه كـ(انسان) أن يستخدم وسيلة لغرض خارج ذاته)(٤٦) . والحقيقة أن (كانت) قد اهتم بالأخلاق الاهتمام كله ، من أجل هدف واحد ووحيد هو كمال الانسان ، فجعل منها خير ذخيرة (تكفى نفسها بنفسها) ، وجعلها (تقود حتما الى الدين) ، وجعل الايمان (يقوم فى أخلاقية الانسان) كما سبقت الاشارة ، وجعل (الارادة الصالحة جوهر الأخلاقية) حتى لو عجزت عن تحقيق قصدها الخير طبقا (للواجب) كضرورة لابد منها (للعمل) احتراما لذات (الواجب) نفسه دون خوف أو تردد . وجعل جميع هذه الآراء والأفكار مواد أساسية فى دستور الأخلاق عنده . فاذا (بعلم الأخلاق) كما يراه ، هو علم العمل الذى يجمع القوانين المطلقة التى ينبغى بنا أن نعمل وفقا لها . وتبعا لذلك رفض السلوك المتناقض والمشين لفرد يسلم (للواجب) بسلطانه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يدعى العجز عن القيام به ، فهذا تناقض من شأنه أن يجرد الأخلاق من فكرة(العمل) وفكرة(الواجب) ويمحقها محقا . اذ (الأخلاقية) عنده مختلفة عن (القانونية) التى تعنى فقط العمل طبقا للقانون . فقد يكون التصرف صحيحا من الناحية القانونية فقط ، بينما هو غير أخلاقى لا يتفق مع (الأخلاقية) . فامتناع الفرد عن الجريمة انما هو طاعة للقانون كغاية .وهذا الامتناع يمكن تبريره بتبريرات كثيرة ، كالخوف من الاعتداء على غيرنا ، أو الخوف من العقاب ، أو الخوف من الاستهجان الاجتماعى ... الخ ، وعلى ذلك فهو ليس بفعل أخلاقى . ولكى يكون (أخلاقيا) يلزم أن (ينوى) فاعله القيام به ، بأن يحدث نفسه من الداخل قائلا : ان واجبى يقضى على ألا أجرم احتراما (للواجب) و (العقل) ، وبذلك يكون (الفعل) (أخلاقيا) ، ويكون (الفاعل) (صاحب أخلاقية) ، لأنه أجبر نفسه وألزمها باحترام القانون الأخلاقى) ، وهو قانون كلى ، أولى ، ضرورى . وقيمته ليست فى النتيجة التى تحققت من الفعل ، وليست فى تحقيق غرض الفاعل من فعله ، وانما قيمة (القانون الأخلاقى) فى المبدأ الذى يستوحيه فاعل الفعل من (الارادة الصالحة) ويقوم بالفعل كـ(واجب) فحسب . وقيمة (الواجب) تكمن فى صميم (الواجب) نفسه ، بصرف النظر عن أى فائدة من الفوائد ، لأن الانسان عند (كانت) هو الكائن الوحيد الذى

يقوم (بالواجب) • هذا و (قيمة الفضيلة تزداد كلما كلفتنا كثيرا دون أن تعود علينا بكسب)(٤٧) • فالنفع ، عند (كانت) أمر غير أخلاقى، لأنه ينأى عن (الارادة الصالحة) وعن (الواجب) ، فالواجب يطلب لذاته •

واذا كان (كانت) قد أعجب (بالقانون الأخلاقى) اعجابا ملأ نفســـه ، فاننا نجده فى كتيبه (مشروع للسلام الدائم) يستهل كلامه فى هذا الكتاب بالسخرية اللاذعة من السياسة وقد أدارت ظهرها للأخلاق ، فيتساءل : (عما قصد اليه صاحب فندق هولندى من نقشه على ناصية)
(فندقه رسما يمثل (قبرا) ! ترى هل قصد بهذا النقش الساخر أن)
(يوجه اللوم (للناس كافة) ، أو خص به (رؤساء الدول) المتعطشين)
(الى الحروب دائما ، أو خص به فحسب (الفلاسفة) الذين يطيب)
(لهم السلام اللذيذ ؟) (٤٨) • وفى الكتاب نفسه نلفاه يرسى (القانون الأخلاقى) على مفهوم الحرية ، ثم يتطرق الى الحديث عن العلاقة بين الأخلاق والسياسة ويقول : (ومن المحقق اذا لم تكن هناك حرية ، أو)
(قانون أخلاقى يقوم عليها ، واذا كان كل ما يحدث ناتجا عن آليـــة)
(الطبيعة المحضة،فحينئذ تكون السياسة من حيث هىفن استخدام هذه)
(الآلية للسيطرة على الناس هى كل الحكمة العملية ، وتكون فـكرة)
(الحق لفظا خاليا من المعنى • ولكن اذا رأينا من الضرورى اضافة هذه)
(الفكرة الى السياسة ، بل وجعلها الشرط المقيـــد لها ، فلابد من)
(التسليم بامكان التآلف بينهما • ان فى مقدورى أن أتصور (سياســيا)
(أخلاقيا) ، أعنى رجلا لا يقبل من مبادىء السياســـة الا ما تقره)
(الأخلاق ، ولكنى لا أتصور (أخلاقيا سياسيا) يرسم مذهبا أخلاقيا)
(يلائم مصالح رجل السياسة) (٤٩) • فالسياسى الأخلاقى حين يلمس عيوبا مستعصية الحل ، يقضى على نفســـه بأن يبـــذل أقصى جهـــده لاصلاح هذه العيوب طبقا للقانون الطبيعى الذى يصنعه العقـل ، بينما هو مخالف للحكمة السياسية التى تتفق هنا مع الأخـلاق ، وذلك قبـــل أن يكون عندنا دستور أفضل بديلا للقديم ، وأن يتم ذلك بكل حكمة بعيدا عن اصلاح هذه العيوب بالقوة ، أو على وجه الاستعجال • وكل ما فى الأمر أن تقوم مطالبة بهذا الاصلاح ، بأن نضعه فحســـب أمام الحكومة

كضرورة للاصلاح لابد من القيام بها ، وذلك لكى يتم (بلوغ أفضل دستور يقوم على مقتضى قوانين الحق)(٥٠)، فى الظروف الملائمة . فالدستور التشريعى اذا كان مطابقا مطابقة محدودة أفضل من الفوضى التى تنتج عن الاستعجال أو استعمال القوة للاصلاح . فالهدف النهائى انما هـو قيام دستور يرتكز على مبادىء الحرية .

أما (الاخلاقى الاستبدادى) فيخطىء فى مجال العمل والسياسة عندما تسوقه اجراءات وطد العزم على القيام بها فى سرعة واستعجال ، ولكن التجربة هى التى تنبهه وترده الى الصواب قليلا قليلا حتى يقترب من الطبيعة لو ابتعـد عنها . وهـو فى ذلك يكون عكس السياسى الذى تساعده عبقريته على أن يجعل الباطل حقا ، ويجعـل ما هو غير أخلاقى أخلاقيا ، على الرغم من أن هذا أمر من المستحيل أن يستمر الى الأبد ، لأن الحق حق كـل يوم ، و (الخطيئة خطيئة ولو كانـت مبتكرة) . ومثل هذا السياسى يستخف بالأخـلاق تماما ، وهى التى رسمها العقل . والحقيقة أنه واحد من زمرة السياسيين الذين (يجعلون كل اصلاح أمرا مستحيلا ، وانتهاك الحق أمرا مستديما)(٥١) . وحجة هؤلاء تجىء براقة فى ظاهرها ، الا أنها فى حقيقتها مثل فقاعة الصابون واهية سريعة الانفجار . وفحوى هذه الحجة الهشة،وهى بالأحرى حيلة، أن الطبيعـة البشـرية (تعجز) عن أن تحقـق فكـرة الحق التى رسمها العقل ، على الرغم من أن (تصورات العقل لا تقبل من ضروب الضغط الا الضغط المشروع القائم على مبادىء الحرية ، فهذه وحدها هى التى تجعل الدستور القائم شرعا شيئا ممكنا)(٥٢) . وهؤلاء السياسيون عامة وعادة هم الذين (يشغلون أنفسهم بتملق السلطات القائمة خدمة) (لمصالحهم ، وينزلون الى منـاورات لا يتورعون بها عن أن يبيعوا) (الشعب ، بل العالم بأسره لو كان فى مقدورهم)(٥٣).

★ ★ ★

اذن ، فكيف يكون الخلاف بين الأخلاق والسياسة أو الاتفاق بينهما عند (كانت) ؟ لا خلاف بينهما من حيث الموضوع ، وانما الخلاف بينهما ينز ويتسرب من الناحية الذاتية . ففى صميم السياسة تكمن الأنانية . فهى

لا تدع مكانا (للشرعية) الخالصة للوصول الى (ارادة عامة) دون شائبة ، يمكن أن تصاغ فى صـــورة عقد لا يقوم البتـــة على (قوانين الاكراه) ٠ وهنا يعرب (كانت) عن يأسه فى أن يقوم اتفاق بين الأخلاق والسياسة ، ويقرر أن هذا الخلاف سيظل قائما ٠ ومن ثم نراه يقـــول : ان هذا الخلاف (ما أحـــراه بالبقاء)(٥٤) ، ليظـــل بين ظهرانينا دائما (كالمهماز الناخس) أو (الحجر الشاحذ) يحض السياسة على مراعاة الأخلاق وممارستها،وأن تتخلى عن مبدئها الخبيث بشتى أكاذيبه وحيله غير النظيفة التى تدور حول محور ممجوج واحد ، وهو أن (فى ضعف الانسان ما يبرر ارتكاب جميع الآثام)(٥٥) ٠ وعلى كل حال ، فلم يغفل (كانت) عن أن يحصر أساليب السياسة المنافية للأخلاق التى تضعها السياسة عادة موضع التنفيذ دون أن تعلن عنها ، وتتخذها بالفعل فى خفية ومواربة وسائل عملية لها ٠

ومن هذه الأساليب : (افعل ثم برر) ٠ و (اذا فعلت فانكر) ٠ و (فرق تسد) ٠ و (الشرف السياسى) : وهو الحيلة التى تدعيها الدول الكبرى لتعزيز قوتها وتدعيم نفوذها فحسب ٠ ومنها (التحفظ الذهنى): وهو الحيلة البارعة التى تعمد اليها السياسة فى (تحرير صيغ المعاهدات العامة ، فتحرص على استخدام تعبيرات تستطيع تأويلها لمصلحتها حين تشاء ، كالتمييز بين (الحالة الراهنة بالفعـــــل) و (الحالة الراهنة قانونا)(٥٦) ٠ ومنها (الاحتمالية) : وهى (التى تفرض سوء النية عند الآخرين ، أو اتخاذ ما يبدو فى امكان تفوقهم سببا مشروعا لاضناء الدول المسالمة) ٠ ومنها : (الخطيئة الفلسفية) : وهى (النظرة فى التهام دولة كبيرة لدولة صغيرة ، على اعتبـــار أنه أمر تافه وهفـــوة تغتفر ، والزعم بأن فى ذلك انفعل مغنما للدولة الكبيرة وخيرا عظيما للعالم على العموم)(٥٧) ٠

ويتمعن (كانت) فى تحليل هـــذه الأساليب وتفنيدها بالعقل ، ويزنها بأناة ودقة بميزان العدل و (مبدأ العـــلانية) ، وينتهى الى أن كلا منها (ظلم وخيم) ٠ ولماذا اختار (كانت) (مبدأ العلانية) لتقييم هذه الأساليب ؟ ان (مبدأ العلانية) هو أساس القـــرار الصحيح فى الأحكام العادلة وحجر الزاوية فيها ٠ فبدون وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ

لا تتحقق عدالة ، وبلا عدالة لا يصل حق لصاحبه . اذ (جميع الدعاوى المتعلقة بحق الغير التى يتنافى حكمها مع (العلانية) هى دعاوى جائرة) . اذن سر الخلاف بين الأخلاق والسياسة هو (الأنانية) التى لا تسمح لـ(الشرعية) أن تأخذ مكانها باعتبارها ضرورة فى العلاقات العامة ، ومن هذه العلاقات (العلاقات الدولية)،وهى أشد ما تكون حاجة الى (الشرعية)، ليتيسر لها أن تضع لنفسها قانونا عاما فى صورة عقد تخضع له مختلف الدول ، (كالعقد الذى تتولد عنه الدولة) ، أو على الأقل كعقد شركة دائمة حرة ، بعيدا عن (قوانين الاكراه) كما سبق القول . ومن شأن ذلك أن يزول النزاع بين الأخلاق والسياسة ، بدلا من انصراف السياسة المتعمد عن الأخلاق ، بل ان السياسة (تنكر وجودها فى الواقع) . هذا ، ويجب أن نلاحظ أن (جميع الأحكام التى تحتاج الى (العلانية) (لكيلا يفوتها غرضها) ، توافق الأخلاق والسياسة معا . وانه الحق ، و (الحق وحده ، هو الذى يوفق بين شتى الأغراض ومختلف الغايات ، وهو فحسب الذى يجعل هذا التوفيق (أمرا ممكنا)(٥٨) . وعلى ذلك اعتبر (كانت) هذه الأساليب السياسية مجرد (علالات ومغالطات) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتبرها فى الوقت نفسه بينات تعلن عن قوة الحق التى لا قوة فوقها ، اذ هى (تبين على الأقل ، أن الناس لا يستطيعون أن يتخلصوا من (فكرة) (الحق) فى علاقاتهم الخاصة أو فى علاقاتهم العامة ، وأنهم لا يجرئون) (على أن يقيموا (سياستهم) جهارا على حيل محضة تدعو الى الحيطة) (والفطنة ، ولا يتجاسرون على رفض الاذعان لفكرة القانون العام) ،) (وهذا أمر ظاهر على الخصوص فيما يتعلق (بقانون الشعوب)) اذ يعده (كانت) (فى الواقع كلمة خالية من المعنى ، ويقوم على) (اتفاقات تشمل فى مادة الاستثناءات من عقد ابرامها نفسه على(تحفظ) (ذهنى) يقصد به خرقها)(٥٩) . وعلى ذلك (فالسياسة الصحيحة لا تستطيع أن تخطو خطوة الا بعد أداء التحية أولا للأخلاق)(٦٠) . و (الأخلاق هى التى تقطع فى المشكلات التى تستعصى على السياسة فور وقوع النزاع بينهما)(٦١) . و (الواجب على السياسة أن تنحنى للحق ، وبهذا يقوى أملها فى الوصول ولو ببطء الى مرتبة يتألق فيها سناؤها تألقا موصولا)(٦٢) . وجملة هذه الأفكار والمفاهيم تشكل المونة

والحجارة ، لكى يقيم الانسان ، حينما يؤتى الحكمة وهى الخير الكبير، أعظم صرح وأخطره فى حياة الانسانية جمعاء ، وهو صرح (السلام الدائم)٠ وهذا الصرح وتحقيقه،هما فى حد ذاتهما ، (مشكلة أخلاقية)٠ اذ (السلام) كما يراه (كانت) ليس بخير مادى وكفى ، أو أمل مرجو فحسب ، أو مجرد (حلم لذيذ) ، وانما هو حاجة وضرورة للبشر المتحضر ، وهو لا يقوم الا على أساس (تقديس الواجب) كما رسمه (كانت)٠فالسياسة ليست كما هو معروف،مجرد وسيلة لاسعاد البشر،وانما ينبغى أن تقوم على فكرة (واجب الحق) ، الذى قد أعطى العقل مبدأه أوليا)(٦٣) ، أى قبل التجربة ٠

★ ★ ★

والآن لو تساءلنا عما يبعث فكر المفكر الى التفكير ، والفكر مرتبط عادة بذات المفكر وشخصيته ، وبالروح التى تسود عصره ، فيندفع المفكر الى النظر والرأى ، فان الجواب لن يكون سوى أن نقول : انها هى (الفوضى) التى تسوق المفكر الىالبحث عن(النظام)لكى يقيم نظاما آخر غير الفوضى ذات الصور المتعددة ، التى قد تجرد العقل نفسه من سلطانه، فتكون الخسارة فادحة والضياع كبيرا ٠ ويجب أن يلاحظ أن المفكر حين يصل الى (نظام معين) ، بفضل عقله ، وهو بالذات وبفطرته (منظم)، لابد أن يكون هذا (النظام الجديد) نظاما يجذب عقول معاصرى المفكر أنفسهم وأبناء جيله من حوله ٠ وهذا من شانه أن ينصاع المفكر لفرض الظروف التاريخية والاتجاهات العامة على تفكيره بقدر ٠ وفى الوقت نفسه فعليه أن يحذر من أن تقضى هذه الظروف والاتجاهات على محاولته ايجاد هذا (النظام الجديد) والانتهاء اليه ٠ ومما يجب أن يذكر أن المفكرين فى هذه المواقف لا يستهدفون اعادة تنظيم العلاقات البشرية عامة ، سياسية كانت ، أو اجتماعية ، أو خلقية ، بالاكثار من الأحلام السياسية ، أو الأحلام الاجتماعية ، أو المبادىء الخلقية ، وانما هدفهم لا يتجاوز (اعادة التنظيم) ، فى قوالب مناسبة يصب فيها (النظام الجديد) ، وبغيتهم الأخيرة هو تقدم الانسان ، وتحضر الانسان ، وكمال الانسان ، فى الزمان والمكان ٠

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نختار منها أولا مثال (هوبز) Hobbes وتفكيره.فما ساقه الى شق طريق للخلاص من عناء دول أوروبا الذى لحق بها نتيجة لانتشار الحكم المطلق الشمولى فيها لم يكن سوى (الفوضى). وثانيا ، كانت الثورة الفرنسية هى تلك العاصفة الكبرى التى عصفت بأوروبا بصورة خارقة فى فرنسا وغيرها ، نتيجة (للفوضى) . ونحن جميعا مازلنا نعلم أن ذكراها تتجدد وسط كل (فوضى) أو اضطراب يصيب أى فج من فجاج العالم . وكانت هذه هى العاصفة الكبرى التى دفعت الأستاذ الكبير لعلم المنطق أكثر من ثلاثين عـاما فى جامعـة (كينجزبرج) الى البحث عـن تنظيم يصـون الانسـان والبشـر من (الفوضى) الموجعـة التى جلبتهـا السـياسة وجـرتها على العـالم وهى تتناسـى وتبتعـد ، وتتنكـر وتتجـرد من (الشرعية) و (نظرية الحق) و (القانون) ، سـواء فى الداخل أو الخارج . فهو الذى أبصر (الفوضى) وعـرفها فى مجال السـياسة ، خصوصا فى العلاقات الدولية . فالدول تتشبث دائما (بشرفها القومى ومصالحها الحيوية) وكفى ، وتحرص الحرص كله على ألا يمس سيادتها أى ماس أو انتقاص ، وأن تقف بالمرصاد ضد أى معتد عليها فى قليل أو كثير.وهذه الروح السياسيةالقوميةوخاصة الثورية لم يكن معها من اليسير أو الممكن فى بادىء الأمر ان ينبثق فيها بصيص من النور ينير الطريق لها فتفطن الى أن من شأن هـذه الروح السياسية القومية المجنونة أن تظل (الحرب) (سبيلا من سبل الحق)(٦٤) ، مثلما كانت حالة الانسان فى بداوته الأولى ، على الرغم من أن (النصر لا يحسم بحال من الاحوال مسألة الحق)(٦٥) ، وبالتالى لا تنتهى الحروب . وكان هذا،كما يبدو، هو ما دعا (كانت) الى أن يسرع بصياغة (المواد المبدئية للسلام) فى كتيبه (مشروع للسلام الدائم) ، بعدما استمع الى العقل (فى علياء عرشه) ، وهو (المصدر الأعلى لكل تشريع أخلاقى ، ويستنكر اطلاقا أن تتخذ الحرب سـبيلا الى الحق ، ويجعـل من حالة السـلام واجبا مباشرا)(٦٦) .

★ ★ ★

أجل ، فاذا كنا نقول اليوم : (ما أضخم العقل طاقة من طاقات

الانسان) ، فيجب ألا ننسى أن العقل لطاقته هذه هو القادر على الاحاطة بعدد كبير من مشاكل الانسان وحلولها . فهو صاحب القدرة الفذة على الحل الرشيد لمشاكل الانسان . ومهما تقدم الانسان بخطى المردة والعمالقة والجبابرة والجن ، فى حضارته التكنولوجية المعقدة ، فيجب ألا ننسى أنها صممت فى بادىء أمرها على أساس حاجتها الى الانســان وعقله . وستظل هــكذا مهمــا تضــخمت أو تعملقت وأثارت عنــدنا من عواصف عجب واعجاب عاتية.فالانسان هو الحيوان العاقل،الذى سيظل ذكاؤه يخدمه الى أبد الآبدين . وهو أبو الحضارة الطبيعى والشرعى . وما الحضارة الا بنت له ، وستظل عاجزة عن الخـــروج عن بنونها لأبيها ورعـــايته لهــا ، بل وسيادته عليهــا . ويجب أن نلاحظ ، أن (الكومبيوتر) مثـــلا ، مهما أظهر وقـــدم فى حيـــاة الانسان من امكانيات ، حتى لو جـــاءت متميزة مذهـــلة ، فلن يتفـــوق على (العقل) البشرى أبدا . ولن يخرج أبدا عن كونه واحد من رعية مملكة الانســـان . ولن يستغنى أبدا عن حاجته الى العقــل البشـــرى أو صـــاحب هـــذا (العقل) . فالانســـان هو الذى صنعه وهو الذى يغذيه ، وهو الذى سيظل يتحكم فيه . وهو الذى سيظل يقوده . وهو الذى ســيظل مســيطرا على (الكومبيوتر) ؛ وهـــو الذى ســيظل يستخدمه ويستهلكه . فما (الكومبيوتر) سوى عبد للانســـان ووسيلة لمعاونته،وهو عاجز عن التمرد عليه أو عصيانه.واذا كان أساس(تكنولوجيا المعلومات) هو القدرة المبرمجة على التحويل الكمى للوقائع ومتغيراته، فان (الواقع) قد أظهرنا على أن هناك مالا يقبل التحويل الكمى جزئيا أو بتحفظات خاصة . ومثال ذلك الظواهر الاجتماعية . وهذه التحفظات نفسها قد يتعذر فى الأصل ادخالها فى حاســب آلى . ألا يثبت ذلك أن (العقـــل) بذكائه الطبيعى الممتد الى حدود لا نهاية لها ، وبتفكيره المتميز بالخلق والابداع فى أسمى الصـــور واعلاها ، أوسع نطاقا وأكبر قوة وأضخم قدرة من (الذكاء الصناعى)؟ اذن ، لا مراء فى أن (العقل) سيظل الحاكم المطلق والشمولى ، والطاغية المستبد المهيمن ، على النتائج التى تصل اليها (تكنولوجيا المعلومات) . ويجب الا يغيب عنا بأية حال ، أن الغاء العقل البشرى، أو تجريده أو حرمانه من سلطاته ، سوف يكون (الطامة الكبرى) ، والخسارة الفادحة ، والضياع المؤكد للانسان.

ان (العقل) هو الذى لعب ، ولا يزال يلعب ، وسيظل يلعب ، أدواره الكبيرة والخطيرة فى حياة الانسان الذى صنع التاريخ والحضارة . وكان هو سلاح الانسان الذى امتضاه واستخدمه . وعلى نطاق أوسع كان دليله ومرشده فى عيشته ، وزعيمه وقائده فى شتى ثوارته عندما شرع فى الغضب ، وأخذ يعصى ويتمرد ويثور ، ليحقق آمالا له وطموحات،تبلورت أولا فى بلورة تطلعه الى الخروج من حظيرة حيوانيته وبداوته، ليدخل فى مملكة الانسان والانسانية والحضارة والتقدم والرقى ، والنفس منه التواقة والطموحة دائما تغريه ، بأن يكون فى حياته المقبلة الراعى والرعية ، والحيوان الراقى الذى لم يعد فى معيشته فردا حبيسا من أفراد الحيوانات ، أو فرع عشب منسى من اعشاب الصحارى والقفار . وانه (العقل) هو الذى ظل للانسان الحكم (بفتح الحاء) الذى وثق فيه وحاوره ، ورجع اليه عند الحاجة ليقيم له (بتشديد الياء الثانية) درجة رقيه التى وصل اليها وهو يتدرج على سلم الحضارة ، ويعين له الصفة التى يستحق أن يوصف بها بعدما أصبحت أظهر صفاته الثابتة وأبرزها فى رحلة رقيه وتميزه عن أفراد رعية مملكة الحيوان . فـ(العقل) مثلا هو الذى وصف الانسان بأنه (الحيوان الراقى) ، أو (الحيوان العاقل) ، أو (الحيوان السياسى) أو (الحيوان الناطق) ، أو (الحيوان المتدين) ، أو (الحيوان الاجتماعى) ، أو (سيد الكون) ، أو (الكون الأصغر) الى آخر ذلك . ويلاحظ أن صفاته المختلفة هذه ، ما كانت لتكون له ، الا لأنه (حيوان ناطق) أى صاحب (العقل) . اذ لولا (عقله) لما وصف بهذه الأوصاف ، ولما تحضر وتمدين،وما خرج من حيوانيته وبداوته وتوحشه. فهو الكائن العضوى الذى (يقوم الذكاء بخدمته)(٦٧) . ولولا (عقله) لكان شأنه شأن جميع الحيوانات الأخرى)(٦٨) . وهكذا نجد أنفسنا تتأرجح كبندول ساعة الحائط فى منازلنا بين الغريزة والذكاء ، ونجد أنفسنا فى نقرة الحيرة بين قبول أو عزوف عن معنى عبارة (دى بلانفيل) التى تقول : (أن الغريزة هى العقل الثابت ، والعقل هو الغريزة المتحركة) ! ومن ثم نتساءل : هل الغريزة مضادة أو غير مضادة للذكاء ، وهل الحيوانات ذكية وعاقلة الى درجة معينة ، اذ لو لم يكن هذا أمرها ، لكان قد قضى عليها بالفناء ؟)(٦٩) .

والآن ، ونحن فى بهو العقل ، أو بالأحـــرى فى تيه العقل مع (كانت) ، نتساءل : ومن من أساطين الفكر وقادته أشاد بالعقل وسطوته فى حياة الانسان ، سواء فى العلم والمعرفة ، أو فى الأخلاق والايمان ، وبز فى ذلك الكثيرين ؟ والجواب : لا أحد سوى (عمناويل كانت) ٠ فهو الذى أدار فلسفته برمتها حول (عقله الخالص) و (عقله العملى) ، وهما عقل واحد منظورا اليه من نافذتين مختلفتين(٧٠) ، فأثرى حياة الانسان بما يقيه ويصونه من الضعف والخواء والهشاشة ، وذلك باكسير الأخلاق الذى منحها فى الوقت نفسه صفة (الاطلاق) ، لتكون الأخلاق فى مبناها ومعناها (مطلقة غير نسبية) ، والا كان يتحم على الانسان أن يواجه مأزقا عميقا ، ألا وهو (نفى الأخلاق بحذافيرها) ، (فأما أن يكون الخير مطلقا ، واما أن ينعدم التمييز بين الخير والشر ، وليس هناك وسط بين الأمرين) (٧١) ٠ومع ذلك ففارس (العقل) نفسه قمين بأن يبين لنا أن هذا المأزق نفسه لا يتعذر الخـروج منه ، لأن (الذكاء خادم للانسان) ، اذ هو (أداة يمتد استخدامها الى مالا نهاية)(٧٢) ٠

و (بالعقل) ملأ (كانت) شتى آثاره الفكرية العالمية بكل ما وسعه من فكر نفيس وخاصة بالنسبة لأسمى النفائس وهى الأخلاق ٠ ليحفل قلب الانسان بالحق والخير والجمال ، والرضاء والغبطة والحـــب ، كأرق مشاعر وعواطف ومبادىء يحفل بها قلب ، فتوحى معا وفى وقت واحد ، ودون رؤية عين أو سمع أذن ، ومن غير كلمات وألفاظ وعبارات وجمل ، أن يفتح الانسان فى رحاب قلبه وعقله عيون (الايثار والحب والتعاطف) ؛ فتنبت أخلاق البشر وتونع ، و(لا تنتفى الأخلاق)(٧٣) أو تجف زهورها وتذبل ، بل يأخذ الجميع فى أن يوفروا لها القوة ٠ اذ (القوة الأخلاقية لا تكون ذات قيمة الا باشتراك الآخرين)(٧٤) ٠ لأن (الأخلاق كل شىء يتوقف عليها ، ولكنها لا تتوقف على شىء)(٧٥) ٠ وعلى ذلك كانت محاولات (كانت) (تخليق السياسة) مع تصويره للأخلاق بأنها (تكفى نفسها بنفســها) هى أظهر القلادات واخلدها ، وأعلاها رونقا وبهـــاء وقيمة على صدر فلسفته ، وستظل كذلك الى أبد الآبدين فى تاريخ الفكر البشرى٠ولما كان(كانت) هو الذى شحذ عقله،وأجاش قلبه،بسموها العالى وجدواها الفائقة ، بالنســبة لكمال الجنس البشرى ، كان من الطبيعى

أن يحفظها القدر بين أخلد آيات الفكر البشرى فى وجــدان الزمن . فقد قطع خواطره من فكر أصلب من الصــوان وأنفس من المــاس . ورسمها وصورها ، ونحتها وحكها وصقلها على (منجلة) العقــل ، وعلى هدى (القانون الأخلاقى) و (الارادة الصالحة) و (تقـــديس الواجب) وتدعيم (ســلام دائم) . وصاغها صياغة تراتيل الصــلاة وتسابيحها فى عبادات الأديان والعقائد . فالأخــلاق أصلا وطبعا تهز النوايا الطيبة ، والنفوس الطاهرة ، والقلوب الــكبيرة ، والعقــول المتفتحة ، وتستدر أرق معانى الصفاء ذى العبــير الزكى ، الذى يفوق اريج زهور كوكبنا وورود حين انبلاج صبح أو نهار ساعة الشروق . ولذا فكم يحلو ويطيب لنا ، أن نستعيد بعض أقوال (عمناويل كانت) ، سواء فى الأخلاق الخالصة ، أو فى كوكتيل منها ومن السياسة ، لنجـد أن مجرد ذكر بعضها أو قليل منها ، انما يشكل ابداعا أخلاقيا يتجلى فى أنفس قلادة تزين صدر تفكير (كانت). وأول هذه الأقوال الأغلى من الدرارى وأعلى منها قيمة ، قول (كانت) : « شيئان يملآنى اعجابا ، السماء ذات النجوم فوق رأسى ، والقانون الأخــلاقى فى نفسى » . وثانيها قوله : « اللــه هو الوصى على الأخلاق » . وثالثها قوله : « ان المبدأ الأخلاقى لا تخبو ناره فى الانســان أبــدا » . ورابعها قــوله : « الأخلاق تقطع فى المشكلات التى تستعصى على السياسة » . وخامسها قوله : « السياسة الصحيحة لا تستطيع أن تخطو خطوة الا بعـد أداء التحية للأخلاق » .

★ ★ ★

صب (كانت) جميع أفكاره وهو يصلى فى محــراب الانســانية داعيــا أن تقوم فى العــالم مظــلة (للســلام الدائم) ، ليستظل بها البشر جميعا . وكان من بين أفكاره النيرة والخــيرة ، ذات العطاء الرحب والخصب ، فكرته عن (عصــبة الأمم) من أجل (الســلام الدائم) ، التى ظلت مجرد فكرة مائة وخمسة وعشرون عاما ، قبل أن يجعلها (الرئيس وودرو ولسون) حقيقة عاشت بيننا فترة من الزمن . اذ كان بفطرته محبا للسلام.ولقد أبان عن هذهالفطرة أثناء رياسته لبلده (الولايات المتحدة الأمريكية) فى مناسبات عديدة ، وخاصة فى وقت

كانت تخوض فيه دول أخرى غمار صراعات وحشية من أجل النفوذ والتوسع . فأدى ذلك الى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، التى أسفرت عن أكثر من ثمانية مليون وخمسمائة قتيل وأكثر من عشرين مليون جريح . وحولت الى أطلال خربة موحشة ، كثيرا من أقليم شمال فرنسا والأراضى الوطيئة وبلاد أوروبا الشرقية . وكان من بين هذه المناسبات التى عبر فيها (الرئيس ولسون) عن تقبيحه للحرب ، حفل تخريج دفعة من دفعات (كلية أنابوليس البحرية) حيث قال : « ان غاية أمريكا أن تخدم الانسانية . وينبغى بكم كلما رفعتم العلم الأمريكى أن تدركوا أن رفع العلم معناه فى حد ذاته ، أنكم تقومون بمهمة نسيتها أساطيل بحرية أخرى فى بعض الأحيان ، ألا وهى مهمة تستهدف (الخدمة) ولا تستهدف (الغزو) » . فكان من الطبيعى أن تتعين له رسالته التى أداها حين فرضت عليه فى الحرب العالمية الأولى ومؤتمر الصلح الذى أعقبها،فساقته فطرته وكذلك خبرته بالحرب، الى أن يضع (فكرة عصبة الأمم) لـ(كانت) موضع التنفيذ فى وقت كان الناس جميعا فى أمس الحاجة اليها ، بعدما قبحت حياتهم الحرب العالمية الأولى، فابتعث هذه الفكرة، فكانت على يديه بمثابة خير معروف أغاث الانسان أكبر ملهوف الى السلام.فهو حيوان ذكى جربها فوجدها من أوجع الويلات وأقبح مباريات الانسان فى تقتيل البشر فى ساحات قطع الرقاب ، بعدما عرف أن اله (الحرب) ، لو كان للحرب اله ، ما هو الا شيطان كبير يبتلع الكثير من ضحاياه من بنى البشر . ويستولى على أضخم نصيب مما يجنونه وهم يعيشون فى كبد سعيا وراء لقمة العيش الكريمة ، فيصيب اقتصادهم الكساح نتيجة للحرب ، ويتبين لهم أن الحرب انما هى «السرطانالمميتلفريسته،ان لم تستأصله وتبعده،فأورامه الخبيثة تنمو بدرجة أسرع منالأنسجةالسليمة التى يتغذى عليها »* . وكان من أقبح ما أفزع الانسان كحيوان ذكى ، أنه لم يجد بين الاستعدادات للحرب دواء يعيد الحياة لمن قتل ، بينما هو مخلوق خلق يشتهى الخلود ويرغب فى أن يعمر ألف عام ، ورغبته فى الحياة لا تنتهى .

---

* آرنولد توينبى

ومن ثم بذل (الرئيس ولسون) كل ما فى وسعه لكى تكون الحرب العالمية الأولى «حربا لانهاء الحروب» فاهتم كل الاهتمام بفكرة (عصبة الأمم) من أجل السلام وسلامة الجنس البشرى . فوضعها « كجزء لا يتجزأ » من (معاهدة فرساى) واهتم بـ (اقرار عهد العصبة) ، وأنهى جميع ذلكفى وقت قصير . فعقدت له زعامة العالم ، ولقب (بأبى الآلهة) و (يسوع المسيح) ، فكان تنفيذه لفكرة (عصبة الأمم) من أخلد أعماله . واذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد احجمت عن الانضمام اليها وقتذاك ، فقد يعزى ذلك الى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تضعها (تحت الاختبار) . وحجتى فى ذلك ، أن الثابت أن الولايات المتحدة هى هى التى كانت أول من أسرع لكى تقوم (هيئة الأمم المتحدة) فيما بعد ، وجاءت بها هى وحلفاؤها على غرار (عصبة الأمم) فى الكثير .

وكانت نتيجة ذلك أن تألق نجم (الرئيس ولسون) فى مؤتمر الصلح هذا . فهو الرجل الذى عرف بآرائه القوية التى تعادل فى قوتها قوة جيوش من الرجال كما قيل عنه ، فوفق فى اقامة هذه العصبة التى سعىالىتنفيذها من أجلالسلام.ويكفى للدلالة علىسمو مساعيه الحميدةفى مؤتمر الصلح السابق الذكر ، أن جنوده وجدوا صوره فى أكواخ الفلاحين الفرنسيين فى فرنسا كأمارات اعزاز له فى أوروبا . وأن يردد الطلاب اسمه فى شوارع (أوسلو) باحترام وتقدير . وأن تحتل مجموعة خطبه مكانة عالية بين الكتب الدراسية فى أسبانيا . وأن تلقى رواجا عظيما فى الصين والشرق الأوسط . وأن تتابع (أفريقيا) قارتنا العزيزة تصريحاته باستمرار ، فنفوسنا نحن الأفريقيين لا تخبو فيها شعلة الحرية . وكيف تخبو وواحد منا يقول : « تكمن الحرية فى قلب كل امرأة ورجل ، وهى فى غنى عن أى دستور ، أو قانون ، أو محكمة . وعندما تموت الحرية فى قلوب الرجال والنساء ، فليس فى مقدور أى دستور ، أو قانون ، أو محكمة ، أن تنقذها ؟ » .

وبالمثل تألقت فى هذا المؤتمر (باريس مدينة النور) بدورها ، بأضواء متلألئة ، فكان لهذا المؤتمر وباريس طلعة بهية أخاذة . ولعل

ذلك يتضح للقــارىء من وصــف (الدكتــور دللون) Dr. Dillon الممتع ، والى القارىء وصفه البديع هذا* .

قال (الدكتور دللون) عن هذا المؤتمر : « لم تعــد (باريس « المؤتمر) مجرد (باريس قصبة فرنسا) ، بل أضحت محط رجال» « جمهرة عظيمة لجموع كثيرة . وصارت تزخر بألوان غير مألوفه » « من الحياة والصخب والضجيج ، وتملأ جنباتها عينات من شــتى » « الأجناس والعشائر واللغات ، جاءت تنتظر ما يأتى به الغــــد » « الغامض ، وترتقب مجرى الأمور القادمة ، وكأن لمسة من لمسات » « (ألف ليلة وليلة) قد مست جبين (مدينة النور) ، فقدمت هذا » « المشهد الأخاذ العابر ، مشهد مئات من الرجال الذين وفــدوا من » « أقطار المعمورة الأربعة ، من بلاد التتار ، ومن كردســتان ، ومن » « كوريا وأذربيجان ، ومن أرمينيا وفارس والحجاز . ورجال ذوى » « لحى مهيبة ، وأنوف مدببة ، قدموا من صحارى سمرقند وبخارى » « وواحاتها . واختلطت العمائم والطرابيش بالقبعات والقلنسوات . » « وامتزجت فى عشية الصلح الدائم المنشود البزات العسكرية التى » « ابتدعت من نماذج قديمة لجيوش لم تر النــور بعد . وامتزجت » « البرانس الرحبة والعباءات الفضفاضة والأردية الأنيقة . فعادت » « كل هذه المظاهر على خلق محيط من الخيال الحالم ، فى هــذه » « المدينة التى أصبح يعرض فيها على بساط البحث أعقد المشكلات » « وتعالج أدق الحقائق » .

★ ★ ★

ويجب ألا يضيع أبدا من بالنا أو يسقط من فكرنا أمر ذو بال ، ألا وهو أن صاحب (فكرة عصبة الأمم) هو (عمناويل كانت) لا غيره. وكل ادعاء ينسب هذه الفكرة لغير (كانت) انما هو ادعاء محض.ومثال ذلك ما ادعاه فى هذا الصدد المعسكر الأنجلو سكسونى فى انجــلترا وأمريكا . اذ (كانت) هو الذى حدد قدرة العقل ومداه فى المعــرفة والأخلاق وصنع الســلام . وهو الذى أحصى الحالات التى لا اتفاق فيها بين الأخلاق والسياسة ، وكذلك حالات الاختلاف بينها ، وذلك فى كتيبه (مشروع للسلام الدائم) . وهو الذى أثرى الفكر الأخــلاقى بما أبدع

---

* فيشر : تاريخ أوروبا

فيه ، وقدمه على مائدة الانسان كغذاء ضرورى له كل يوم ، ضرورة رغيف الخبز وكوب الماء ٠ وهو الذى جاء رسولا لـ(تخليق السياسة) ٠ وهو الذى غربل ونخل (قانون الشعوب) أى (القانون الدولى) وانتهى الى أنه (قانون مزعوم) ، و (كلمة فارغة من المعنى) وتبين له أنه يقوم على « اتفاقات تشتمل فى مادة الاستثناءات من عقد ابرامها على (تحفظ ذهنى)* ، بقصد خرقها » و (كانت) هو أكبر مهندسى (السلام الدائم) والداعين اليه ، الذى رغب فى أن يقوم على (حلف الشعوب) الذى يقضى على الحروب ، وعزف عن أن يقيمه على مجرد (معاهدة السلام) ، التى هى مجرد (انهاء حرب واحدة) ٠ وهو صاحب الدعامات المتينة العملاقة (للسلام الدائم) ، سواء من (الجمهورية العالمية) ، أو (تحالف شعوب الأرض) ، الى (النظام الفيدرالى) أى الاتحادى ، واختارها لتكون بمثابة خير حوافظ للبشر ضد الحروب على الاطلاق ، لأن (الفيدرالية) تكفل (الشرعية) ، وتكفل (الحرية) وتكفل الوفاق والاتفاق بين الأخلاق والسياسة ٠ وهو الذى حرص على كرامة الانسان وانسانيته وحريته ، فجعله فى حد ذاته (غاية) فى فردوس الغايات ، و(قيمة) فى جنة القيم ٠ وصفوة القول فى هذا الشأن ، أن (كانت) هو الذى جاء عن طريق ما أوحى به اليه (تقديس الواجب)(٧٦) عنده باللفظ الألمانى (فيلكربوند) Völkerbund (أى عصبة الأمم)، وذلك حين وجد سفينة مذهبه المتميز فى المجرى الرئيسى تجرى وتتهادى ، وتصل الى مرفأ هذه الفكرة ، فسماها بهذا الاسم٠وهو اللفظ نفسه الذى أطلق على هذه(العصبة)عندما ظهرت فى القرن الحالى،بعد وفاة صاحبها (كانت) بمائة وخمسةوعشرين عاما ٠ ويلاحظ أن جميع ما ذكرناه ثابت برمته فى كتاباته وكتيبه (مشروع للسلام الدائم) الذى نشره عام ١٧٩٥ ٠ ففى هذا الكتيب يقرأ المرء قوله : « ان العقل فى علياء عرشه ، وهو المنبع

---

* انظر معنى (التحفظ الذهنى) ص ١٢١

الأعلى لكل تشريع أخلاقى ، ينكر بصورة مطلقة ، أن تكون الحرب سبيلا من سبل الحق) . فكان مقصده المؤكد أن يرسى العلاقات الدولية لتستقر بثبات على (حالة الشريعة) لا (حالة الطبيعة) ، وقد أدرك أن تحقيق (السلام الدائم) « لم يعد أمرا مرجـوا فحسب » ، بل أصبح أيضا « أمرا يحدثه (تقديس الواجب) » . وخلاصة القول : ان (فكرة عصبة الأمم) هى فكرة (كانت) ولا سـواه ، ولم تصبح حقيقة ملموسة فى القرن العشرين الا على يدى (الرئيس ولسون) ، الذى دفعته حكمته وفطرته ودقته ، الى الا يذكر هو شخصيا اسم صاحب (فكرة عصبة الأمم) الحقيقى ، اذ هذا أمر ليس له ، وهو لن يفوت على الكتاب والمفكرين فهو من واجبهم ، وهم لن يغفلوا عن القيام به . وبالفعل أكدت كوكبة منهم أن (الرئيس ولسون) كان يحتفظ معـه بكتيب (كانت) وهو (مشروع للسلام الدائم) لقراءته اليـومية . ولا عجب فى ألا يذكر اسم (كانت) بوصفه صاحب (فكرة عصـبة الأمم) ، اذا يحتمل أن يطفىء ذلك من نجوميته وهو يتألق فى مؤتمر الصلح السالف الذكر ، بينما هو يعمل فى ظروف عالمية صعبة ومعقدة تدور حوله وتملى عليه أن يقف ببراعة فى مركز دوامتها وهى تدور حـوله بسرعة وضراوة . هذا ، وكيف كان فى امكانه أن يذكر اسم (كانت) بوصفه صاحب (فكرة عصبة الأمم) فى باريس مكان عقد هذا المؤتمر ، وهى عاصمة فرنسا ، وثمة عداوة معروفة بين فرنسـا وألمانيا توارثتها الأجيال وكانت لاتزال تتوارثها وقتذاك ؟ وكيف كان يتسنى له أن يذكر اسم (كانت) باعتباره صاحب (فكرة عصـبة الأمم) ، و (كانت) ألمانى وطنه ألمانيا بالذات ، وألمانيا حينذاك هى التى أجمع أعضاء المؤتمر والحلفاء وقادة العالم فى هذه الفترة من التاريخ ، على أنها المسئولة بمفردها مسئولية كاملة عن قيام الحرب العالمية الأولى ، بسبب روحها العسكرى ، وابتداعها لأول مرة فى أوروبا والعالم (نظام التجنيـد الاجبارى) ، ثم وضعته موضع التنفيذ ؟

وعلى كل حال ، فشلت (عصبة الأمم) لأسباب كثيرة ، كان من أهمها أن ضمير الدول كان قوميا ، الى درجـة كان بعض الحـكام يؤمنون فى قرارة أنفسهم لا شـعوريا بأن (السـيادة) أهـم من

(السلام) * . وساعد على ذلك عدم انضمام (الولايات المتحـــدة الأمريكية) الى هذه (العصبة). ومع ذلك فالولايات المتحدة الأمريكية هى التى أسرعت لتقيم من جديد (الأمم المتحدة) من بعد (عصبة الأمم) بعدما دخل العالم مرة أخرى فى (الحرب العالميةالثانية) «لانقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التى فى خلال جيل واحد ، جلبت على الانسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف » . فجاءت هذه (الهيئة) شبيهة بأمها (عصبة الأمم) وعلى غرارها فى الكثير ، وقد تكون أقبح منها فى الأكثر من هذا الكثير . وهذا ليس مكان الحديث عن هذه (الهيئة) بالتفصيل ، وهى تمارس عملها وتصـدر قـــراراتها دون أن تمثـــل ارادة الجميع حقا ، بينما الجميع ينبغى أن يمارسوا حريتهم ، خاصـة وأن كل دولة فيها تتمتع بعضوية عالمية ، ولابد أن تكون حرة . فالحرية هى التى تجعل الانسان انسانا والدولة دولة ، فنصل جميعا ومعا الى الحقيقة باعتبارها توأم الحرية ، ولا غنـــاء عنهما ، لكى ننتصر على الخطأ والضلال فى كل مجال .

★ ★ ★

واذا كانت (الأمم المتحـــــدة) لا تزال تعيش بيننا فى هــــذا القرن قرن التقدم العجيب والمذهل للهندسة والعلم ، فيجب أن يلاحظ أن هذا التقدم قد رفع بدرجة كبيرة من حاجتنا الى ضـــرورة تطويرها لخطورة مسئوليتها ، بينما العلم بتقدمه قـــد رفع من درجة احتمال دمار العالم نتيجة لتقدمه فى مجال بحوثه فى الطاقة النووية وخصائص الذرة وتركيبها ، ولما وكل هذا التقدم للانسان من قوة فاقت قوة آلهته الأسطورية كما يقال . فتحتم على العلم أن يقوم بواجب الاعـــلام عن هذه القوة المروعة ، فأحاط رجال السياسة والحكومات والشعوب علمـا بها . ويلاحظ أن العلم لا تحوم حوله شبهة من شبهات الاعلام والدعاية كالمبالغة مثلا،فنزاهة العلم معروفةومؤكدة.وهنا ضرب العلم مثلا للجميع بالقوة التدميرية للقنبلة الهيدروجينية ، التى تعادل ما ألقى على ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية خمس عشرة مرة ، وما ألقى على لندن نفســها

---

* ليونيل كرتيس

مائة مرة . وواحدة منها تكفى لمحو (باريس) محوا،وتدمير (نيويورك) تدميرا ،وتخريب (لندن) كل التخريب . وآثارها تفـــوق آثار قنبلتى (نجازاكى) و (هيروشيما) من الف الى خمسمائة ألف مرة ، وهــذه القنبلة (تزدرى الفرد)(١) .

فاذا بنتائج العلم المتقدمة فى بحـــوثه النووية تضع (السياسة) والعالم فى مفترق طرق مخيف زهيب عسير لم يشهدا مثله فى التاريخ - (فاما الى الدمار الذى لا صلاح له ، واما الى الجزاء الأوفى)(٢) ، و (اما السلمعن طريق الاتفاق ، واما الســـلم عن طـــريق غنـــاء العالم)(٣). واذا بالعلم نفسه يعانى من مفارقات كبرى ، فتقدمه فى علم الطبيعة واستخدام الذرة لم يكن يواكبه تقدم فى الأخلاق . وكان البون بين سمو المعرفة وفوضى العلاقات السياسية واسعا . ووجد العلم نفســه فى دوامة للحيرة بين مسئوليته وهى (مسئولية معرفة) لا شأن لها باستخدامها فى أغراض الخير والشر وبين(مسئوليةالسياسة) وهى مسئولية (سلطة)ليس فى المجتمع سلطة فوقها.اذ هى تجب رأى الخبراء فى أى نوع من نواحى المجتمـــع ، وتثبطه وتحبطه(٤) ، وليس فى قـــدرة أى سلطة غير (سلطة السياسة) أن تجعلها تعزف عن أن تمارس (الحكمة السياسية) التى تجعل (شرف الدولة) « فى المداومة على زيادة قوتها دون مبالاة بالوسائل»(٥)فلا تطور أسلحتها، ولا تستحوز على ماقد يكون فى مقدورها من هذه الأسلحة الذرية،حتى وصل الأمر الى حد أن سخر (الشرف القومى) للدولة ، النتائج الرحيمة والكريمة التى وصل اليها (الانشطارالنووى) و (المواد الانشطارية) فى الطب والكيمياء من أجل الحفاظ أصلا علىأرواحالناس فحسب، لتصير أسلحة للحروب الجرثومية والبيولوجية والكيميائية . وهنا يجب ألا يغيـــب عن بالنا أن ماهية

---

(١) اسكندرهادو

(٢) ونستون تشرشل

(٣) برتراند راسل

(٤) جورج كاتلن

(٥) كانت

الدولة هى (القوة) ، وأنها هى بالذات (مبحث للقوة) فى النواحى المختلفة ، وصاحبة السعى الدائب الى المزيد منها وهى تسوس الناس . وهؤلاء بدورهم مخلوقات حية ، لهم طاقات معينة من (الارادة) ، ومدى معين من (حرية الاختيار) . ومن ثم وجـــدنا فطاحل العلماء الطبيعيين تلاميذ (التلسكوب) و (الميكروسكوب) و (الالــكترون) و(الذرة) ،ومعهم غيرهممنكبار المفكرين فى هذا القرن،ينكبونعلى ايجاد حل لهذا المفترق للطرق ، فلم يجدوه الا فى (العلم السياسى) وفى واجب السياسة اليوم ، ألا وهو ضرورة تعديل سلوكها . فهم لم يجـــدوه فى (العلم الطبيعى) ، وانما وجدوا جذوره تنبت فى الدين والأخلاق . فدعوا السياسة الى أن تبتعث الحل من ضميرها ، وأن تفكر بقلبها مع رأسها ، اذ الانسان وحـــدة منهما لا تتجـــزأ ولا انفصـــال بينهما ، و (العقل وحده لا يحرك شيئا)*. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالايمان كالعلم تماما ، يتشوف النظام والسلام وصـلاح الحال . وهكذا نستطيع أن نحيل (السياسة) الآن الى (الأخـــلاق الواسعة الأفق) التى عناها (بيرك) لتحقيق (السلام الدائم) فى العالم .

وحبذا لو واكب ذلك ومهدنا له فى كل فرصة بانعاش المحيط الدولى بطوفان مستمر من (المصارحة) و (بث الثقة) ، كبدائل لـ(النفاق السياسى) و (الحذر الدبلوماسى) و (الخوف والتخوف) . فالخوف هو الذى يســـوق الى التخـــوف مـــن اســتخدام القـــوة الـــذرية واحتمالاته ، ويدعو الى أن (تتحشد الأمم للحرب) . فنحن لو أمعنا النظر فى نقطة بداية السياسة فى العالم لأول مرة ، عندما استطاع جدان من أجدادنا يسكنان الكهوف ، أن يبرما أول اتفاق فى العالم بينهما ، فى وقت كانا يشكلان فيه مع بقية جدودنا (جنسا) معينا من الحيوان، لتبين لنا أنه ما كان ليبرم هذا الاتفاق لولا أن (الثقة) كانت قد نزت فى قلبيهما فازهقت الخوف والتخوف عندهما ، فتم الاتفاق بينهما . ان الثقة هى المفتاح السحرى لحل مشاكل السياسة ، وعلى الخصوص مشاكل

---

* أرســـطو

السياسة الدولية.فلو نجحنا فى ذلك فاننا سوف لا نعود نسمع فى زماننا زمن أسلحة الدمار الشامل ما قاله المحارب البروسى الكبير (فونمولتكى) من قبل ، فى وقت كانت الأسلحة فيه تقليدية . وقوله هذا هو : «السلام حلم» و«حلم غير جميل» ، و «الحرب جـزء جوهرى فى تنظيم اللـه للكون»،وهو «فرصة يظهر فيها نبل فضائل الانسان،من شجاعة واخلاص للواجب ، واستعداد للتضحية حتى بالحياة نفسها » . ولا نعـود نسمع تصريحات تقول : « اننا لم نفكر طبعا فى استخدام هذا السلاح الرهيب ما لم يضطرنا الى ذلك عدوان لم يسبقه اسـتفزاز » . ولا نعود نسمع قولا آخر يقول : اننا لنرجو أن تستخدم الطاقة الذرية فى خدمة الجنس البشرى لا دماره ، ولكننا نشك فى خصومنا ، ولا أمان لنا الا فى أن نكون على أهبة الأخذ بالثأر الذىسيكون من غير شك رهيبا وحاسما». ولا نعود نسمع دولة تعودت السمعة والصيت تقول صراحة أو ايحاء : « فى مقدورنا أن نقهر العالم ونغزوه مع الزمن » . وانما نسمع فقط صـوتا واحدا بديلا لهذه الأصوات هو (صوت السلام) ، يعلن أن الحكم أصبح للسلام ، ولا سبيل لتحقيق السلام سوى (النظامالفيدرالى) كما قال(كانت) فى القرن الثامن عشر . وقوله هذا هو ما أكد صدقه وصـحته فطاحل العلماء وكبار المفكرين فى عصرنا ، عصر تقدم العـلم والهندسـة . فاذا بـ (الفيدرالية) نأخذ فى الانتشار فى العالم ، ويدعو اليها الكثير من المنابر،والكثير من وجوه العالم.وكان من هؤلاء أولا المؤرخالكبير(هـ.ج. ولز) الذى أيد رأى (كانت) حكيم كينجزبرج فى هذا الصدد ، فقال هذا المؤرخ بكل وضوح : « الطريق الوحيد لتنظيم سلام عالمى، انما يكون عن طريق (الاتحاد الفيدرالى) ، والطريق الوحيد للوصول الى هذا (الاتحاد) ماثل بوضوح أمام بصر الانسـان » . ومـن هؤلاء ثانيا الاقتصادى العظيم (لورد بيفردج) حين قال فى واجب السياسة اليوم « لابد من أحداث تغيير كامل أساسى فى التفكير السياسى » . كما قال مرة أخرى : « لن يستقر السـلام وتتحقق الحـرية الا عن طـريق الفيدرالية » . ومن هؤلاء ثالثـا مؤرخ الحـرية (لورد آكتـون) وهو يوضح هذا الأمر للسياسة مستشـهدا بـ« الولايات المتحـدة ، والاتحاد السويسرى ، والكومنولث الأسـترالى ، والاتحاد الـكندى ،

والاتحاد السوفيتى(١)» ، وذلك بمثابة أمثلة لطلائع (الاتحاد الفيدرالى) . ويمكن أن نضيف الى هذه الفيدرالية الآن (الاتحاد الأوروبى) الذى أخذ يطل علينا كحقيقة بين ظهرانينا فى هذا القرن.

★ ★ ★

والواقع ، أن القدر قد شاء كما قلنا أن يحفظ بالفعل ، ما أبدع (كانت) فى المعرفة والأخلاق والايمان والسلام ، كعيون لأخلد الآيات فى تراث الفكر العالمى . وحين قدم للعالم هذه الآيات ، وجدناها تشكل ذخيرة للعالم اليوم فى وقت نحن فى أمس حاجة اليها فى آننا الراهن الرهيب، بينما «الليل الاشعاعى ينذر باسدال الستار على قصة الانسان»(٢) ، و « الانشطار النووى يوسع دائرة الموت الى ما لا نهاية تقريبا ، أو على الأقل الى مساحة كبيرة جدا »(٣) ، وجعلنا « أقرب الى الهاوية مما كنا نظن »(٤) . وجميع ذلك جعل (السلام الدائم) يتطلب منا بالفعل والضرورة (بطولة خيالية) ، ويفرض على ضمائرنا « أن ننظر الى الانسان بوصفه (انسانا) كما قال (كانت) عندما فكر فى الانسان والانسانية والأخلاق ونبذ الحرب ، وتخليق السياسة لتحقيق (السلام الدائم) بعقل قوى ، وشعور قوى ، ورغبة قوية . وذلك حتى يجىء « قرار السلام ثمرة لاحترام الانسان » ، فى وقت حرج لم تعد فيه فرصة للسلام ، أو للسياسة ، أو للعالم ، الا عن طريق (الأخلاق) . فالأخلاق هى التى « تقطع فى المشكلات التى تستعصى على السياسة » كما سبق القول ، وعن طريق الايمان أيضا الذى يفرضه علينا تقدم العلم . فالايمان من أجلى الصور وأحلاها التى يتجلى بها الله على الكون . وكذلك عن طريق المثل العليا ، وهذه ينبغى بنا ألا نعتبرها بمثابة خيالات وأوهام مقطوعة الصلة بواقعنا الذى نعيش فيه . فهى فى حقيقتها حلول

---

(١) سابقا

(٢) جلبرت ملك آلستر

(٣) هانسارد

(٤) روتبلات

لمشاكل كثيرة تقتحم حياتنا ، ونحن نصوغها من (حقائق) تعيش معنا ونعيش بها ، ولها مواقعها بالفعل على خريطة حياتنا .

★ ★ ★

وأخيرا لا يفوتنى فى هذا المقام أن أتساءل عن خاطر يتردد فى نفسى باستمرار ترددا لا يفارقنى ، وعسى أن أجد له جوابا طيبا مقنعا خيرا من أجابتى عليه،وهو يفرض نفسه على ويقول : الام تظل (السياسة دون (الأخلاق) تدير البشر ، ولهـــا الكلمة العليــا فى كل مكان ، وهى سيدة كل عصر وزمان ، ولا علم لكائن من كان متى وايان تغـدو (الأخلاق) بالذات (السيدة الأولى) التى تتقـدم كل موكب فى تاريخ الانسان ، وتمسك المشعل فى يدها وخلفها (السياســة) بالذات تتبع خطواتها ، وتمسك ذيل ثوبها ؟ اما جـــوابى فهو : هـــذا ما كان ، فالانسان بطبعه (حيوان سياسى) . هـــذا ، والتاريخ لا يزال يقول لنا : فى غضون حضـــارتنا ذات الخمســة أو الســتة آلاف عـــام ، ان ثمة صـــراعا أزليــا أبديا بين (عـــالم الطبيعة) و (عـــالم الأخـــلاق) . ولا يدرى البشـــر من من هـــذين المتحاربين سيكتب له النصر ، ومتي يكون ذلك ، وأين مرسى ذلك ، ومتى يقع ويبـــدأ ، ومتى ينتهى ! وهذا ما سبق أن تساءلناه(١) وقلناه . وكل ما نتمناه أن توفق (الســـياسة) وهى تسوس « النوع البشـرى المحب للرياســة والظلم والقهر ومحبة المال والجـمع والتمول(٢)» وغير ذلك ، حتى لا يقع بينهم « تباغض وتعـــاد على حـــب الغلبـــة ، « فتتقـــد نار الفتن بينهم باهلاك القوى منهم الضعيف على نيل المراد من مال ومحبوب وغير ذلك ، والأقوى من القوى،فيهلكون عن آخرهم »(٢)، (وقد ضرب بعضهم وجوه بعض بالســـيف) . لذا كانت من حكمة

---

(١) يحسن بالقارىء أن يرجع الى ص ٩١ من كتابنا هذا

(٢) رسائل فلسفية : جمعها ب. كراوس ، الباب الحادى عشـــر ، وعنـوانه (المناظرات بين الرازيين) ، ص ٣١٥ ، ص ٣١٦ ، نشر المكتبة المرتضوية ، ســـوق بين الحرمين ، طهران

اللـه الحكيم ، « أن يحفظهم جميعهم بتقنين رسوم وسـنن بينهم ، تتحفظ بها دماؤهم ، وبالجرى على منهاجها والأخـذ بها من جهة من يختاره من بينهم فيجعله رئيسا لهم » ٠ « وكان هـذا هو الواجـب فى الحكمة من دون أن يتركهم مهملين »(١) ٠ ومن هنا كانت (السياسة) بمثابة أول مبحث يخص الانسان من أجل قيادة الانسان نفسه والسيطرة عليه ٠ وهو صـاحب (طاقة من الارادة) ، ومـدى (من حـرية الاختيار)٠ هذا ، وفى الوقت نفسه انطوت (السياسة)على الرأى والنظر، والمناقشة والحوار ، ووزن الوسائل والغايات والقيم وتقديرها ٠ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهى مبحث لكسب المزيد من القوة للسـيطرة على الانسان نفسه(٢)٠ فالانسان فى جوهره حيوان لا يدانيه أو يعادله أو يفوقه أى حيوان فى جرأته حين تحدى القدر نفسه ٠ وهـو لا يتوقف أبدا عن محاولة السيطرة والتحكم ٠ أليس هو الحيوان الذى وثب على أخيه الانسان ، وانقض عليه وتغلب ، بعدما كانا قد سيطرا معا من قبل وانتصرا معا على (الطبيعة) وأخـذا يقيمان معا (الحضـارة) ؟ ولكنه أصبح (حربا) على أخيه فى نهاية الأمر ؟

---

(١) المصدر السابق

2. George Catlin

هـــــوامش

(١) د٠ زكريا ابراهيم : (كانت) ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصر ، ص٥٤،ص٥٥

(٢) د٠ عبد الرحمن بدوى : فلسفة الدين والتربية عند (كانت) ، طبعـــة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص ١١

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠ (٤) المصدر السابق ، ص ١٠

(٥) المصدر السابق ، ص ١١ (٦) المصدر السابق ، ص ١١

(٧) د٠ زكريا ابراهيم : (كانت) ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصر ، ص ٣٦

(٨) المصدر السابق ، ص ٥٨

(٩) د٠ عبد الرحمن بدوى : فلسفة الدين والتربية عند (كانت) ، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص ١٢١

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٢٦ (١١) المصدر السابق، ص١١٢

(١٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ (١٣) المصدر السابق ، ص ١١٤

(١٤) المصدر السابق ، ص ١١٥ (١٥) المصدر السابق ، ص ١١٦

(١٦) المصدر السابق ، ص ١١٥ (١٧) المصدر السابق ، ص ١١٥

(١٨) أفلاطون ، أنظر : جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، الترجمة العربية ، للأستاذ حسنن جلال الدين العروسى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ،ص٧٣

(١٩) ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين محمود قاسم والسيد البدرى ، ص ٢٥٢ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية

(٢٠) جورج سباين المصدر السابق ، ص ٧٣

(٢١) المصدر السابق ، ص ٧٣ (٢٢) المصدر السابق ، ص ٧٢

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٧١ (٢٤) المصدر السابق ، ص ٦٤

(٢٥) ليفى بريل : المصدر السابق ، ص ٣١١

(٢٦) جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، الترجمة العربية ، للأستاذ حســن جلال الدين العروسى ، طبعة دار المعارف ، ص ٧٣

(٢٧) ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين محمود قاسم والسيد البدرى ، طبعة مكتبة الأنجلو لمصرية ، ص٢٦٢ ، ص٢٦٣

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ (٢٩) المصدر السابق ، ص ٢٦٣

(٣٠) جورج سباين ، المصدر السابق ص ٧٤

(٣١) المصدر السابق ، ص ٦٣

(٣٢) د. عبد الرحمن بدوى : فلسفة الدين والتربية عند (كانت) ، ص ١٦٧
(٣٣) د. زكريا ابراهيم : (كانت) ، طبعة مكتبة مصر ، الطبعةالأولى ،ص(٢٠٤)
(٣٤) كانت : تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق،الترجمة العربية ، للدكتور عبد القادر مكاوى ، المقدمة ص (ر) ، الكويت
(٣٥) المصدر السابق ، ص (و)
(36) The Natural Principal of the Political Order considered in connection with the Idea of a Universal Cosmopolitan History
(37) Eternal Peace and Other Essays, Boston, 191,p.14
(38) Gooch : Diplomacy and Statecraft, Ch. IV. p. 328
(39) Eternal Peace and Other Essays, Boston, 191,p. 17
(40) Ibid, p.58
(٤١) كانت : مشروع للسلام الدائم ، الترجمة العربية ، للدكتور عثمان أمين ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٦٣
(٤٢) المصدر السابق ، ص ١٧ (٤٣) المصدر السابق ، ص ٤٤
(٤٤) المصدر السابق ، ص ٤٥ (٤٥) المصدر السابق ، ص ٤٥
(46) George Catlin : The History of Political Philosophers, p. 415
47) Kant:Critque de la Raison Pratique, trad. Francaise, Picavet, 1906, p. 286
(٤٨) كانت : مشروع للسلام الدائم ، الترجمة العربية ، للدكتور عثمان أمين ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٢٣
(٤٩) المصدر السابق ، ص ٩١ (٥٠) المصدر السابق ، ص ٩٢
(٥١) المصدر السابق ، ص ٩٤ (٥٢) المصدر السابق ، ص ٩٥.
(٥٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ (٥٤) المصدر السابق ، ص ١٠٦
(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٠٧ (٥٦) المصدر السابق ، ص ١٢٣
(٥٧) المصدر السابق ، ص ١٢٣ (٥٨) المصدر السابق ، ص ١٢٥
(٥٩) المصدر السابق ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣
(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٩ (٦١) المصدر السابق ، ص ١٠٩
(٦٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ (٦٣) المصدر السابق ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦
(٦٤) المصدر السابق ، ص ١٦ (٦٥) المصدر السابق ، ص ١٥
(٦٦) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ص ٥٦

(٦٧) ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين محمود قاسم والسيد البدوى ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٣٢٧

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ (٦٩) المصدر السابق ، ص ٢١٢

(٧٠) د. زكريا ابراهيم : كانت ، طبعة مكتبة مصر ، ص ٤٩

(٧١) ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين ممود قاسم والسيد البدوى ، طبعة مكتبة الأنجلو اصرية ، ص ٣٠١

(٧٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ ، ص ٢٦٣

(٧٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٨ (٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٨ ، ص ٢٩٩

(76) George Catlin : The History of Politcal Philosophers, p. 413

الفصل السادس

عينات ونماذج

ساحر ، وكاهن ، ومارد

فلك التاريخ يمخر عباب الحياة فوق لجة الزمن ، وينساب مسرعا أو متباطئا بين شاطئين ، شاطىء الأعيـــان والتجـــارب والوقائع ، وشاطىء الأذهان والمثل والقيم • والعقل دائما قلق ومتحفز للبحث عن الحقيقة ، فى منأى عن اطلال الخطأ فى قفار الأوهام والأساطير ، وبعيدا عن كهوف الرجم والتخمين ، دون أن يكل أو يمل ، أو حتى يصـغى الى قول يقول : « ان ما لم يتحقق حتى اليوم لن يتحقق أبدا » •ولكن مهما تميز عصرمن عصور الفكر بسيادة مذهب فكرى معين ، فان المذهب المضاد لا يعدم فى العصر نفسه أنصارا له وأتباعا ، فلا تنتهى المعارك، اذ « المعارك لا تنتهى الا حين لا يبقى هنـــــاك مقاتلون » • وبطبيعة الحال ، لم يكن الفكر السياسى بمعزل عن ذلك • فظهر على أرضـــه معسكران ، كان (نيقولا مكيافللى) من أعلى قمم المعســكر الأول وهو معسكر التاريخ ، وكان (عمناويل كانت) قمة القمم فى المعسكر الثانى وهو معسكر الفلسفة •

وعلى فلك التاريخ صعد ثالوث متميز من ســـاحر ، وكاهن ، ومارد • وكان الساحر هو (بنيامين دزرائيلى) ، والكاهـــن (وليم ايورات جلادستون) ، والمارد (أتو فون بسـمارك) • وكان الثلاثة أصحاب قدرات فائقة ، صعدوا على سلمها فى القرن التاسع عشــر الى أعلى مكانة فى الحياة السياسية فى أوطانهم وأوربا • وهذا القرن كان « قرن الاصلاح » من ناحية ، و « أكثر القـــــرون حيوانية وجهنمية

وقبحا ، وواقعية وشعبية » وذلك من ، ناحية أخرى • وفيه أبدع كل من هؤلاء الثلاثة (سيمفونية) خاصة به ذات أنغام وألحان شتى اختارها ونسق بينها ، وخص ذاته بأن يكون هو فحسب (مايســـترو) لجوقة من أختياره هو تقوم بعزفها ، حتى يجيء ايقاعها كما يهوى ســـاحرا كسحر التعاويذ ليسحر شعبه ويطربه ويسعده ، اذ السعادة هى الغاية من السياسة كما هو معروف •

★ ★ ★

وفى (بلاد الجن) التى حرستها (عروس الجن) أى (الملكة فكتوريا) ، يطول الجدل حول (مدرســـة التاريخ) و (مدرســـة الفلسفة) ، ويختار (دزرائيلى) المدرسة الأولى ، ليقتحم منها حلبة السياسة • بعدما انتقى لها أسلحة ثقيلة ، الا أنها كانت لامعة براقة ، أودعها جـــرابه ، تجمـــع بين (ضـــرورات سياسية واعتبـــارات تجعل الأمم عظيمة) ، وأفكار أخرى لابد من أن تواكبها • فكان منها أن (الأمة عمل فنى صاغه الزمن ، ولها مزاج كمـــزاج الأفـــراد) • و (حقوق الانجليز) لها الأسبقية على (حقوق الانسان) • و (الأمة ليست بأمر نظرى يمكن استنتاج حقوقه بمجرد التفكير العقلى فيه) • و (انجلترا لن تكون شيئا مذكورا الا وهى مركز لامبراطورية عظيمة) • وبالاضافة الى ذلك ، كانت فكرته التى تقول : ان (كل ماله مظهر الحق ليس هو الحق دائما) • ويعلق (كاتب أوربى) على هذه العبارة فى كتابه عن (بنيامين‌دزرائيلى) قائلا : وكان بوسع (دزرائيلى) أن يضيف الى هذه العبارة عبارة أخرى تقول : وماله مظهر الأخلاق ليس دائما من الأخلاق •

أما (جلادستون) فقد ولج ساحة السياسة من باب (مدرســـة الفلسفة) ، فى جـــد كجد الملائكة الرزين الأخاذ ، متأبطا (ســـفر الفلسفة) و (انجيل أنوار الالهيات ومملكة السماء) • وكانت النية منه معقودة على مناصرة العدالة والحرية ، والاستجابة لكل نداء لهما يصدر من أى فج من فجاج العالم • فمدت انجلترا يد المســـاعدة الى ايطاليا لتحقق وحدتها القومية فى ظل (آل سافوى) ، فانفضحت مخازى الظلم

الذى دنس العدالة فى نابولى ٠ وظهر مقت انجلترا لسلطة الاكليروس فى ايطاليا ٠ وفضلا عن ذلك ، كان (جلادستون الكاهن) قد قـــدم خدمات جليلة خالدة أخـــرى لبلاده أثناء وزارته الأولى ، من نظام التعليم الالزامى ، ونظام الاقتراع السرى ، وتحرير الجامعات من نير القساوسة ، ووضع حد لنفوذ الكنيسة الانجليكانية فى آيرلندا ٠

★ ★ ★

فشهدت انجلترا فى (العصــــر الفكتورى) صراعا ناريا بين (دزرائيلى) و (جلادستون) ، دفعهما الى أن يخطىء الواحـــد منهما فى حق خصمه السياسى ، سواء وهو على كرسى الحـــكم أو فى خندق المعارضة ، ويصفه بأوصاف غير مستحبة سوف نورد بعضـا منها فيما بعد ٠ ولكن الحقيقة أن كلا منهما كان حريصا على ألا يصدر منه قرار أو رأى ، يجلب للشعب حشفا لا تمرا ، أو يسد عليه طريقا من طرق حريته وديمقراطيته ، أو يقوض صرحا من صروح عـــدالته أو يلوث حكما من أحكامها ، أو يهيل التراب على مورد من موارد لقمـة عيشه ٠ اذ كانت غاية الغايات عندهما معا ، أن يصـــونا (اســتقرار انجلترا) ويحافظا عليه وعلى جميع الطـــرق التى تؤدى اليـــه ، حتى لا يضيع الاستقرار من بين قدمى وطنهما ٠ فدأبا على العمل من أجل مصلحة الشعب فى اطار الحرية والعدالة والرخاء وغيرها من الركائز الأولى للاستقرار ٠ وذلك منذ ساقتهما طموحات الشباب الى العمـــل السياسى ، ووضع كل منهما خوذة هذه المهمة فوق رأســـه ، وانتضى ســـيفها فى يمينه ، مع ولائه القومى النقى المتلألىء كضـوء القمـــر ، والقوى كنـــور الشـــمس ٠ وهذا حال بين أى منهما وبين أن تصيب الاستقرار فى هذه الجزيرة على يديه مجرد شرارة من شرارات الطموح السياسى أو الخلاف الحزبى ، عندما كان هذا أو ذاك يفتح نيرانه على خصمه بين دق الطبول ونفخ الأبواق ٠

فرجل الحكم أو الدولة لا يستطيع بأى حال أن يخطـو خطـــوة الا اذا كان الاستقرار كحقيقة الهواء الذى يعيش فيـــه وبه ٠ فهـو أول الضرورات الحتمية فى هذا الشأن الذى ينبغى لهمـا أن يكـــونا على

دراية ومعرفة واسعة بعوامل اقراره ، بادراكهما له . وكذلك بالطبيعة البشرية ، والسلوك الاجتماعى للمواطن وعلاقاته بمن حوله ، وفكرته عن الحياة فى جملتها . والنتائج التى يمكن أن يؤدى اليها التفاعل المستمر بين طبيعة البشر وسلوكهم من ناحية ، وفكرتهم عن الحياة وأمانيهم فيها . والعلاقة بين المواطن والمواطن ، وصلة هذه العلاقة بطبيعة الحكم وواجباته وأهدافه التى يجب أن تتحقق .. الى آخر ذلك.

ونظرا للمسئولية الكبرى لكل من (دزرائيلى الساحر) و (جلادستون الكاهن) عن امبراطورية لم تكن الشمس نفسها لتغيب عنها ، لم يغفل أى منهما عن الدور الذى يلعبه (الاستقرار) فى حياة الدول عامة ، أو على الأقل فى حياة انجلترا فى عهودها السابقة . وكان لهذا مثالان من أبلغ هذه الأمثلة وضوحا وتوضيحا .

فأولا ، عندما وليت (الملكة اليزابيث) (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) الحكم فى انجلترا مهدت لحكمها بقدراتها الشخصية الفذة لتثبت أنها جديرة حقا بالتاج البريطانى ، وأنها ملكة لدولة عظمى . وذلك بالحرص بادىء ذى بدء ، على أن يخيم الاستقرار والوحدة والسلام على بلدها ، بحلول قامت بها بالنسبة لمشاكل انجلترا ، فاجأت بها أعداءها فى الأوقات المناسبة ورمت بهم فى هوات الحيرة والارتباك ، فخلصت بلادها من مشاكل عديدة كانت تحاصرها . فلم يكن يغمض لها جفن وهى توحى وتشجع وتدفع بالسفن المسلحة الانجليزية لصد النفوذ الأسبانى فى العالم الجديد. اذ هى حين وضعت التاج على رأسها كانت انجلترا تترنح من الضعف فى قوتها الحربية والبحرية، بينما سيادة البحار معقودة لأسبانيا، وثمة سيادة بالذات لها على انجلترا واضحة ، على الرغم من تحالفها ! فنفوذ انجلترا فى آيرلندا قد زال ، والمناوشات على حدود اسكتلندا لا تنقطع ، والنزاع الدينى طاحن شديد. ولكن هذه الملكة لم تقف مكتوفة الأيدى، وانما كانت تنقض فجأة من حين الى حين بجرأة محسوبة لتضفى الحركة والحياة والاستقرار على بلادها فى جميع نواحى حياتها الاجتماعية والسياسية، والعلمية أيضا ، حتى قيل عن عهدها انه « عصر النهضة » فى انجلترا ، وبداية عصر انجلترا الحديثة كدولة كبرى وقوة عالمية ، فى حمى بحر المانش حارس انجلترا الأمين ، والمعلم القدوة لأبنائها . فاذا بها تقضى

على الخلافات ، وتخمد الاضطرابات ، وترسى قواعد الكنيسة فى انجلترا ، وتضع الحدود لدسائس البابا وأسبانيا ضد انجلترا ، وتعيد تنظيم الأسطول لتصبح السيادة فى البحار لانجلترا.

ويجب أن يلاحظ أن النزاع كان حامى الوطيس بين انجلترا وأسبانيا فى عهدها ، كما كانت كراهية الانجليز للأسبان شديدة، وكان ذلك مع قيام حركة الاصلاح الدينى واعتناق انجلترا للمذهب الأنجليكانى ، بينما أسبانيا تتزعم الدفاع عن الكاثوليكية . الا أن عهدها كان عهد ملاحين عظام مهرة من أمثال (همفرى جلبرت) ، و (السير والتررالى) و (السير فرنسيس دريك) ، و (اللورد هوارد) و (هوكنز) و (كافندش) . والأول هو الذى منحته «حق الاستيطان والامتلاك لجميع الأقاليم النائية التى يقطنها وثنيون ولا يمتلكها أمير مسيحى » . وهو الذى خرج مع مهاجرين انجليز عام ١٥٨٣ ، ليستعمر بهم (نيوفوندلاند)، ولكنهم عادوا جميعا الى انجلترا بسبب البرد القارس فى الشتاء . وهو بالمثل صاحب العبارة المشهورة المأثورة عنه التى تقول : « ما استحق أن يعيش على الاطلاق ، من يجافى خدمة بلاده ، أو شرفه ، خوف الخطر والموت ، اذ الموت محتم ، وانما ذكر الفضيلة خالد » . أما ثانى هؤلاء الملاحين العظام المهرة ، فقد عهدت اليه هذه الملكة فى ٢٥ مارس ١٥٨٤ ، باكتشاف واستيطان واستعمار منطقة كبيرة فى أمريكا الشمالية ، من (سانت لورنس) شمالا حتى (فلوريدا) جنوبا . وانتهى الأمر باقامة مستعمرة (جزيرة رونوك) فى (فرجينيا) . وذلك بعد وفاة (همفرى جلبرت) بستة شهور . وثالث هؤلاء الملاحين العظام ، كان هذا الذى قاد (كلاب البحر الاليزابيثية) Elisabithian Sea Dogs ضد مراكب الأسبان ، للاستيلاء على حمولتها من الذهب والفضة عند عودتها من مستعمرات أسبانيا وأملاكها فى العالم الجديد فى أمريكا الوسطى والبحر الكاريبى.وهذه المناطق هى التى كانت قد اقتحمتها وغزتها أسبانيا من أجل (الذهب والأرض والعبيد) . ورابع هؤلاء الملاحين العظام المهرة كان كوكبة من (هوكنز) و (هوارد) و (سيمور) و (السير ونتردريك) أبطال الدفاع عن جزيرتهم ضد الغزو الأسبانى لها، عندما حاول ملك أسبانيا الانتقام من (الملكة

اليزابيث)، فأرسل لذلك أسطوله الضخم (أرمدا) وقوامه ١٣٠ سفينة • ولكن الانجليز ، ومليكتهم التى دأبت على توفير الاستقرار بحذافيره لبلادها ، وبـ(القراصنة المحظوظين) الذين مـر ذكرهم ، وبمراكبهم الخفيفة والسريعة حطموا الأسطول الأسبانى • وكان عدد سفن الأسطول الأسبانى التى أسر (السير فرانسيس دريك) على تحطيمها بمفـردہ (٣٧) سفينة ! وعندما سمعت هذه الملكة بهذا الانتصـار ، وتحطيم العواصف لما بقى من سفن (أرمدا) التى لم تتحطم ، حمدت اللـه قائلة : أرسل الله رياحه ففرقتهم • وهكذا قضت انجلترا فى هذه الفترة من تاريخها على قوة أسبانيا البحرية ، وقدرتها على منازلة انجلترا فى مغامراتها البحرية ، ومغامراتها التجارية ، ومغامراتها الامبراطورية أيضا ، فأخذت انجلترا تؤسس مستعمراتها !

ولا عجب ، فهذه الملكة كانت بحق ثاقبة الفكر ، فذة فى نشاطها وجرأتها ، متفانية فى عشـق بلادها وخـدمتها ، فاذا بالمؤرخين والكتاب يعتبرونها (صاحبة العصر الذهبى) ، ويردون جميـع ذلك الى شخصيتها وثقافتها ، وهندسة حكمها الدقيقة ، وما اقامته منذ أول وهلة من جسور الاستقرار على أعمدة التعـاون والمودة مع الشـعب وبرلمانه ، والحرص على التوازن بين سـلطتها كملكة وبين سـلطة الشعب الخالدة • والأعجب أنهـا حققت ذلك فى فـترة لم تـكن الديمقراطية قد توطدت فى انجلترا • فالبرلـان الانجليزى لم تتوطد سلطته الا فى أواخر القرن السابع عشر ، عندما لم تعد لأى سلطة أخرى فى انجلترا أن تتحدى سلطة برلمانها من قريب أو بعيد •

هذا وكان اتجاه خط هذه الملكة آخر (ملوك التيودور) فى الحكم غير خط هؤلاء الملوك الذين كانوا يمارسـون الحـكم فى انجـلترا على أساس نظرية (الحق الالهى المقـدس للملوك) ، وهم (ملوك الاستيوارت) الذين كانوا يحكمون استنادا الى هذا الحق المقـدس ، فأدى بهم ذلك الى القهر المروع ، والطيش الأخـرق ، والافتقار الى الاستقرار بظلاله الوارفة الظليـلة ، بسـبب مواجهات بين (ملوك الاستيوارت) هؤلاء وبين أعضـاء البرلـان وهم يطالبون بحقوقهم الدستورية ، وبحقوق القضاء فى الاستقلال • وهذا ما حدث فى هـذا

الشأن عام ١٦٢٠ فى صورة احتجاجات وصراع بين (ملوك الاستيوارت) وهم يحكمون ويتصرفون على أساس حقهم المطلق ولا سـواه ، وبين الرعايا والشعب الذين كانت عقيدتهم الراسخة لا تدور الا حول فكرة أن الملوك ينبغى بهم أن يفوا الوفاء الكامل بوعودهم ، وأن يحافظوا على حرمة القانون فى بلادهم ٠

ويوضح ذلك مثـالان من تاريخ انجلـترا ٠ فأولا ، عنـدما عارض رجل القانون الضليع (السـير ادوارد كوك) الملك (جيمس الأول) فى بعض القضايا ، صرخ هذا الملك قائلا لـ (السـير ادوارد كوك) : اذن فأنا تحت القانون ، وتقرير هذا المبـدأ خيانة وطنية ؟ ولكن (كوك) أجاب الملك بشجاعة وحكمة وحـلم قائلا له : (نعـم يا سيدى ، أنت خاضع لله والقانون) ! ٠ وثانيا ، ففى عام ١٠٦٤ ، أثناء حكم الملك شارل الثانى ، ذهب هذا الملك بشخصه ألى المجلس النيابى، لالقاء القبض على خمسة من أعضائه عرفوا بمعارضتهم له ، ولكن لم يجدهم ٠ فسأل رئيس المجلس عنهم ٠ فـكان جوابه على سؤال الملك هو : « مولاى ، لا ترى عيناى الا ما تراه عيون أعضاء هذا المجلس ٠» « ولا تسمع أذناى الا ما يقولونه ٠ ولا ينطق لسانى الا بما تنطق به » « ألسنتهم ٠ وليس عندى ما أقوله غير ذلك » ٠ فاذا بالملك يلوذ بالصمت وينصرف ، دون أن يعرف مكان هؤلاء ليقبض عليهم ٠

وثانيا ، حين نصل الى الحديث عن المثل الثانى الذى كان لابد من ألا يغفله أى من (دزرائيلى) أو (جلادستون) نظرا لأهمية الاستقرار فى حياة انجلترا فى عهودها انسابقة ، نقول : عندما أصبح الاستقرار سمة عامة بارزة لنظام الحكم فى بريطانيا ، دأبت انجلترا بفضله على اصلاحنفسها والمحافظة على هذه السمة،فصار نظامالحكم فيها حديثالعالم عامة وموضع اعجاب الكثيرين ، وعلى الخصوص فى فرنسا ، وكذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية وهى تسترشد بمبادئه ليقرروا نظام الحكم فى بلادهم بعد استقلالها٠ اذ أصبح يطلق على انجلترا بفضل نظامالحكم فيها نتيجة للاستقرار (أم البرلمانات) قاطبـة ، وأصبح يطلق على برلمانها فى القرن التاسع عشر (البرلمان الزاهر)٠ وهذا هو القرن الذى فى غضونه صعد (دزرائيلى السـاحر) و (جلادسـتون الكاهن)

و (بسمارك المارد) على فلك التاريخ . وجدير بالملاحظة فى هذا المقام ، أن الديمقراطية فى أسمى صورها استلزمت معها حينذاك أن يتولى بالفعل القضاء فى انجلترا «قضاة اتصفوا بالشدة والجهامة والجرأة، وتخور فى حضرتهم عزائم الجميع » . وكان ذلك كضرورة حتمية لتأكيد الديمقراطية وتدعيمها فى انجلترا فى حمى القانون ، فتتحقق الحرية والعدالة فى الواقع بصورة أكيدة ، وبالتالى ينطلق نشاط كل مواطن فى نظام واطمئنان ، ويحس بالأمن والأمان . فملأت الحرية كل مكان ، وملأت نسماتها صدر كل انسان ، وظل الاستقرار بفضل العدالة والحرية ركيزة ثابتة فى انجلترا على مر الزمان . ويلاحظ ثانيا أنه فى جو نظام الحكم هذا « تمرس الناس جميعا فى بريطانيا حكاما ومحكومين قرونا على ممارسة الحكم». فاذا بمدينة (لندن) العاصمة أيضا فى مدى معين غير بعيد، ونتيجة لسيادة الحرية والعدالة والنشاط والعمل والانتاج، تصبح « مركزا لمجتمع راق ، وحكومة ، وتشريع ، وسياسة ، وصناعة، وتجارة».واذا بنهر(التايمز)بعد فترة معينة غير طويلة«يشهد مايزيد على ألفى شراع من كل الأنواع ، وهى تحمل ثلاثة أرباع تجارة هذه المملكة » . واذا (بالصوف) قوام ثروة هذه الجزيرة الصغيرة يبلغ ربع جملة صادراتها عام(١٧٠٠).واذا بضرورات الحياة ورفاهيتها بالذات تتوفر بفضل التجارة والصناعة . واذا بكنوز انجلترا تتدفق من التجارة الخارجية . وبذلك وغير ذلك فى هذا الشأن ، صنع أبناء هذه الجزيرة الصغيرة حكاما ومحكومين حضارة لانجلترا ، من عقر دارهم . ولا عجب ، فالدول والأمم تسعى بل تصبوا الى أن يكون لها حضارة وتاريخ ، فالتاريخ أمر مقدس ، والحضارة فضيلة كما يقال ، الا أنها كفضيلة لا تذكر عادة بلفظها بين فضائل دستور مملكة الأخلاق .

ولتوضيح الوشائج بين الاستقراروالعمل والانتاج والحضارة ، ثم الخلود الحضارى فى النهاية نتيجة لذلك ، كما أشرنا الى ذلك فيما سبق نقول : لا مراء فى قول يقول : ان (العمل) فى حياة الانسان يكاد أن يكون (كل شىء) ، بل هو فى الحقيقة والواقع (كل شىء) كما قال أحد الملوك فى شبه الجزيرة الاسكاندينافية. ولكن لا(عمل) بدون (استقرار) . فالاستقرار فى حياة النوع البشرى عتبة (العمل)،

والعمل والانتاج بدورهما عتبة الحضارة والتاريخ. فبالابداع والاتقان فى العمل يدخل الانسان فى الحضارة والتاريخ ، ويفوز بهـــذا النوع من الخلود. المتاح للانسان، فيضفيه على اسمه بعدما عمل وانتج وابدع واتقن فى عمله ثم يحصل على هذا الخلود. ولذلك ومن أجل صالح الناس، كان من حكمة الله أن جعل هـــذا النوع من الخلود فى حياة البشر وليـــد الاستقرار بأن أناط تحقيقه بالانسان كواجب مفروض عليه دون غيره ، ويسر له السبل لتحقيقه لصالحه ، وهيأه وأعده له . وذلك بأن خلق اياه (حيوانا عاقلا) و (حيوانا اجتماعيا) و (حيوانا سياسيا) ، ليفطن الانسان بعقله وخبرته، وهو يعيش بصورة حتمية فى مجتمع مع غيره ، ويتدرج على سلم التطور ، فيعرف ويلمس أن «فكرة المجتمع» و «فكرة الحكومة» تتضمن الواحدة الأخرى »* ، وأن « وجود الحكومة » يظهر « بصورة تلقائية »* ، وأن وجود الحكومة نفســـه « ضرورة حتمية »* . وهنا يسفر (الاستقرار) عن نفسه للانسان على أرض (الســـياسة) تحت أعلام « حكومة » . ويتضح له فى الوقت نفســـه أن حاله قد أخـــذ ينصلح مع ولوج (الاســـتقرار) فى المجتمع ، وأصبح الانسان يعيش فى (استقرار). ويزداد الأمر وضوحا، عندما يقارن الانسان حالته الجديدة هذه بحالته عندما كان يعيش مع غيره من قبل فى (فوضى) (لاسراة لهـــم) . ونتيجة للاســـتقرار فى المجتمـــع يتـــاح للجميـــع أن يعملوا ، وأن يعمل أى فرد (عملا) ، أو يقيم (شيئا) ينسـب اليه وهو حى يرزق ، ويذكر به بعد مماته ، وذلك (غـــير الزوجـــة والولد) . فاذا بهذه الذكرى التى يقيمها الفرد بالعمل ويرفعها وينشرها لنفسه قبل موته ، تقوم بالفعل مقام (عمر ثان) له ، وتلعـب بعـــد موته دور نوع معين من خلود واحد له ، هو (الخلود الحضارى). وهذا الخلود نسبى غير مطلق. وفى امكان الانسان أن يحصل عليه وأن يضفيه على اسمه واسم دولته، أو هما معا . وذلك على عكس (الخلود المطلق) الذى تطلع اليه واشتهاه منذ أن خلق ، عندما شاهد تـكرار زوال الأمم والأقطار ، وتكرار موت القـــــادة والملوك والرؤساء ، والأبطـــال

---

* ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية للدكتورين محمود قاسم والسيد محمد البدوى ، الباب الثالث ، (الاستاتيكا الاجتماعية)

والرواد ، فسمى (الموت) (الظلم الأكبر) ، وسمى (الآخرة) (دار الظلمة) و (البيت الذى حرم ساكنوه من النور ، وأصبح طعامهم التراب وقوتهم الطين) · ولكنه عرف أخيرا عجزه عن التغلب على الموت ، وتاكد من أن (الخلود المطلق) خلود لم يكن قط له ، ولن يكون أبدا له ، وهو المستحيل بالنسبة اليه · وهذا ما تطلعنا عليه مثلا (ملحمة جلجاميش) فى أدبنا الأسطورى القديم لمنطقتنا العربية مهد الأديان · ففى هذه الملحمة نسمع صوت (سودرى) ، وهى مجرد صاحبة حانة متواضعة وساقيتها الوحيدة فى الوقت نفسه ، يجلجل وهى تصيح بـ(جلجاميش) وتنصحه بنزاهة ، دون أن تشير الى عقيدة أو دين معين لتدعم به نصيحتها · ولكن (جلجاميش) كان يعيش فى فجيعة محزنة مبكية لموت صديقه (أنكيدو) الذى كان قد أخذ فى البحث بسرعة عن (الخلود المطلق) ليجده ، ولكن (سودرى) قالت له :

(جلجاميش) الى أين تندفع مسرعا ؟
ان الحياة التى تبحث عنها لن تجدها
لأن الآلهة عندما خلقت البشر
حكمت على الناس بالموت
واحتفظت لنفسها بالحياة ·
أما أنت (يا جلجاميش) فاملأ بطنك
وكن سعيدا بالنهار والليل
وتمتع باللذة كل يوم ·
ارقص وابتهج ليل نهار ،
ارتد الملابس النظيفة
اغسل رأسك واستحم فى الماء
تأمل الصغير الذى يمسك يدك ،
وأسعد زوجتك على صدرك*

★ ★ ★

---

* د· عبد القادر مكاوى : جذور الاستعباد ، كتاب رقم ١٩٣ ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت

وهكذا تظهر لنا الأهمية الكبرى للتميز الكبير البارز للصـــراع الحزبى الرهيب بين (دزرائيلى الساحر) و (جلادستون الكاهن)، فى تاريخ انجلترا من حيـــث حـــرص كـــل منهمـــا على ألا يمس صـــرح (استقرار) انجلترا بأقل سوء • بيد أن هذا الصراع عابه وقبحه من غير شك الأوصاف غير المستحبة التى كان يكيلها كل منهما للآخـــر • فوصف (دزرائيلى) (صاحب العبارات اللاذعة والبراقة والمتكبرة) (جلادستون) ، بأنه « رجـــل يدعى الورع » و « ليس بقـــديس كما يدعى»، وليس «بالمسيحى المتمسك بمسيحيته »• وهو « المزيج العجيب من الحسد والحقد » و « والضحية المتطوعة لكل أكذوبة قد توصله الى الحكم » ، و « البعيد عن التهذيب ، وهذه صفة بارزة تمـــيز بها ، سواء كان رئيسا للوزراء أو زعيما للمعارضة ، أو كان يعظ ويصلى أو يكتب » • ووصف (جلادستون) (دزرائيلى) بأنه « الرجل العبرى » و « الوثنى الكريه » و « المارد الذى يقـــذف النـــار من فمـــه » ؛ و « الممثـــل المحـــزن المضـــحك » ، و « سياســـته عقيـــدة دنست نفسية الشعب الانجليزى وحملته على محاربة أمم الأرض وجرت عليه انتقاما عادلا » • وزيادة على ذلك فهو (الكافر الكبير) عنده ! رغم أن المعروف أن (دزرائيلى) زار (أورشليم) و (جبـــل الزيتون) و (ركع أمام القبر المقدس) ، وأثارت هذه الأمور دهشته الشديدة ، الى حد أن تساءل حينذاك فى عجب قائلا : كيف لم يصبح اليهودى مسيحيا ! وهكذا وصم (جلادستون الكاهن) (دزرائيلى) بوصمة الكفر على الرغم من أن (دزرائيلى) كان يميل الى مبـــادىء كنيسة انجلترا ، ودافع عنها أمام الملحدين ، وأشاد بقوتها ، ودعا الى أن تـــكون موضع تقـــدير واحترام ، لأن من شأن ذلك أن يضمن الســـلامة الروحيـــة لانجلترا ، ويدعم نظام الحكم فيها • وعلاوة على ذلك ، فهـــو الذى قال : « ان الانسان ولد ليعتقـــد » ، و « العـــالم الهى » ، و « وجـــوده هو بالذات الهى » ، أى وجود دزرائيلى •

واذا كانت هذه الأوصاف غير المستحبة توضح ضراوة الصراع السياسى بينهما وخلافهما واختلافهما بصورة كبيرة ، فان ثورة بلغاريا حينذاك قد فضحت هذا الخلاف وذاك الاختلاف بصورة أكبر وأوضح • وموجز

ذلك أن (جلادستون) « الزعيم الحر خـــير زهـــرة أنجبتها (كليه ايتون) و (جامعة اكسفورد) » ، بينما هو يمارس هوايته فى فلاحة الأرض وتحطيب الأشجار فى غابات (هواردن) الجميلة ، اذ به يسمع صيحات البلغار وهم يساقون الى السجون ، وأطفالهم يذبحـــون ، ونساؤهم تهتك أعراضهن ، وعذاراهم يبعن بيع البهائم فى الأسواق ، ومع ذلك كان (دزرائيلى) رجل انجلترا الأول هادىء لا يحرك ساكنا . ولكن هذا الحادث أخذ يهز كيان(جلادستون)،فصوره فى صورة مأساةتثير الغضب وتدمى القلب ، بســـبب ما حاق بالبلغـــار على يد الأتراك والانكشارية . وبالفعل صوره بأروع بلاغة عرفها الأدب الانجليزى ، فى رسالة عاصفة صارخة تقول :

« الأتراك نوع من أنواع البشرية عـديم الانسانية . فلا يستطيع »
« مجرم فى سجوننا،أو أحد أكلة اللحوم البشرية من بحار الجنوب عديم»
« الانسانية ، أن يسمع هذه القضـــية بلا غضب . والعــلاج هو ارغام »
« الأتراك على أن يخلصونا من أنفسهم . وانى لأرجو من ضـباطهم »
« ومديريهم وبمباشيتهم ونقبائهم والقائمين مقامهم وباشواتهم ، كل »
« هؤلاء وأحمالهم يرحلون من الولايات التى خربوها ودنسـوها »* .

ونشرت هذه الرسالة ، ووزع منها أربعون ألف نسخة ، وقال (دزرائيلى) عنها انها « شديدة الانتقام وشـــر من فظائع البلغـــار » . وأخـــذ (جلادستون) يواصل فى هـــذه القضـــية الحمــلات والاجتماعات وجمع التبرعات ويقول:«ان (دزرائيلى) يؤيد تركيا الهرمة،لأنه يظن أنها سوف تموت ، وأسطوله فى خليج (بشقه) . وأكاد أن أكون موقنا أنه على استعداد للاستيلاء على (مصر) فى أول فرصة ، وقد نراه بعد ذلك (دوقا لمنفيس) . فعلق (دزرائيلى) على ذلك قائلا : ان ما تطلبـــه هذه الاجتماعات هو العبث لا السياسة ، وهى شىء غامض ونظـــرى لا عملى » . فيقول (الأحرار) : «وهذه هى سياسة الأنانية». فيرد عليهم (دزرائيلى) ساخرا ويقول : « أن فيهـــا من الأنانية ما فى الشـــعور الوطنى » .

(*) اندريه موروا : بنيامين دزرائيلى ، الترجمة العربية للأستاذ حسن محمود

ولم يكن السر فى موقف (دزرائيلى) هذا هو حبه للأتراك الذى عرف به . وانما كان يرجع هذا الأمر الى حرصه الشديد على مصلحة انجلترا من حيث الحفاظ الساهر على سلامة مواصلاتها الامبراطورية الى الهند برا وبحرا عن طريق (قناة السويس) . وهذا دفع (دزرائيلى) الى رفض طلب لروسيا وألمانيا والنمسا حينذاك ، لتشترك انجلترا معهم فى توجيه مذكرة شديدة اللهجة الى تركيا . فهو يعد تركيا آمن جانبا من روسيا بالنسبة الى سلامة المواصلات الامبراطورية، ويعتبر فى الوقت نفسه (جوركاكوف) فى حد ذاته رجلا لا يؤتمن ، (وبسمارك) رجلا لا يعتمد عليه . فهو لم يكن يخشى شيئا أكثر من وصول الروس الى البحر المتوسط وجلوس الدب الروسى فى القسطنطينية . ولقد دعم هذا الموقف لـ(دزرائيلى) من أزمة بلغاريا ، أن الرأى العام الانجليزى كان يمقت بالفعل روسيا . وكانت الملكة فكتوريا وزوجها يكرهانها . ومع ذلك ، ظل (جلادستون) يصر على موقفه من هذه القضية كل الاصرار ، على الرغم من أن موقفه هذا كان لا يروق للبلاط أو الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الانجليزى ، ولا لرجال الصحافة جميعا ، ولا لغالبية أعضاء البرلمان . وزاد من صعوبة موقفه هذا التهاب حماس الجماهير نتيجة لارسال الحكومة الجنود الى مالطة وانفاذها الأسطول الى الدردنيل ، عندما هددت روسيا تركيا باحتلال القسطنطينية . وظل (جلادستون) يهز انجلترا هزا بحملاته واجتماعاته وتصريحاته بشأن البلغار وما يعانونه ، عن طريق اشعال شعلات الفضيلة والانسانية فى بلاده . وقد ساعده على ذلك ما كان يتمتع به من قوة البيان ، وذرابة اللسان ، وقوة الحجج التى تسيطر على عقل من يحاوره فتنفذ الى قلبه . كما كان على قسط رفيع من القدرة الفائقة على افحام خصومه ومعارضيه وتسفيه آرائهم ، وكذلك على نصيب كبير من الجرأة . وقد تجلت هذه الجرأة فى تطبيقه فى عهده (مبدأ التحكيم) لاقرار العدالة فى قضايا انجلترا السياسية ، فاذا بالأحكام فى هذه القضايا عند النظر فيها تصدر لصالح خصوم بريطانيا ، فتتساقط الأشجار الضخمة فى الامبراطورية الواحدة تلو الأخرى ، على يد (جلادستون) (حطاب هواردن) . كما تجلت جرأته هذه عندما أعلن يوما أن (رسالته) التى اصطفاه الله

لها هى (تهدئة ايرلندا) . وعندما اضطلع بالفعل بهذه المسـئولية ، ألغى الكنيسة البروتستانتية دون مراعاة لعواطف الأسرة المالكة . وحدد قيمة ايجارية للأراضى الزراعيـة لصالح الفـلاحين أولا وأخـيرا ، مع العـلم بأنه كان واحـدا من كبار الملاك المعروفين . ولكنه فشـل فى (تهدئة آيرلندا) عندما اضطر الى استخدام القوة ، مما أعطى فرصة لـ(دزرائيلى) للتهكم والسخرية فقال : « انى لاأذكر أنى سمعت أحد وزراء جلالتها يقول فى السنة الماضية : كل شخص يستطيع أن يحـكم آيرلندا بالجنود والمدافع ... نعم كل شخص حتى السيد المحترم* » .

وكان من ألمع ما تميز به أخلاقيا عقيدة له تقول بوجود ضرورات أخرى فى العالم غير (الضرورات السياسية) التى يقول بها (دزرائيلى) ، ألا وهى (الضرورات الأخلاقية) . وكان يواجه بها بسخرية (دزرائيلى) عنـدما يتحـدث عن (صـالح الامبراطورية) أو (ايجـاد جيل طارق جديد) كضرورات سياسية ، بينما كان المشاهد للجميع فى الوقت نفسه أن روسيا تزداد رقعتها ،والحرب دائرةفى الهند،وافريقيا يسيل الدم على أرضها ، وسياسة (دزرائيلى) الانجليزى » تجر عليه كما قال « انتقاما عادلا » من السماء ، ما بين قتـل للبعثة الانجليزية الى (كابل) ، وقيام قبائل (الزولو) بأسر (ولسلى) وهطول الأمطار فى (هوجندن) بغـزارة أتلفت المحاصيل فلم تعـد تكفى حاجات الشعب ، على الرغم من « ضرورات دزرائيلى السياسية ! » .

هذا ، وكم شهدت دائرة (جلادستون) الانتخابية فى اسـكتلندا (جلادستون)يدعو ناخبيه الى الا ينسوا أو يتناسوا التفكير فى رفاه الجنس البشرى وهو يقول لهم: «تذكروا أن قدسية الحياةفىأفغانستان الجبلية بين جليد الشتاء مصونة فى عين الله القدير ، فهى لا تقل قدسية عن حياتكم نفسها » . وكم شهدت قـرى اسكتلندا (جلادستون) وهو يهزها هزا « بوجهه الجميل الشبيه بوجه الطير الكاسر » وبنزعاته الأخلاقية .

(*) أى (جلادسـتون)

ومع ذلك لم يتزحزح (دزرائيلى) عن خطه السياسى و (ضروراته السياسية) ، وأخذ يقول : « ما دام الشعور بقوة انجلترا فى مجالس « أوروبا ، فانى أعتقد أن السلام سيسود لمدة طويلة ٠ أما اذا ابتعدنا » « فالحرب لابد منها ٠ وهذا موضوع أتكلم فيه لأهل لندن عن ثقة ٠ » « لأنى أعلم أنهم لا يخجلون من الامبراطورية التى أنشأها أجدادهم ، » « فلابد من عاطفة نبيلة ، وهى عاطفة الوطنية ٠ ولكن الفلاسفة يندون(١) » « بها الآن ٠ لأننى اعرف أنهم لا يعتقدون أن بقاء امبراطوريتهم » « فيه خطر على حريتهم ٠ سئل رجل من أعظم عظماء الرومان عن » سياسته فأجاب : (الامبراطورية والحرية) ٠ وهكذا تظهر لنا فى قوله هذا بوضوح ماكيافلليته ونزعته الاستعمارية ٠ فقد قال ماكيافللى : لجميع الحكومات الحرة غايتان رئيسيتان ، أولاهما هى توسيع ممتلكاتها ، والأخرى المحافظة على حريتها(٢) ٠ وهذه النزعة ليست بأمر غريب بالنسبة الى (دزرائيلى) ، فهو الذى كانت (مستعمرة الهند) عنده « لؤلؤة ترسل اليه باستمرار بريقها من الشرق » ٠ وكان المغامر الساحر الذى اجتذب قلوب ابناء انجلترا الذين انحدروا عن أجدادهم الذين عرفوا بـ(القراصنة المجدودين) ، الذين لم يخشوا يوما فى تاريخهم ابدا ركوب الأهوال من أجل عظمة جزيرتهم ومجدها منذ « كانوا يشيطون ظاهر طعامهم على الجمر أو يأكلونه نيئا » ٠ واذا كانت الصحافة الفرنسية قد أشادت يوما بالتقاليد الانجليزية الرفيعة المرعية عند أبناء هذه الجزيرة وقالت : « ان تقاليد انجلترا لم تمت تماما ، فهى تعيش فى قلب امرأة وسياسى عجوز » ، فانها كانت تعنى (الملكة فكتوريا) و(بنيامين دزرائيلى) الذى كانت تألفه دون (جلادستون) ٠ فكانت ترتاح لفوزه فى الانتخابات ، وتضيق بفوز (جلادستون) فيها ٠ وبلغ بها هذا الضيق الى حد أنه وقد فاز (جلادستون) فى الانتخابات ذات مرة ، أن أرسلت برقية الى (دزرائيلى) تقول بمناسبة فوز (جلادستون) : « لن تكون الحياة لى فيما بعد الا مضايقات ومحن ،

---

(١) يشير الى (جلادستون)

2. Machiavelli : Discourses, I. 29

ولكن تقاليد انجلترا المرعية هى التى حتمت على الملكة أن تقف من غوز (جلادستون) فى الانتخابات موقفا سلبيا لا يتجاوز مجرد أن تتمنى أن تسقط وزارته ! بيد أنها لم تكن تقف من (دزرائيلى) موقفها نفسه من (جلادستون) . اذ كان (ديزى) قد فهمها الفهم الكافى ، فيبعث الثقة فى نفسها عندما يكون على رأس الوزارة ، حتى أصبحت لا تتذوق لذة الحكم أكثر مما تتذوقها الا و (دزرائيلى) قد أصبح رجل انجلترا الأول، وشرع يبعث فى نفسها الاحساس بأنها قوية وقوية جدا . كما كان يردد باستمرار قوله فيما يتصل برغباتها : « يجب قبل كل شىء أن تحقق رغبات صاحبة الجلالة » . فكان يركع على احدى ركبتيه ويقبل يدها حين تستقبله ، ويسعد عندما تمدها اليه راضية . فهو الذى كان يضعها على رأس كل موكب ، حتى غدت هى (فتكوريا الملكة والامبراطورية) ، وغدا هو (لورد بيكونزفيلد) ، وغدت زوجته (مارى) (فيكونتة بيكونزفيلد) ، وغدا (كورى) سكرتيره الخاص من الأشراف والنبلاء . وأصبح (بن) يخاطبها بـ(ملاكى) لا (مليكتى). ويبدأ رسالته اليها بقوله (سيدتى ومليكتى المحبوبة) . أما هى فتستهل رسالتها اليه بقولها : (عزيزى لورد بيكونز فيلد) . كما أصبحت تطلعه على رسائلها السرية ، وترسل اليه كل أسبوع زهور الربيع التى كان يحبها من (قصر وندسور) ، وزهور البنفسج من (قصر أوزبرن) . وذات يوم سئل (دزرائيلى) عن سر هذه العلاقة التى لم يكن لها نظير فأجاب قائلا : « لا أرفض أبدا ، ولا اعترض أبدا ، وأنسى دائما » . مع العلم بأنه كثيرا ما كان يعترض . فكان على عكس (جلادستون الكاهن) (حطاب هواردن) و (والاسكتلندى الجاف) و (نبى مدلوثيان)، الذى كان يرفض كل طلبات الملكة بأدب جم لا نظير له ، وباحترام واجلال لا حدود لهما ، ومع ذلك كانت تنفر منه ولا تألفه . وقد يعود هذا النفور الى أنه قد أساء اليها وهى ملكة خلال موقفه من الكنيسة البروتستانتية فى آيرلندا التى ألغاها دون مراعاة لمشاعرها ، وهو يمارس (تهدئة آيرلندا) .

★ ★ ★

ويبدو لنا أن من أبرز أعمال (دزرائيلى) التى كوفىء عليهـــا مباشرة بلقب (لورد بيكونز فيلد) كان فوزه لبريطانيا بنصيب كبير من أسهم (شركة قناة السويس) عام ١٨٧٥ ، على أجنحة فـــكره السياسى الثاقب ، واشراقاته السياسية العملية ، ودأبه على النشاط والمثابرة عندما كان يستشف باحساسه فرصة ثم يقتحمها فـورا ببراعة ومهارة . وبذلك ضمن لبلده سيطرة محكمة وهيمنة متحكمة على (شركة قناة السويس) ، وفوائد عنقودية لانجلترا . وموجـــز ذلك أن (خـــديو مصـــر) ، حين أوشك على بيع نصيبه من أسهم قناة السويس لفرنســـا بالذات ، لحاجته فى الحال الى المال ، بينما الأوجب أن يكون هذا الشراء لصالح انجلترا شريطة أن يتم على وجه السرعة لضرورته وفوائده لها ، بينما كان كبار المسئولين فى انجلترا يقفون من هذا الشراء موقفا سلبيا . اذ (بالمرسنون) كان يسخر من هذا المشروع . ووزير الخارجية يعتبر شراء هذه الأسهم «غرما» و « اساءة الى العلاقات بين انجلترا وفرنسا » . ووزير الخزانة ينفر من هذه الصفقة ويرى أنها لا تتفق مع سياسة بريطانيا التى عارضت المشروع فى بدايته ، وتساءل فى شأن هذه الصفقة قائلا: «وما أهمية هذه الأسهم لانجلترا ، وانجلترا تستخدم القناة بعد جريانها ؟ » . وكأن الواحد من هؤلاء لم يسمع البتة صوت انجلترا حين علا يوم افتتاح (القنـــــاة) قائلة : « يجب أن تكون القنـــاة لى ! » . وعلى كل حـــال بينما كان ذلك كذلك ، فان ظـــروف انجلترا حينذاك لم تكن تسمح بالشـــراء . فمجلس العموم فى غير دورة انعقاده بينما موافقته على الشراء وثمن الشراء ضرورة دستورية لابد منها . والوقت كان ضـــيقا غـــير متسع . ولكن (دزرائيلى) ، وقد اشتعل خياله والتهب طموحه وحما نشـــاطه ، خف مسرعا وقفز من فوق جميع هذه العقبات وتحداها بقوة عزيمته واصراره ، وكأنه قد أصبح الحصان المدرب على القفز من فوق الحواجز ، والجواد الذى يفوز دائما بالبطولات فى مهرجانات الفروسية . فاذا به يكتب فى الحال الى (الملكة فكتوريا) ويقول لها بحماس منقطع النظير : « ليس لدينا وقت للتنفس ، ولكن يجب القيام بهذا العمل ، ولابد من تدبير ثمن الشراء » . وعندما تم تدبيره هو بالفعل للثمن ، اتجه الى الملكة ليفيدها علما بذلك . فوقف بين يديها وقال لها: «مستر دزرائيلى يقدم أكبر واجبات الخضوع لجلالتك ...

لقد تم هذا العمل ، وصارت لديك فى الحال يا سيدتى أربعة ملايين من الجنيهات ..ولم يكن هناك الا محل واحد يستطيع هذا العمل وهو (مصرف روتشيلد) ، ولقد سلكوا خير مسلك فقدموه فى الحال بفائدة بسيطة جدا ، فصار نصيب (الخديوى) فى يديك يا سيدتى ».
وبينما الملكة وقتذاك فى ضيق وقلق من جراء تصريح لـ(بسمارك) المتعجرف قال فيه : «ان انجلترا لم تعد قوة سياسية»، وأخذ يسلك مسلك (سيد أوروبا) بالفعل. وهذا هو التصريح الذى علق عليه (دزرائيلى) عندما علم به قائلا: «ان بسمارك هو فى الحقيقة (بونابرت) عجوز يجب أن يلجم». ولكن الملكة حين سمعت بنجاح دزرائيلى فى شراء أسهم (الخديو) غمرها فيض كبير من الارتياح والبهجة والكبرياء بسبب ما أحرزته انجلترا من نجاح على يد (دزرائيلى) بشأن هذه الصفقة التى تعتبر بكل المقاييس «عمل» «سياسى خالص وهذا وجه الخطر فيه.واذا لم يكن فى ذاته احتلال لمصر، » « فانه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال»(١) . « فالمعروف أن أهم ما يشغل» « بال الساسة الانجليز هو « ضمان سلامة المواصلات للامبراطورية » « البريطانية بين (لندن) رأس الامبراطورية وبين (الهند) قلبها » « النابض . وفى اليوم الذى ينقطع فيه اتصال انجلترا بالهند تنتهى » « حياة بريطانيا ومجدها . ولما كان الطريق يمر (بجبل طارق) » « احتلت انجلترا هذا الجبل . ولأنه يمر (بمالطة) وضعت انجلترا » « يدها عليها . ويمر (بقبرص) احتلت (قبرص) . ويمر (بآسيا) » « الصغرى) رابطت انجلترا فى (فلسطين) . ويمر بحرا (بمصر) » « و (قناة السويس) رأت انجلترا لزاما عليها أن تحتل (مصر وقناة » « السويس»(٢) . (فالسويس مفتاح الهند وحارسة باب الامبراطورية) و (مصر هى السويس ، والسويس هى الهند ، والهند هى انجلترا).» والعبارة الأخيرة هى قول لشاعر فرنسا الكبير (لا مارتين) فى هذا الموضوع . ألم يحارب (نابليون) روسيا لكى يصل الى (مصر) ، بينما قصده الوحيد من وراء ذلك هو (السويس) و (قناة السويس) ؟

---

(١) مازاد : مقالة له عام ١٨٧٥ ، فى مجلة (العالمين) الفرنسية
2. J.J. Chevallier : L'Empire Britanique

الم يقل (بونابرت) فى (سانت هيلانة) : ان الانجليز يرتعدون وتنخلع قلوبهم اذا رأوا فرنسا تحتل مصر ؟ وألم يرفض (محمد على) بحكمة وبعد نظر (مشروع قناة السويس) وهو يقول : « أنا لا أريد أن أفتح على مصر (بسفورا آخر ؟) ٠

★ ★ ★

والحقيقة أن (دزرائيلى) حقق الكثير من طموحاته ، بأن صهر بنفسه معدنه وصبه بنفسه فى القوالب التى تناسب معدنه وهو يبحث عن ذاته ، ليصنع من معدنه الحلى والقلائد التى كان يحلم بها منذ كان غلاما يعيش عيشة التشرد والأشباح والفشل فى الدراسة ، وفى محاولته الأولى للعُمل فى السياسة بينما هو ثمل بالحياة ويعيش فى عالم يعاديه ، ويلبس أظهر الصدارى المزركشة ، وأظهر الملابس لونا مع السلاسل المعدنية البراقة التى تجعل أرديته أخاذة ٠ ويتطلع الى أن يعيش فى مستقبل حياته عيشة أرفع طبقات المجتمع الانجليزى وهى طبقة (الأدواق) ، التى استهوته حفلات الاستقبال عندهم الفياضة بالبذخ والترف ٠ وموائدهم المرصوص عليها الأوانى الذهبية ٠ وحولها يجىء ويروح خدم فى ملابس قرمزية موشاة بخيوط الفضة تتلألأ تحت الأنوار والأضواء٠وفوق هذه الموائد باقات يانعة من الورد والزهر، وحولها باقات أخرى من جميلات انجلترا ، اللاتى عرفن بحرصهن على ابداع زينتهن من المهد حتى النعش ٠ فاذا بالأعناق منهن تسبح دائما فى غدران تتلألأ كقطرات المياه ، الا أنها فى الحقيقة حبات وفصوص من أندر الأحجار الكريمة ٠ وعيونهن تتألق دائما بسحر جذاب ٠ وثغورهن تنساب منها البسمات الرقيقة والعبارات الحلوة ٠ وبطبيعة الحال ، حقق (دزرائيلى) أحلامه الوردية هذه فى غضون وصوله الى السلطة ، بعدما صاغ ذاته أبرع صياغة ووثق من نفسه ، وأخلص فى عمله،وأبدى شجاعته ، وذلك على حد قول(اللورد دربى)فى وصول(بن) بجدارته الى أعلى درجات السلم السياسى ٠ فأصبح قلادة قومية وضاءة ، وكنزا قوميا كبيرا ٠ فتباهت به انجلترا وافتخرت ، وقد أثبت أنه أقدر الجميع فى « تحريك العرائس وأحقهم فى آن يشير

(بضروراته السياسية) ، وأعماله الخالدة وخدماته الجليلة لبلاده ، حتى عزف فى (القارة) واشتهر بأنه (أخطر رجل فى أوروبا) .

★ ★ ★

والآن نغادر (بلاد القراصنة المجدودين) أى انجلترا ، لنصل الى (بلاد أساطين الحرب والعسكرية) أى (بروسيا) . عن طريق (بحر المانش) حصن انجلترا الحصين الذى حماها آلاف السنين من المعتدين حتى من فرنسا . وبفضله أشاد انجليزى من أبناء هذه الجزيرة ودعا أهلها وناسها الى أن يجعلوه أول مادة فى عقيدتهم السياسية . والقصد منا فى هذا المقام أن نستطلع على أرض (بروسيا) مفاهيم (ألمانيا) و(الألمانى)حتى نقترب أكثر من المارد ثالث الثلاثة الذين صعدوا على فلك التاريخ فى القرن التاسع عشر مع (بنيامين دزرائيلى الساحر) و (وليم ايوارات جلادستون الكاهن) . وهذا الثالث هو (بسمارك المارد) ، الذى كان عملاقا حتى فى جسمه ، وصاحب قول مثير ينسب اليه يقول : « ان الرجل لا ينبغى له أن يلقى ربه الا بعد أن يكون قد دخن مائة ألف (سيجار) ، وشرب خمسة آلاف زجاجة من (الشمانيا)» . فلقد كان جسمه عملاقا فاره الطول ، وبنيته ضخمة . أما أسمه وموقفه من الأخلاق والسياسة وهو يبنى بلده ، فيتضح لنا الوضوح الكافى من خلال ما سوف نذكره ، سواء من أقوال موجزة للمؤرخين والكتاب الكبار الذى كان هذا (المارد) أو بلاده موضع بحوث لهم ودراسات قاموا بها ، أو من خلال مفاهيم (ألمانيا) و (الألمانى) وظلالها ، وأركان (الثقافة الجرمانية) التى سوف نعرضها ونلقى الضوء عليها ، والتى حفل تفكيره بها وهو يبنى بلده .

أما أول هذه الأقوال الثلاثة فيقول : اننا نستطيع أن نعد العشرات من أساطين الحرب والعسكرية بين الشعب الألمانى ، بينما نعجز عن أن نعد سياسيا واحدا بعد (بسمارك) ومن طرازه* .

---

* مذكرات (جراى) ، تعريب الأستاذ على أحمد شكرى

وثانى هذه الأقوال تساؤل يقول : وماذا كان يمكن أن تكون ألمانيا من غير (بسمارك) فى القرن التاسع عشر ، بينما الحق غير معروف فى السياسة ؟ فالسياسة تملى على من يمارسها أن يكون كذابا ومراوغا ، ومجردا من عواطف الرحمة ، ومتجاهلا لكل ما يحدث حوله مع علمه به ، ومتظاهرا بالاتفاق مع الخصم فى الجوهر والخلاف بينهما انما هو خلاف فى العرض، بينما أنت على علم بمكره ودسائسه وغدره. هذه هى أصول السياسة ومبادؤها !

ونجد ثالث هذه الأقوال لمؤرخ فرنسى يقول : ان سياسة فرنسا فى القرن التاسع عشر كانت تتجه الى غاية واحدة ، وهى أن تمنع فرنسا الولايات الألمانية من الاتحاد كما سبق أن اتحدت فرنسا . فظل مصير أوروبا يدور حول الصراع بين فرنسا وألمانيا من أجل السيادة فى أوروبا . وتميز هذا الصراع فى بادىء أمره بالاعتداء الفرنسى لا الألمانى ، وكان يدور على أرض ألمانية. واننا نفترى على الحقيقة لو اتهمنا ألمانيا وحدها دون فرنسا وصورنا فرنسا مجرد حمل وديع . اذ منذ أيام (لوثر) عبرت فرنسا (جبال البرانس) مرات . وأغارت فرنسا على هولندا مرتين . واستولت فرنسا على بلجيكا مرة . ولم تسلم حتى روسيا من اعتداء فرنسا . ولم يرحم انجلترا من اعتداء فرنسا سوى (بحر المانش). أما ألمانيا فكانت (ملعبا دمويا لملوك فرنسا) . فماذا كان يجب على (بسمارك) أن يفعل ؟ أينتظر حتى تلوح الفرصة لفرنسا لتستولى على (بروسيا) لقمة سائغة وتبتلعها ، أم كان عليه أن يقوم باجراء عسكرى فيستخدم القوة ؟ وكان هذا بالفعل هو الخيار الوحيد أمام هذا (المارد).

ان هذا (المارد) جاء منذ ولدته أمه صيغة فريدة من صياغة الله والقدر والحظ لصالح بروسيا وألمانيا . فجاء بالفطرة « استجابة للطبيعة الواسعة الكرم للشروط القاسية لرجل الحكم والدولة » ، و « مطبوعا على أفانين السياسة وحيلها » . وهذان القولان لمؤرخ بريطانى . وهذه الفطرة دون شك هى التى أكسبته فى بداية حياته العملية عندما عمل فى (ديت) فرانكفورت وفى الخدمة الخارجية ، الكثير اللازم للعمل السياسى ، فانكب على الثقافة الجرمانية

شاملا كاملا ليعلم بها ، وأخذت هذه المعرفة تجرى فى شرايينه وأوردته كالدم ، حتى تشبع بها تشبعا عميقا فتشكلت سياساته وأخلاقياته فى الحكم .

★ ★ ★

وهذه الثقافة لم تكن تدور الا حول محور رئيسى واحد هو (الجنس الجرمانى) باعتباره جنس خشن زاهد زهد حجر الصوان ، الا أنه منظم كالكواكب فى أفلاكها . وهذا الجنس هو الذى اصطفاه الله ليبشر فى الأرض بين صقالبة بحر البلطيق بحضارة ألمانية زاخرة بقوى ذات عنفوان وسلطان ، وبقدرات حافلة بطاقات ضخمة ودائما يقظة متحفزة تثبت وجودها كل حين فى مختلف الاتجاهات ، بشتى الطرق والوسائل والأساليب . وقد فتح لهذا (المارد) الطريق الى هذه الثقافة الجرمانية كتاب ومفكرون ألمان معروفون ، مثل : (ترايتشكى) و (فيشته) و (هوستن) و (استيوارت تشامبرلين) و (برنهاردى) و (تومان) . وهؤلاء كانوا يدعون الى (الهول الألمانى) . وغاية فلسفاتهم أن تتبوأ ألمانيا العلياء عن طريق الجد والكد دون كلل أو ملل ، وبالكفاح الذى لا يتوقف سواء فى سلم أو حرب . وأن تزيح من أمامها على درب قوتها وحضاراتها وتقدمها وسبقها ، أى عثرة تعترضها ، حتى لو كانت هذه العثرة أخلاقية . فظلت هذه الأفكار تصيح بالألمان بأعلى صوت ليرفعوا باستمرار (الأنا القومى الألمانى) الى أعلى الدرجات حتى مرتبة الألوهية . فاذا بالقومية العدوانية تصبح عقيدة كل حزب ، سواء عند المحافظين ، أو الأحرار ، أو الاشتراكيين . وتصبح (السياسة) عند الألمانى هى (الحياة) و (الحياة) هى (السياسة) . وتصبح (البطولة) بالذات عندهم نضالا لا يتوقف وسط الأحداث والوقائع فى مجرى تيار الحياة القوى الجارف . واذا تساءلنا عن المستهدف الأخير من هذه الأفكار ، فلن يكون ثمة جواب سوى أن يكون الهدف الأخير هو بالذات (تحقيق القيم العليا) و (وحدة الجماعة الحية) .

ان (الأنا القومى الألمانى) ديدنه (القوة) . ففيه (الحياة

قوة) و (الدولة قوة) . وتبعا لذلك فالحياة المدنية ، أو حياة الفرد ، أو الثروة وما شابهها ، اذا ما قيست (بالقيم العليا) و (وحدة الجماعة الحية) فسوف نجدها لا تذكر أبدا بالنسبة الى (القيم العليا) و (وحدة الجماعة) . يقول (سيبورج : « نحن رمال غير ثابتة ، ولكن يكمن فى كل رملة منها الشوق والحاجة الى (الاتحاد) مع الرمال الأخرى ، ليتشكل منها فى النهاية حجر صلب يبقى ويدوم » . و « هذه الرغبة فى بؤرة حقيقية ومركز للثقل ، هى التى دفعت الألمان الى أن يجدوا فى الدولة معنى (الاتحاد الكبير) ، وأن يعتبروها قوة روحية تكاد أن تكون بذاتها عقيدة ودينا » . وانه الفيلسوف الكبير (هيجل) هو الذى ابتدع لبروسيا بعبقريته ما يتفق مع مبادئها الاخلاقية ، وذلك عن طريق نظريته التى تقول : « ان الدولة اله يمشى على الأرض » ، و « الدولة أعظم من عهودها » ، و « الحق لابد أن يدعم بالقوة ، وهو قوة » . وانها هذهالرغبةفىهذه البؤرة عند الألمان هى التى تدفعهم أيضا الى أن يجدوا معنى (التضامن) وحاجاتهم كأفراد اليه ، فى الوحدة الفيزيقية والقوة المادية . ولذلك نجد أن أول اصحاح فى الكتب المقدسة الجرمانية يقول:

« فى البدء كان شعبنا المؤمن بأن (الألمانى) قبل (الانسانى) !

اذن ، كان محتما أن تصبح نتيجة تشبع (بسمارك المارد) بالثقافة الجرمانية ، أن تكون أولى الكلمات التى يكتبها فى أول سطر فى أول صفحة فى فاتحة سجله التاريخى كلمة (جيش). وبالفعل أتم ذلك بفضل ثالوث تشكل منه هو بالذات ، ومن (فون رون) ومن (فون مولتكى).وأن يكون من الصور النموذجية لجيش (بسمارك) ذلك الجيش الذى خاض به أكثر حروبه ضرورة وآخرها لتحقيق (الامبراطورية الألمانية) و(والوحدة الألمانية)، وهذه هى الحرب الفرنسية البروسيةعام ١٨٧٠ . اذ شكل هذا الجيش بالفعل ، وجعله يتسم بالابتكار والابتداع فى شتى تفاصيله . ما بين تنظيم بروسى خالص فريد ، وتدريب على فنون القتال المختلفة على أعلى المستويات ، وتجهيزه بأحدث ما كان العلم قد وصل اليه من تلغراف ومدفعية وآليات النقل بالسكك الحديدية ، وتعبئة سريعة. هذا ونظام بروسى هو (نظام الخيالة المراقبين) يحيطون بالجيوش الألمانية وهى تحارب فى الميدان ، ويتقدمون مع تقدمها فى

أرض العدو . وبالاضافة الى ذلك كان ثمة دراسات شاملة دقيقة تقوم بها (هيئة الأركان العامة) عن جيوش فرنسا من تنظيم وتسليح ومواقع الى آخر ذلك.فانتصر الجيش الألمانى على « جيش فرنسا المنظم ذى الصيت الذائع والانتصارات الكبيرة » . واستطاع الجيش الألمانى أيضا « تحطيمه فى ظرف شهر واحد » كما يقول مؤرخ بريطانى .

وهنا يفرض تساؤل نفسه علينا قائلا : وهل كان فى امكان بروسيا أن تحقق جميع ما حققته فى القرن التاسع عشر بينما لا يزال نظام التعليم فيها كما كان فى القرن الثامن عشر ، وكما سبق ذكرنا(١). عندما كان بعيدا عن أصول التربية والتهذيب(٢) ، وبعيدا عن الثقافة الجرمانية التى تحدثنا عنها(٣) ، وأمرا ثانويا ملحقا باللاهوت ، ولا يقوم به سوى خدم وصناع فاسدين ، وجنود مشوهين ، أو ممن أخلاقهم مشبوهة ، وتربيتهم مشكوك فى أمرها ، ومعلمين سطحيين لا يحسنون لغتهم القومية ، ولا يعرفون كيف يعلمون ، ويكرهون محاولة كل اصلاح(٤) ؟ والجواب الوحيد هو : كلا . وهذا ما أدركته بروسيا بالفعل فاعتبرته طامة قومية كبرى . وسرعان ما خفت فى التو واللحظة تقوم بأقوى تعبئة وأضخمها لاصلاحه(٥) فغدا (المعلم الألمانى) أيضا كما قال الأسطين العسكرى الألمانى عنه فى الحرب الفرنسية الألمانية عام (١٨٧٠) سر الانتصار الألمانى فى هذه الحرب(٦) ، وذلك بحكم اصلاح حاله ، فرسالته خطيرة وهى صناعة الأجيال . فهو رائد التنوير والاستنارة ورسول (تقديس الواجب) وتقديس(الواجبات) فى مظهرها الاجتماعى،فصناعته هذه يجب أن تعزز

---

(١) ارجع الى ص ٩٨ من هذا الكتاب
(٢) ص ١٠١ من المصدر نفسه
(٣) ١٠٣ من المصدر نفسه
(٤) ص ١٠٢ من المصدر نفسه
(٥) ص ١٠٣ من المصدر نفسه
(٦) ص ١٠٧ من المصدر نفسه

وتدعم دائما ، وأن نسهر عليها دائما ، اذ هى قوة سياسية ضارية بالنسبة الى تطوير الدول وتقدمها .

ويواكب تساؤلنا السابق تساؤلات أخرى تقول : ألا يعنى ما فاه به هذا الاسطين العسكرى الألمانى فى الحرب الفرنسية الألمانية عام ١٨٧٠ ، الذى يرجع فيه احراز النصر فى هذه الحرب الى (المعـــلم الألمانى) بعد اصلاح حاله ، أن هذا المعلم نفسه كان وراء قيام جيش ألمانيا الذى (لايقهر) كركن من أركان (الأنا القومى الجرمانى) فى الثقافة الجرمانية؟ وأن هذا المعلم كان وراء ولاء هذا الجيش لقائده الأعلى (بسمارك) ؟ وأن هذا المعلم كان وراء تصحيح بروسيا لما كانت فرنسا قد اقترفته فى حقها من أخطاء فى وقت كانت بروسيا مجرد ولاية وليست أمة مثل فرنسا ؟ وأن هذا المعلم كان وراء قول (ميرابو) فى حديثه عن بروسيا وهو يقـــــول عنها : « انها ليست بلدا» له (جيش) وانما هى (جيش) له (بلد)؟» وأن هذا المعلم كان وراء زعامة بروسيا للولايات الألمانية الأخرى ؟ وأن هذا المعلم كان وراء المواقف التكتيكية لـ (بسمارك) ، سواء فى موقفه من قول (بالمرستون) أو فى موقفه من قول (جلادستون) ، وذلك عندما أخـذ الأول كسياسى متعصب لبلاده ولأمر فى نفسه يقول فى مناسبة انتصارات (بسمارك) فى حربه من أجل (الألزاس واللورين) و (الامبراطورية) و (الوحدة) : (لو كانت دعامة الآراء هى الصدق والعدالة فهى أقـــوى من الجحافل، وسوف تنتصر فى النهاية على حرب المشـــاة وقنابل المدفعية وحمـلات الفرسان) ؟ وبالمثل عندما أخذ (جلادستون) يصور هذه الانتصارات نفسها فى صورة (أخطاء سياسية) و (أخطاء أخلاقية) ويقول : ان نقـــل ما يزيد على مليون نسمة انما هو فاتحة سلاسل من التعقيـدات ، وهو موضع نقد كبير يدعو الى الأسى ، وهـــو أمر لا يتفق مع روح المدنيـة الحديثة والعدالة ؟ بينما الحقيقة التاريخية المعروفة للجميع ، هى أن (الألزاس) مقاطعة ألمانية اغتصبها (مازاران) الفرنسى عام ١٦٧٨ بمقتضى (صلح وستفاليا) ، أما (اللورين) فهى التى كان (لويس الخامس عشر) قد اســـتولى عليهـــا بعـــد وفاة حميه (استانسلاوس ليوزنسكى) ملك بولنـدا . وعلى ذلك فلا مراء فى قولنــــا فى نهايه الأمر : ان شان المعلم فى بداية كل مطاف ، سواء فى بناء الانسان ، او

فى بناء الأمم والشعوب حضاريا وتاريخيا ، هو شأن (البذرة الصغيرة) نفسها فى باطن الأرض ، واليها بمفردها ترتد كافة نباتات الأرض بصورة لا تعرف الاستثناء .

★ ★ ★

وصفوة الكلام ، لقد تجلت عبقرية (بسمارك) أولا فى اقامة جيش (لا يقهر) . وفى عزله فرنسا عن حلفائها . وفى ادخاله الدول الأوربية الوسطى فى كتلة سياسية واحدة تحسبا لاعتداء قد يقع من روسيا وفرنسا معا ، أو واحدة منهما منفردة، على الدانوب أو الرين . وفى تقديره أن الحرب ضد فرنسا ضرورة ، فأخذ يستعد لها فى الكتمان قبل قيامها بثلاث سنوات الاستعداد الشامل الذى لم يترك فى شأنها شاردة أو واردة. ودبر أمرها على أساس أن تبادر فرنسا باعلانها هى ، وذلك بتحريره (برقية امز) كفخ سقطت فيه فرنسا بالفعل . وفى تدعيمه لانتصاراته العسكرية فى حروبه باغرائه لفرنسا وتشجيعها على امتلاك (تونس) ليهدىء من قلقها وتفكيرها فى (الألزاس واللورين) . وقام بذلك وهو يقول : « لقد أطلقت العنان لهذا الجواد الجامح النارى المزاج كى يذرع رمال (تونس) ويخفرها ، وسيرى الفرنسيون أنهم ذهبوا الى مغامرة باهظة الكلفة ».وذلك لكى يثير أيضا خلافا بين فرنسا وايطاليا . وبالمثل شجع انجلترا على امتلاك مصر ليثير خلافا بينها وبين فرنسا .

وكان من أهم خيوط شخصيته روحه العملية . فلم يكن يقيم الأحداث الا على أساس نتائجها العملية . ويقال بأن هذه النزعة عنده هى التى حالت بينه وبين أن يقع أسيرا للمسيحية . فكان واسع الحيلة، عريض النظرة ، بعيد الفكرة ، بارع المناورة . كما كان أستاذا فى فن الحكم يلقى فيه كل يوم دروسا جديدة .

وأعجب (بسمارك) بـ(دزرائيلى) بعدما تعارفا . فقد وجد فى هذا اليهودى الكثير مما أثار اعجابه به ؛ من بساطة وخشونة وصراحة . فتوطدت بينهما الصداقة . فكانا حين يجتمعان لا يحلو لهما بطبيعة الحال سوى الحديث فى السياسة وعلاقات الدول ، والأمراء

والوزراء والبرلمانات ، وكذا الاستعمار . وذات يوم وهما يتحدثان أمام خريطة للعالم تراءى لـ (بسمارك) أن من الكياسة وحسن السياسة الا يحبذ وهو مع (دزرائيلى) فكرة الاستعمار بل يعارضها . وبينما كان (دزرائيلى) يسحب اصبعه على هذه الخريطة ويمرره على (بلاد البلقان) اذ به يتساءل : الا تظن أن هذا ميدان آخر للاستعمار ؟ الا أن (بسمارك) لاذ بدبلوماسية الصمتولم يجب.ومما يجبأن يذكر عن عظمة وشهرة ومكانة هذا الساحر الانجليزى أو ذاك المارد الألمانى ، أن قيل عن (مؤتمر برلين) الذى حضراه : ان هذا المؤتمر لم يكن فيه من السياسيين العباقرة الكبار سوى (دزرائيلى) و (بسمارك) . ومع ذلك ، فان النظم الانجليزية ، فيما عدا روح الانجليز العملية ، لم تكن تروق لـ(بسمارك) ، فرفض نقلها الى بلاده . اذ كان يعتبر هذه النظم «السم الانجليزى الذى أفسد الفضائل الارستقراطية للأمة الانجليزية » . وعد نقلهذه النظم الىبروسيا مما«يجر عليها الخرابوالنكبات».فبروسياعنده ليست انجلترا ، ولابد أن « تظل بروسيا بروسيا » و « والبروسيون بروسيين » . كما كان يصف الديمقراطية دائما بـ (عجزها عن تسليم البضاعة » ، وأن « خطبها » (بضم الخاء وفتح الطاء) لا تقيم دولته ، ولن تشكل مستقبل بلاده .

وكان من ألمع خيوط شخصيته ما تميز به من صراحة عرف بها وخدمته كثيرا . فعندما كان يصرح بتصريح ، كان سامعوه يرتابون فى تصريحه ويؤولونه ويتشككون فيه . الا أنه كان لا يسلك بالنسبة الى هذا التصريح سوى المسلك الذى كان يعنيه وصرح به . وكان هذا مما لمسه (دزرائيلى) فيه فقال عنه : « أحذركم من هذا الرجل ، فانه يعنى ما يقول » . ويرجع السر فى هذا القول لـ(دزرائيلى) الى أن (بسمارك) كان قد أخبر (دزرائيلى) ذات يوم بانه سوف يشن حربا على النمسا فى الوقت المناسب ، وبالفعل شن هذه الحرب بعد أربع سنوات .

ويلاحظ أن (بسمارك) فى صراحته هذه ، لم يكن مثل (مترنخ) الذى (كان يخدع بينما هو يكذب دائما) ، حتى عرف بأنه (ناعم ماكر ، مزيف لا يؤتمن ، صلف مهذار) . ولم يكن مثل (تاليران)

الذى عرف بسرعة البداهة والابتعاد عن التعمية . ولم يكن مثل (ريشيليو) الذى كان (يكذب ، ولكن لا يخدع أبدا) . واذا كان كل من (ريشيليو) و (بسمارك) قد طبق نظرية (حق الدولة) فى سياساته وأخلاقياته فى الحكم ، فان (بسمارك) قد طبق هذا المبدأ نفسه تطبيقا فاق فى كثير تطبيق (الكاردينال ريشيليو) لهذا المبدأ . فـ(المارد البروسى) شوه الأخبار من أجل مصلحة الدولة . وحرف البرقيات من أجل مصلحة الدولة . وأسس المكاتب الرسمية للصحافة ومولها بالمال للدعاية لحروبه وتمجيد دولته وأمته من أجل مصلحة الدولة . واستأجر الأقلام واشترى الذمم والضمائر للكثير من الصحفيين من أجل مصلحة الدولة . وابتكر تعيين سكرتيريين للسفارات من اختياره الشخصى للتجسس على سفرائه من أجل مصلحة الدولة . وظل هذا النظام معمولا به حتى أيام (فون هولشتين) (ملك وزارة الخارجية الألمانية غير المتوج) ، حتى أصبحت الخدمة الخارجية الألمانية شبكة عنكبوت واسعة دقيقة ، دون أن تكون مثيلة لها فى خيوطها الواهية . وجميع ذلك كان من أجل مصلحة الدولة . ولا عجب ، فهذا (المارد) كان يصبوا الى «أن ينشر النسر البروسى دون قيد ، جناحيه كدرع وحاكم ، من (ميونخ) الى (دونرسبرج) Donnersberg » . فظل هذا (المارد) ثمانية وعشرين عاما يقود سفينة بلاده ببراعة خلال عواصف وأنواء ومكاره عديدة عصفت بها . وفى غضون ذلك لقب بألقاب تشير الى بعض أوصافه وقدراته ، وخاصة مشربه الأوتوقراطى . فهو (المستشار الحديدى) و (رجل الدم والحديد) و (السمسار الأمين) و (سيد بناة الدول) . كما أثر عنه قوله المشهور أثناء المسألة الشرقية حين قال : « ان كل دولة ، أو حكومة ، أو شعب ، عدا دولته ، لا تساوى حطام جندى واحد من جنود بوميرانيا » . وأثر عنه قول آخر هو « ألا ايثار بين الامم » . ومن ثم كان (فلتة) فى تاريخ بلاده بكل ما فى هذه الكلمة من معنى الفردية الفريدة التى لاتتكرر ، لو صح ما أعنيه أنا من كلمة (فلتة) . فقد جعل قلوب أبناء دولته وأمته ، تحفل بأوفى وأنقى أحاسيس الرضا والفخار ، وهو يقود دولته وأمته بنجاح طويل وعريض ، نحو سياسات واسعة النطاق ، تقوم على أسس وقواعد متينة ترتكز على ركائز قوية

ثابتة ، من البرامج الحربية والبحرية والاجتماعية طويلة المدى عظيمة الجدوى . فكان الجيش الذى (لا يقهر) باكورة هـــذه السياسات . فـ(بسمارك) هو الذى احتضن منذ بداية حكمه من بين بيض(الأنا القومى الجرمانى) بيضة القوة والجيش الذى لا يقهر ، ورقد عليها كما يرقد الطير الكاسر على بيضه ، حتى فقست هذه البيضة وخرج منها الجيش الذى (لا نظير له) وصحح مختلف الأخطاء التى اقترفت فى حـق بروسيا ، فجعل ألمانيا فى النهاية (فيصلا) و (حكما) (بفتح الحاء والكاف) وأمة عظيمة فى أوروبا .

والحقيقة أن هذا (المارد) لم يكن يكفيه من هذا الجيش مجرد انتصاره ، اذ كان (بسمارك) تواقا فى كل لحظة الى أن يقدم لبلاده فى كل فرصة تواتيه عملا جليلا دون زهو . فهو الذى عرف بقدرة فائقة فى مقاومة نشوة النصر ، والحرص على انتحال أذكى الذرائع فى حروبه حين ينوى القيام بها . والحرص على ألا يهين من قريب أو بعيـد من انتصر عليه ، وألا يدخـل عاصـمة المغـلوب دخول الظافر المنتصر فى هالة من الكبرياء والفخر .

وموجز القول ، كان (بسمارك المـارد) ، سواء فى بلده أو فى عصره ، رجل الأقدار الذى اصطفاه القدر ليقوم بالمعجزات والخوارق . فكان العظيم صاحب الاسم العظيم ، الذى لا يليق به أبدا أى مديح حتى ولو كان أعظم مديح ، اذ لا مـديح يليق أبدا بعظيم يبنى دولته بأروع آيات الخلود الحضـارى . هـذا والحضـارة بالذات تؤنس التاريخ نفسه ، الا أنه عندما يروى سيرة الانسان الحافلة بالعجائب والغـرائب والخبايا لا يغفل عن أن يذكر أعجـب ما فى هـذه السـيرة وهى أن الانسان يكتب تاريخه تارة بحروف من نور ، وتارة أخـرى بحروف من نار .

الفصـــل الســـابع

الأنبيـــاء غـــير العـــزل

وماذا عساى أن أقول عن (الأنبياء غير العـــزل) الذين ظهروا على مسرح القرن العشرين ، وعن هذا القرن بالذات قرن تقدم الهندسة والعلم بخطى واسعة سريعة مذهلة ، عندما التقت نيات العلماء عنـــد الكشف عن المجهول فى (الكون الأكبر) وفى (الكون الأصغر) على السواء ، أسوة بـــ(التقاء ذكاء الناس عند الله) و (النيات الطيبة عند الانسانية)؟ وعلاوة على ذلك ، فهذا القرن هو الذى راج فيه فكر ماكيافللى الـــذى فصل السياسة عن الأخلاق الفصل القاطع كقطع السيف البتار ، بينما كان هذا (الكاتب الفلورنسى) يهيم بالقومية والسيادة فى عصره ، من أجل وحدة وطنه وحريته وسيادته ، حتى يستعيد بلده مجد روما القديم برمته • ففجرت كتاباته حينذاك على هذا (الأمين العظيم) عواصف التشهير وأعاصيره الغاضبة • بيد أن النقد العلمى الموضوعى النزيه ، بالبحــث المحايد والتقييم الدقيق، سرعان ما أخذ يسعف وينتشل هذا المؤرخ المدقق من مباءة التشهير وسعيره ، وينقلافه الى فردوس التقدير وجنته ، حتى أصبحت كتاباته مادة للدراسة عند الأخلاقيين والسياسيين والمغامرين على السواء • وغدا فكره السياسى ، كما قيل ، (جميع التاريخ الأخير) فى القرون الأربعة الأخيرة ومنها القرن العشرون• وهذا القرن هو الذى رفع فوق كل شبر من أرض ساحته السياسية أعلام الفكر القومى الخالص لماكيافللى (الوطنى العظيم) عالية خفاقة • واذا ببضاعة ماكيافللى التى صنعها فى فلورنسا يتلقفها السوق السياسى لهذا القرن ، وتقبل عليها وتقتنيها غالبية الرؤساء والحكام فى القرن العشرين ، فيؤثر هـــؤلاء بالفعـــل

(السيادة) على (السلام) ، فتعجز (فكرة أسـرة الشـعوب) عن النهوض على ساقيها ٠

وعلى كل حال ، فالواقع أن تقدم العلم والهندسة حمـل الينا من ناحية الكثير من الطيبات التى تليق بالانسان خليفة الله فى أرضه ، وتحتم علينا أن نؤدى للانسان تحية الاعظام والمهابة ، وهـو يثبت أنه كنز لا يعادله أى كنز آخر من كنوز الحياة ، وأن تاريخ العالم نفسه انما هو رافد من تاريخ هذا الانسان لا العكس٠كما حمل الينا تقدم العلم والهندسة من ناحية أخرى (الأسلحة الذرية) ، التى سرعان ما أخـذت ترسل فى نفوسنا اشعاعات كثيفة مخيفة من الذعر والخوف نتيجة لنجاح العلم والهندسة فى البحوث النووية والانشطار النووى ، على نحو ما تحدثنا عنه فى ختام الفصل الخامس ٠ والجدير بالذكر ويثير العجب ، أننا لم نشاهد فى هذا القرن تقدما فى الأخلاق يوازى تقدمه فى العلم والهندسة ويساويه، خصوصا أن بعض الكبار من مفكرى عالمنا كانوا على علم بأن (التاريخ الواقعى)للانسان انما (ينحرف عن الفضيلة والعدالة»(١)، وفيه (الحكم والسيادة) « لغير المثل الأعلى والخـير والأخـلاق ، فان مملكتها لا تنتسب الى هذا العالم ، وانما السـيادة فيه « للعـزيمة ، والارادة ، وللذهن الحاضر والموهبـة العمليـة » ، وأن « ليس فى استطاعة الصيحات المثاليـة والأحـكام الخلقية أن تزيل الوقائع وأن تمحوها ، وهكذا الانسان ، وهكذا الحياة ، وهـكذا التاريخ»(٢)٠ وهذا ما سبق أن كشف عنه ماكيافللى فى تاريخ البشر وأكد حقيقته ، وذلك فى عصره ، بعقله الثاقب وتفكيره الصاعق ٠

فكان من طبيعة الأمور أن يظهر على خشبة مسرح القرن العشرين ، من بين النوع البشرى من يصبو الى الوصول الى (الرياسة) ، باعتبارها شهوة من أقوى الشهوات فى قلب الانسان (الحيوان السياسى بطبعه)، الذى خلقه اللـه من جانب (محبا للرياسة)(٣) ٠ و (الرياسـة)

---

(١) هيجـل

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر ، قوى التاريخ

(٣) أبو بكر محمد بن زكريا الرازى : رسائل فلسفية

بدورها ومن جانب آخر أعلى قمة فى المجتمع والعمل السياسى ونظام الحكم،وتعلو أصلا فوق (الحكومة)٠ اذ هى ذات سلطة تجب كل سلطة ٠ وهى شرف مرموق فى الحياة والتاريخ، لا يناله الا من هو جدير بالاتحاد مع التاريخ ، ويكون على درجة رفيعة من هذه الجدارة ، فيفوز بعد موته ومفارقته للحياة بنوع من الخلود ،ويظل خالدا فى نفوس الأحياء ٠ هذا ، و (الرياسة) وظيفة من أكثر حاجات المجتمع ضرورة وحتمية ، وواجبها كبير وخطير ، يدور فى دوامة عاتية ، هى توحيد اختلاف الآراء ، والعواطف ، والمصالح ، والتقريب بينها حتى لا تتشتت ، أو يستفحل خطر هذا الاختلاف ويستشرى ، فلا يتسنى للمجتمع فى نهاية المطاف أن يتقدم التقدم الذى فى مقدوره ٠ ان (الرياسة) هى التى تمثل فى المجتمع والحكم والعمل السياسى دور (الأكثر) le plus فى كل شىء ، ومن شأن من (يملك الأكثر) أن يملك (الأقل) le moindre ٠

وأى طراز من نوعنا البشرى اشتهى (الرياسة) فى القرن العشرين ووصل اليها بالفعل ؟ والجواب : نفر من حشود البشر آمن (بالواقعية)، وسار على دربها الذى يكاد أن يكون وقفا على السياسة ورجالها ٠ وآمن (بالعقل العملى) الذى يعين على تحقيق الغرض والغاية ، ويكفر بالحقائق المجردة ، أو الصور الذاتية الذهنية ، وماهيات الأشياء وجواهرها ، الى آخر هذه الأمور التى يعنى بها الفلاسفة والمثاليون ٠ وهذا النفر يتميز عادة عن بقية البشر بتمسكه الصلب من أجل الوصول الى مطامعه وطموحاته ، فهو يعانى ظمأ لا يطفئه سوى خلق التاريخ ، لكى يعيش فيه ويحيا ، بينما هو يتحسس دائما طريقه للوصول الى غرضه على أجنحة (قوى التاريخ) من (العزيمة ، والارادة القوية ، والذهن الحاضر والموهبة العملية) ، بالاضافة الى وسائل يجلبونها من « الوصايا العشر مقلوبة » ، ومن « تعاليم الشيطان » ، أى (كتاب الأمير) لماكيافللى ، حيث الفصل بين الأخلاق والسياسة ٠ وكان من بين هؤلاء فى القرن العشرين (الأنبياء غير العزل) أمثال : ستالين ، ومصطفى كمال أتاتورك ، ولينين ، وهتلر ، وموسولينى ٠

وسوف نقتصر فى الحديث عنهم على (نبى القومية) فى شرائعها الماكيافللية الفاشيستية الرومانية ، وعلى (نبى القومية) فى شرائعها الماكيافللية النازية البروسية • والأول هو (الدوتشى بنتو موسولينى) ، الذى حصل عام ١٩٢٤ على درجة الدكتوراه من جامعة بولونيا ، برسالته التى كان موضوعها « تعليق عام ١٩٢٤ على (كتاب الامير) » لأستاذه ماكيافللى ، حيث اعتبر هذا الكتيب « ظل رجل الحكم » • ولأهمية ذلك رأينا أن نجعل مقدمة هذه الرسالة موضوعا لفصل ثامن •

★ ★ ★

ولكى نبدأ لابد من أن نتساءل بادىء ذى بدء فنقول : هل استعان موسولينى استعانة واعية ، وهو يبتعث (الفاشيس) Fasces ، أى العصى التى كان يحملها (اللكتور الرومانى) Lectores رمزا للقوة والسلطان أمام رئيس الدولة الأعلى ؟ وهل دولة موسولينى التى جاءت بتحول كبير فى مصير أوروبا ، نبعت من معين الدولة عند ماكيافللى فى كتابه (المطارحات) Discourses ،وموجز هذهالتساؤلات يقول:هلاستوحى موسولينى ماكيافللى مباشرة ، بينما الذى قيل فى هذا الشأن ، ان الكتاب الذين تأثر بهم موسولينى هم : جورج سوريل George Sorel ونيتشه ، وبيجى Peguy ، وبرجسون •• ولكن ماكيافللى ؟
- هل كان ماكيافللى أول ما قرأت ؟ كان هذا هو نص السؤال الذى وجهه اميل لودفج Emile Ludwig الى موسولينى فى قصر البندقية • فكانت اجابة موسولينى كالتالى :

— « فى الليل ، كان أبى يقرؤه علينا ونحن نطلب الدفء حول بقايا (الكير) ، ونحن نشرب نبيذنا الوطنى • وعندما أعدت قراءته فى سن الأربعين تأثرت أيضا بالكتاب تأثرا قويا » •

ولا شك فى أن المقالة التى كتبها « الدوتشى » عن مؤلف « كتاب الأمير » عام ١٩٢٤ فى مجلة جراركيا Gerarchia

تنسب الى هذه القراءة الثانية التى اعترف بها موسولينى لاميل لدفج ٠ ولا ريب فى أن موسولينى قد أخلص فى تلك الفترة لماكيافللى وتعاليمه، وخاصة « لمبدأ الفرصة » الذى نادى به ٠ ففى نهاية الحرب العالميـــة الأولى ، لم يكن للحزب الفاشستى أى وجـود الا فى رأس صـــاحبه ٠ ولكن موسولينى شعر بأن الوقت قد حان وأن الفرصـــة قد لاحت ليعد الايطاليين لمصيرهم الجـــديد ، وأعـــرب عن ذلك فى خطاب له فى بولونيا بمناسبة الذكرى الثالثة لدخول ايطاليا الحرب (مايو ١٩١٨)٠ قال الدوتشي : ان قول «ماكيافللى فى الباب السادس من (كتاب الأمير) ، »

« عن هؤلاء الذين وصلوا الى السلطان بقدراتهم الخاصة ، مثل موسي »
« Moses وقورش Cyrus ، ورومولوس Romulus ، وتيسيوس»
« Theseus ، يمكن أن يطبق ، لا بالنسبة للأفراد فحسب ، ولكن »
« بالنسبة للشعوب أيضا ،اذ قال ماكيافللى : اذا فحصنا حياتهم وأعمالهم»
« فسوف نرى أنهم لم يدينوا بشىء للحظ ، ولكن الفرصـــة هى التى »
« وهبتهم المادة التي صاغوها فى الصورة التى رأوها مناسبة ٠ فلو لم »
« تكن الفرصة لضاعت قدراتهم هباء ، ولو لم تكن قدراتهم لأصبحت »
« الفرصة دون جدوي » ٠

والحقيقة أن روح ماكيافللى تمكنت من نفس موسولينى ، وخاصة فى الأساليب التى طبقها لكى يصل الى الحكم ٠ فعنـــدما اندلعت نار الثورة البلشفية فى حطام أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى ، لم يكن من المستطاع حصر آثار هذه الثورة الاجتماعية حصرا تاما ، ودفعـــة واحدة ٠ وكان لابد من انتشارها فى ايطاليـــا بين أبنائها ، خاصـــة أن الايطاليين قد قاسوا من أهوال الحرب الشىء الـــكثير ، ووجـــدوا أنفسهم فى النهاية يفوزون بخيبة الأمل ، وبفضلات الموائد والمؤتمرات السياسية٠وفضلا عن ذلك كانت الحالة الداخلية يرثى لها ــ فالضرائب باهظة، وأثمان الأغذية مرتفعة، والوقود نادر٠فولد كل ذلك فى النفوس السخط على الحكومة ، وقوى روح التذمر، «وغدا اسم لينين محبوبا بين الجماهير، »
« ووزعت صورة هذا المبعوث الروسى فى كل مكان ، وتلا الاضراب »

« الاضراب ، وسخر الناس بجنود الحرب القدامى فى الشوارع(١)»٠وفى غضون هذه الأزمة التى كادت تسلم ايطاليا تسليما للبلشفية دون عناء نجد موسولينى بدلا من أن يهاجم الحركة العمالية مباشرة يؤثر سياسة التزلف اليها والسير فى ركابها الى حين ، وكتب بتوقيعه فى الايام الأولى لاحتلال المصانع : « يجب ألا يغادر العمال مواقعهم قبل أن » « يحصلوا على ضمانات »(٢)٠

ولكن هل يمكن أن نجد علاقة قوية مباشرة بين مذهب ماكيافللى ومذهب موسولينى خاصة وأن البحث الذى ظهر فى « الجراركيا » ، الذى سبقت الاشارة اليه ، لم يكن ، كما يقول « الدوتشى » نفسه ، سوى وصل بين حياته التى حياها كرئيس دولة وبين مذهب ماكيافللى ، وليس بتقريظ تلميذ لأستاذه ؟

فالسياسة الاقتصادية من خصائص الفاشستية الرئيسية ٠ فهى التى نظمت العلاقات بين رأس المال ، والعمل،والانتاج ، والاستهلاك ٠ وهذه مسائل اقتصادية لم توضع فى مكانها بالفعل الا منذ قرن من الزمان ٠ واذا كانت القومية الماكيافللية لها صبغة عسكرية ، ولم تعرف مسألة تجنيد النساء ، أو توجيه النشء فى ساحات الألعاب الرياضية ، الا أن هذه الأمور جميعها هى تجديدات من صنع موسولينى ٠ ولكن هل كان شكل الحكم المطلق عند موسولينى يسير طبقا لأفكار ماكيافللى ؟

يقول موسولينى : نعم ، وذلك فى مقاله فى « الجراركيا » ٠ واجابته على هذا السؤال اتهام قاس للديمقراطية ، وثناء عاطر على الدكتاتورية ، وادانة للحكم الشعبى ٠ وأساس هذه الاجابة ، كما يظهر، فقرة وردت فى كتاب « المطارحات » لماكيافللى تقول : « البشر لا يأتى «أى خير أبدا الا بالضرورة ، ولكن حينما تتوفر الحرية ، وحيث »

---

(١) هـ٠ا٠ل٠ فيشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٦٠٠

(2) Comte Sforza : Les bâtisseurs de L' Europe moderne

« يمكن أن توجد الفوضى ، يتشبع كل شيء في الحال بالاضطراب » « وعدم النظام » . وهذا الحكم ذو الصبغة التشاؤمية ، الذى أصدره ماكيافللى على البشر جميعا ، هو الفكرة الأولى التى أبقى عليها موسولينى فى مقالته . وفضلا عن ذلك ، نرى موسولينى يعلق عليها فى موضع آخر ويقول : ولكن ربما كان يجب على أن أزيد من أهمية هذا الحكم .

ان موسولينى يعطى أهمية أكبر للنتائج التى استخلصها من ماكيافللى ، وذلك عندما يضعها أساسا لمذهبه السياسى، ويرفض أن يسمح للشعب بالاشتراك فى الحكم .

لقد كشف ماكيافللى عن مبادىء الجمهوريات ومزاياها ، ومضار الفوضى وعلاجها ، ومزايا النظم المطلقة ومبادئها ، ووصل الى حد القول _ وكان يستطيع موسولينى أن يقتبس منه هذا القول ليعزز به رأيه فى رسالته العلمية _ ألا وهو أن شعبا ما من الشعوب، له حكومة تدير شئونه ادارة صالحة ، لا يتطلع الى حرية أخرى ، وقولا آخر يقول : انه عندما نفسد دولة من الدول فسادا كبيرا فيجب أن يصبح حكمها حكما مطلقا . وهذا هو دواء فسادها الأنجع من كل دواء آخر ، حتى من الحكم الديمقراطى نفسه . ولم ينس ماكيافللى ، من جهة أخرى ، أن يزن الحجج المعارضة . وهذا يدل ، بالاضافة الى كثرة الفقرات التى ترد فى كلامه فى هذا الصدد ، على أن ماكيافللى كان باحثا محايدا بالنسبة لهذه الأفكار ، ولكنا نجد ميزانه يميل فى النهاية نحو الجمهورية . ويوضح ذلك توضيحا مبينا قوله : « كان الشعب الرومانى ، الذى ظل عدوا للملكية أربعمائة عام ، يحب عظمة وطنه وصالحه العام » . فهو لا يوصى بالدكتاتورية . ولكنه يعترف بسلامتها وضرورتها فى أحوال معينة وبشرط أن تكون « وقتية ولأجل مسمى » ، ثم تزول بزوال الطوارىء التى دعت اليها . ويرى ماكيافللى أن الدولة الصالحة النظام انتهت مع قيصر، على الرغم من أنه فى نظر ماكيافللى ، كان ممن هدموا الجمهوريات ، ومن أصحاب السمعة السيئة . ويقابل ماكيافللى بينه وبين من قدموا الخير للانسانية، وبينه وبين الذين أرسوا قواعد الدول. أما قيصر

فهو عند موسولينى على عكس ذلك. فهو أجمل « صورة » مجسمة للقوة الرومانية ، وأعظم شخصية فى التاريخ . ولقد قامت المجلات والصحف الايطالية فى أدوار مختلفة بدراسة قيصر ، وتحليـــل عبقريته ، ورفع شـــأنه ، والاشادة بعظمته . واحتلت صوره أماكن الصـــدارة والشرف فى روما . ولم يتورع « الدوتشى » نفسه عن أن يتقمص شخصية قيصر !

وسر اختلاف نظرة ماكيافللى الى قيصر عن نظرة موسولينى اليه، هو أن الأول كان يعتبره أول القياصرة الذين غمـــروا روما بفيض من الفساد والانحلال، بينما يعتبره الثانى صورة العظمة قبل فترة الانحلال، وذروة المجـــد الجمهورى . « ففى الجمهورية حيـاة المواطن ليســـت الا من حياة الدولة ، وعندما تغير هذا الأمر فى عهد الأباطرة كان هـــذا هو الانحلال . أجل ، هذا ما تريد الفاشستية أن تصنعه من كتلة الشعب، أى من تنظيم الحياة الجماعية(١)».

ويهمنا أن نحدد هنا معانى الأوتوقراطيـــة ، والجمهـــورية ، والديمقراطية . ان العبارة « أنا الدولة » ، التى تنســـب الى لويس الرابع عشر ، تلخص الروح الأوتوقراطية الخالصة.ولقد ذهب موسولينى الى عكس ذلك حين قال : «الشعب هو الدولة،والدولة هى الشعب»(٢). « فالدوتشى » ، اذن ، أوتوقراطى جمهورى ، يأبى أن يشترك الشعب معه فى الحكم . ولكنه يدعو أفــراد الأمة الى أن يهبوا النفس والنفيس قربانا للصالح العام،وهذا هو الذىيجب بدوره أن يكرس من أجل الشعب. أما ماكيافللى فيميل الىأن يكون للشعب نصيب فى الحكم ، أو على الأقل فى الاشراف عليه ، لأنه جمهورى على الطريقة الرومانية ، حيث كان الفرد قبل كل شىء مواطنا ، واجبه أولا وأخيرا تكريس وجوده البدنى ووجوده الروحى من أجل الصالح العام ، ومن أجل الأوصياء عليه ، أى حكامه الصالحون . لأن فكرة الخير فى ذاته ، كما يرى ، يلخصها مبدأ خدمة الجماعة خدمة حقة . ويجب ألا يخفى علينا فى هذا المقام أن قول موسولينى المشهور الذى يجعل « الدولة هى الشعب » ، و«الشعب

1. Mussolini, cité par Emile Ludwig

(٢) من خطاب لموسولينى عام ١٩٣٤

هو الدولة » يبين لنا تأرجح عامـــل الكتلة الشعبية فى ميزان الحياة السياسية . وهذا العامل كان نتيجة مباشرة من نتائج الثورة الفـــرنسية التى يذهب الفاشسيتون على اختلافهم الى رفض مبادئها ، وعدم قبول مثلهـا .

اذن ، فلا هوة غير معبورة بين الفاشتسية والديمقراطية ، ولكن هناك دربا يوصل كل منهما الى (القيصرية) ، نقطة البـدء فيـه ديمقراطية الشعب وهى الأصل . وهذا الأصل سمى باسماء من اختيار كل عصر وحسب هواه . فكان تارة (الروبيكون) Robicon ،وأخرى (١٨ برومير) Brumaire ، وتارة ثالثة (الثانى من ديسمبر)، وتارة رابعة (الزحف الى روما). وظهر (الروبيكون) عندما أعلن (السناتو) أن من يعبر بجنوده نهر (الروبيكون) يعد خائنا للوطـن والجمهورية . فلم يأبه (قيصر) بذلك ، وعبر النهر فى ليلة ١١/١٠ يناير عام ٤٩ق.م، فاضطر (بومبى) Pompey (القنصل الوحيد) والحاكم الدستورى الشرعى الى الخروج من ايطاليا . ولقد قال (قيصر) أثناء عبوره النهر عبارته المشهورة : (تقرر المصير) alea lacta est . وصفوة القول ، فقد قلب (قيصر) دستور روما الذى خدمها خمسمائة عام ، بينما كان لايزال ملأ من وجهاء نبلائها يكن لهذا الدستور الولاء النقى العميق .

وظهر (١٨ برومير) عند عودة (بونابرت) من مصر ونزل فى (فريجى) Fréjus فى أكتوبر ١٧٩٩ ، ونقل مقر اجتماع مجلسى الخمسمائة والشيوخ الى حدائق سان كلو Saint Cloud فى السنة الثامنة للجمهورية فى ٩ نوفمبر ١٧٩٩ ، وطوق الجنود المسلحون المجلسـين مجتمعين ، وطرد الأعضاء من قاعة الاجتماع وألغى المجلسان ، ووافقت البلاد بأغلبية كبيرة على دستور جديد ، ومنـح (نابليون) بوصـفه (القنصل الأول) سلطات مطلقة خلال عشرة أعوام تلت ذلك . وهكذا قلب (نابليون الكبير) حكومة الادارة وأقام حكومة القنصلية .

وكان ثالث هذه الانقلابات أى (الثانى من ديسمبر) هو الانقلاب الذى دبره الرئيس (لويس نابليون)بدهاء وقوة حانثا بيمينه الدستورية،

ومنتهكا حرمة الدستور ، وذلك ليجعل من نفسه (سيد فرنسا) ٠ وقد تم هذا الانقلاب فى الثانى من ديسمبر عام ١٥٨١ ٠

أما رابع هذه الانقلابات التى ذكرناها ، فكان (الزحف الى روما) واحتلال الفاشستيين روما فى ١٧ أكتوبر ١٩٣٢ ، عندما رفض الملك اعلان الحكم العرفى بناء على طلب (فالتا) ٠

وحين نلقى الضوء على هذه الانقلابات نقول : أن (نابليون الكبير) و (نابليون الصغير) و (موسولينى) ، وغير هؤلاء ، اما أن لهم تكوينا ثوريا ، أو أنهم انطلقوا من صفوف الشعوب ، فكانت جميع ميولهم واستعداداتهم منذ بدء حركاتهم متمشية مع مثلهم العليا التى أوصلتهم الى السلطان ٠ الا أن ثمة ضرورات كالقدر قاهرة ملحة بالنسبة لهم ، يلخصها « حق الدولة » الذى لم يكن لهم سابق تجربة به ٠ فاضطروا اضطرارا الى التحرر من قيود المثل والى مصادرة حرية الشعوب فى كثير من الأحيان ٠ ولم يكن ذلك منهم الا من أجل غاية واحدة هى الدولة ٠ فمنطقها ، أو منطق حاجاتها من السيادة والبقاء والأمن وصلاح الحال ، هى التى دفعتهم الى استغلال كل وحدة من وحدات طاقات شعوبهم استغلالا يجعل الحرث جميعه ، وكذلك الغلة جميعها والخير العميم للمحصول كله ، تأتى خيرا عاما للجميع ، فى كل شبر من ارض الوطن ، وذلك فى النهاية ٠

وماكيافللى لم يفته ملاحظة تحول الديمقراطية الى الأوتوقراطية ، أو العكس ، حيث قال : هذه هى الدائرة التى تدور فيها جميع الجمهوريات (الدول) ٠ ويعلل هذه الظاهرة بتطور الدول الطبيعى الى الانحلال والفساد ٠ فحكومة الشعب تنحدر الى الفوضى ، والملكية تسقط فى الطغيان ٠ والدواء الفعال لفساد التعاليم الجمهورية ، عند ماكيافللى ، هو « اصلاح دورى » للدولة ٠

يقول ماكيافللى الذى لم ينقطع موسولينى عن الاستشهاد به فى مواضع متفرقة ، وذلك فى الباب الثالث من « المطارحات » : « من الضرورى لمن يعد جمهورية ويضع فيها نظما ، أن يفترض

أن البشر جميعا خبثاء ، ومستعدون دائما لاستخدام ميل نفوسهم الى الشر حينما يجدون فرصة مواتية لذلك » . ونجد موسـوليني يخص الشعب بهذا الميل الفطرى الى الشر ، بينما ماكيافللى يعممه على البشر جميعا ، حكاما ومحكومين . وهذا هو السر فى اهتمامه الزائد بالبحث عن جميع الوسائل التى تقى الحاكم شر الطبيعة البشرية ، وشر تقلبها، وشر ميولها الأنانية ، وفى اهتمامه بدراسة جميع الوسائل الصحيحة التى تكفل « للمراكز الموجهة » للدولة أن تؤدى وظيفتها على أكمل وجـه دون أى اضطراب يجىء فى صورة ثورة أو انقلاب . وهذا بدوره هو سر تحبيذه لمبادىء معينة مثل « محاكم الشـعب » ، لتحمى الشـعب أو أى مركز من مراكـز القـوة من سـوء اسـتخدام للسلطة . اذن فثمة اختلاف بين فكرة ماكيافللى وفكرة موسولينى عن شكل الحكم. وعلى الرغم من أنهما يسيران فى طريقين مختلفين، الا أننا نجد طريقيهما يتلاقيان فى النهاية عند نقطة واحدة هى : الفرد لا شىء ، والدولة كل شىء . وهذه النقطة بدورها صورة جديدة تمخض عنها تفكير العصور الحديثة .

ان الدولة والوطن ، تبعـا لماكيافللى وموسولينى ، هما الخـير الأسمى الذى لا يفتقر الى أى تبرير . فالأول يقول : و « عنـدما يتعلق الأمر بسلامة الدولة بصورة مطلقة يجب ألا ننغمس فى أى اعتبار آخر». والثانى يقول : «ان الدولة توجد القانون باعتبارها ارادة خلقية شاملة». فالدولة لهـا روح خاص بـها ، فهى توجد من أجـل الأفراد ، وانما الأفراد هم الذين يحيون من أجل الدولة . والخير ، عند ماكيافللى ، هو ما يحقق نفعا لها أو مصلحة ، والشر عنـده ، وجميع ما يتنافى مع الأخلاق ، هو الذى يضر الدولة ويفسدها . وهنا نجد ماكيافللى يصل الى حد تغيير المعـانى . فيغير الخـير الى الوطنيـة ، والأخـلاق الى أخـلاق المواطن المثالى الذى يحترم القوانين . أما الشـر فهـو السعى وراء ارضاء النزعات الأنانية التى لا صلاح للجماعة فى ارضائها . أننا بازاء « أمر أخلاقى مطلق » بالمعنى الماكيافللى . وهذا الأمر ، كما يقول (اروكلى) ،لم يطبقه رئيس من رؤساء الدول بقوة فاقت قوة تطبيق موسولينى له . فهو الذى جعل الحياة تدب بالفعل فى أوصال هـذه الفكرة. وهو الذى بعثها وجعلها حقيقة واقعة. ان موسولينى هو صاحب

الفضل فى ذلك ، ففرض الايمان بالأمة كجماعة فوق الجميع فرضا ، وجعلها غاية عليا فوق جميع الغايات . وجعل منطقها المنطق الوحيد الذى يجب أن يبرر جميع أعمال البشر . ولم يكن لموسولينى مورد فى ذلك سوى ماكيافللى .

ان لويجى فاكلى Luigi Vacchelli يربط ربطا وثيقا ومباشرا بين المبادىء الفاشستية وفلسفة ماكيافللى ويقول : ان جميع الوسائل يجب الأخذ بها لضمان سلامة الدولة وعظمتها . وهذان أمران يجب أن يوضعا فى اطار مقدس، يعلو كل اطارات الأخلاق الجارية . وواجب الحاكم أن يطبق القوانين المستمدة من عالم الواقع الذى يحيا فيه ، ولا تنتسب من بعيد أو من قريب الى أى عالم آخر حتى لو كان عالم الأخلاق . أى واجب الحاكم ألا يهمل حسابا للقوى الواقعية ، والا ضل السبيل وسط غيوم الصور المجردة ، كيلا يكلفه السير فى غير طريق الواقعية الهلاك . ان فن الحكم يتجلى فى معرفة الطريقة العملية الصحيحة لاستغلال جميع قوى الأفراد وقدراتهم الروحية والمادية ، وعصرها حتى القطرة الأخيرة لكى نصنع منها نهرا يجرى دون توقف فى مجرى ينتهى دائما عند الدولة المستقلة ، والقوية الحرة ، والعادلة ، الهانئة . ان الدولة كيان عال قوى له وجوده بالفعل ، وهو فوق كل ما عداه . وهى التى توجد القانون ، وتهمل كل مالا يكسبها قوة ونماء وعلاء وثراء وبقاء ، وترمى به بعيدا عنها .

الدولة فى النظام الفاشستى كل شىء . وثمة أمثلة كثيرة لتطبيق هذا المبدأ فى السياسة الداخلية . فالدولة هى التى تنظم النشاط الاقتصادى . وهى التى تنظم التجارة . وهى التى تنظم الانتاج الفكرى . وهى التى تنظم الانتاج الفنى ... الخ . وجميع هذه التنظيمات لم يكن فى مقدور ابن عصره أن يتنبأ بها . وزيادة على ذلك فثمة حقيقة جديرة بالملاحظة ، وهى أن نظرة كل من ماكيافللى وموسولينى الى الدين واحدة . ان ماكيافللى لم يخصص للدين أقل من خمسة أبواب متتالية من كتابه « المطارحات » ، كما سبق القول فقال : أن رجل الدولة يجب أن يحمى الدين ويرعاه ، حتى لو كان يعتبر مثل هذا

الدين فاسدا باطلا ، فالدين لازم للدولة لكى يســاعــدها على تحقيق أغراضها • وهو مطلــوب ليحقق لها النفع ويدعمها ، ويعود عليهــا بالفائدة • وأصلح الأديان ، فى نظره ، هو الذى يخلق من أبناء الوطن جنودا ومواطنين ، لا رهبانا وقديسين• ولهذا كانت أديان القدامى فوق المسيحية وأقوى منها وتفوقها • وواجب الدولة ، الذى يجب الا تهمل فيه أدنى اهمال ، الا تتردد أبدا فى فــرض ســـلطانها على رجال الدين ، وأن تدفعهم دفعا الى تحقيق رسالة الدولة وأغراضها عن طريق العقيدة والايمان •

ولقد كان لموسولينى مواقف ضد الاكليروس معروفة • وعلى الرغم منها ، فقد عمل على رفع شأن الدين فى ايطاليا ، واعلاء مكانته بين الايطاليين ، وذلك دون أن تصــل هــذه المكانة الى قمة الجماعة • فوضع « الدوتشى » لرجال الدين حدودا دقيقة • ورســم لهم حظيرة لا يجوز لهم الخروج عنها • فعين لهم مهمة هى جزء من تربية الشبيبة الفاشستية • وهذا الجزء لم يكن ليجعل رجــال الــدين بأية حــال أصحاب السلطة الأولى ، وانما كان الأمر غير ذلك • لقد كان الدين ناحية من بين نواحى كثيرة للدولة ، وليس هو كل شىء • وجميع هذه النواحى كانت مجرد وسائل وأساليب ، أما الغاية المنشودة فهى وحيــدة ، وهى الدولة•لقد جعل موسولينى لرجال الدين صفا بين صــفوف حمــلة «الفاشيس» ليتكاتف الجميع على حملها • ان الدولة الفاشستية كاثوليكية، ولكنها فاشستية فى جوهرها ، دما ولحما وعظما وروحا • ولا تشكل الكاثوليكية فيها سوى جزء يتكامل مع أجزاء أخرى غيره ، لتكون فى النهاية وحدة منتظمة متكاملة هى الدولة •

قال موسولينى فى خطاب له فى أول أغسطس عام ١٩٣٤ ، وهو يعتلى دبابة عند بدء المناورات الكبرى : « ان حيــاة الأمة السياسية » « والاقتصادية ،والروحية ، بكلها وكليلها ، يجب أن توجه الى نقطة » « واحدة وتلتقى فيها ، وهى حاجاتنا العسكرية » • وفى بحر عــام أو يزيد من هذا التاريخ ، أى فى وقت الحملة على الحبشة ، سار تجنيد الوعى الايطالى جنبا الى جنب مع التجنيد العسكرى وفى الوقت نفسه•

«فكلف» رجال الدين ، كما «يكلف» الرجال العسكريون تماما ، بتعبئة الرأى العام على طريقتهم . واستطاعت « التربيونا » Tribuna أو المنبر ، أن تصدر الى الجمهور الايطالى فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٥ ليقرأ أبناء الوطن الواحد : « ها هو ذا لأول مرة يأخذ القساوسة والأساقفة أماكنهم جهارا ، ويصبح لهم اثر فى قضية سياسية تشغل ايطاليا . وأخيرا يوجد القس والأسقف الايطاليان اللذان يعرفان فى الوقت المناسب ، وضع القوة التى تستمد من وظيفتهما السامية التى يمارسانها فى خدمة المصالح القومية » .

أليست هذه ساعة عزيزة على ماكيافللى ، وحبيبة الى نفس هذا « الوطنى العظيم » ؟ لقد عدنا الى حيث « استخدم الدين لقيادة الجيوش ، واحياء نفوس العامة ، والمحافظة على الناس اخيارا»(١) . لقد رجعنا الى العصر الذى استفاد فيه الرومان من الدين لكى « يعيدوا تنظيم المدينة،وللتوفيق فى مشروعاتهم،وليقضوا على الاضطرابات»(٢) .

★ ★ ★

يقال : « للقلب أحكامه » . فالعاطفة لها منطق يخضع له البشر أحيانا ويهتدون بهدية فى سلوكهم دون العقل . واذا صح ذلك ، فيجب علينا أن نبحث قليلا فى تاريخ روما حيث عاش ماكيافللى بقلبه وعقله ، وحيث رفت نفسه حالمة بالعظمة الرومانية القديمة . ان ماكيافللى وموسولينى جعلا من نفسيهما شاطئين لمجد روما ، ثم صنعا أيضا قنطرة توصل بين الشاطئين ، شاطىء ماكيافللى وهو عشق الواقعية ، وشاطىء موسولينى وهو عشق الروح الرومانية . وكانت واقعية الأول توصل الى رومانية الثانى ووسيلة لها ، ورومانية الثانى قبلة لواقعية الأول . فعند هذين الايطاليين نجد أفراطا واضحا فى هذه النواحى لا يقف عند حد، وهما يفكران فى السياسة . ونجد ايمانا قويا بمنطق (حاجات الدولة)

1. Discours, I, 2
2. Discours, 1, 13

يصل الى حـــد الزهد فى كل منطق آخـر . فمنطهما يظهــر فى غالب الأمر فى صورة قسوة عابسة غير مقبولة تنفـر الناظرين ، الا أن هذه القسوة لا موضع فيها للتقاعس أو الاهمال فى (حق الدولة) . فهذا أو ذاك كانت تحترق نفسه شوقا الى أن تمتلىء جميع نفوس المواطنين قـدره رومانية ، وعظمة رومانية ، ومجدا رومانيا ، ونظاما رومانيا . ولا غرو فى هذا الشوق ، فهما يعتبران جنسهم الأصلى وريث الأمجاد فى التاريخ البشرى . ولو فرض أن بعث ماكيافللى حيا ، وخرج من تابوته وقبره ، وذهب ليشاهد زحف « الكادرومفير » Quadrummvir »(١) الى المدينة الخالدة ، و « الدوتشى » يخطب فى « الفورم » فى آلاف من الشبيبة الايطالية ، وقد اصطفوا كتائب وفرقا على الطـريقة الرومانية تحت أعلام رومانية ، لوجد « ماكيافللى الوطنى العظيم » نفسه ، يرفع يده فى خفة ولا شعور بالتحية الرومانية على طريقة المبارزين الرومان ، وهم يحيون قيصر قبل المبارزة أمام مقصورته قائلين : « سلام على قيصر ... ان هؤلاء الذين سيموتون يحيونك »(٢) .

ولكن ، وما أقسى مرارة هـذا اللفظ هنا ، غابت عـن بال موسولينى حكمة لماكيافللى كثيرا ما اقتبسها « الدوتشى » ، ولا أدرى كيف غابت عنـه وهـو الذى ضمنها رسـالته لنيل الدكتوراه ؟ أجل ، انه هو الذى عرفها معرفة سرى تيارها فى شعيرات تلافيف مخه فى أيام كفاحه السياسى الأولى ، وهو يخطو أول خطواته نحو الحكم ، وعرفها وهو فى منتصف الطريق . ولكنها غابت عـن وعيه حين اطمأن الى فتنة السلطان ، ونشـوة الحـكم ، وسـكرة النفوذ . وكان الأولى والأجدى له الا تغيب عن باله فى لحظات حرجة من حياته . قال ماكيافللى :« من

---

(١) تكون « الكادرومفير » من أربعة تحت رئاسة موسولينى فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٢٢ ، وهو تاريخ المؤتمر الفاشستى فى نابولى . وهؤلاء الأربعة هم : ميشيل بيانكى Michel Bianchi ، وايطالو بالبو Italo Balbo ، ودى بونو Di Bono ، ودينوجراندى Dino Grandi

2 Ave Caesar (ou Imperator). morituri te salutant

الضرورى لمن يعد الجمهورية وينشىء فيها نظما أن يفترض أن جميع البشر خبثاء ، وأنهم مستعدون دائما لاستخدام ميل نفوسهم الى الشر حينما يجدون فرصة مواتية لذلك »(١) . كما غابت عنه حكم أخرى ساقها ماكيافللى فى « كتاب الأمير » ، وكان الأجدر بموسولينى أن يذكرها أنى كان وأنى نزل ، ويتبعها كما يتبعه ظله ، فيعمل حسابا للصعوبات التى توجد حقيقة فى الملكية الجديدة ... فان اضطراباتها تنبثق أولا من صعوبة طبيعية توجد فى جميع الممتلكات الجديدة ، حيث نجد الرجال يغيرون حكامهم راغبين أملا فى تحسين أحوالهم(٢) . « .. فمثل هذا الأمير (أى الحاكم) لا يستطيع أن يعتمد على ما يراه فى أوقات الهدوء والسكينة ، حين يكون المواطنون فى حاجة الى الدولة ، فحينذك يبذل كل فرد الوعود بكثرة ، ويكون مستعدا لافتداء الأمير بحياته ، فالموت بعيد . ولكن عند الطوارىء حين تحتاج الدولة الى المواطنين ، فلن يجد منهم الا القليل(٣) ... » . وذلك « ... لأن المرء الذى يريد أن يحترف الخير فى كل شىء سرعان ما يرتطم بما يدمره بين الأشرار وهم كثيرون جدا(٤) » . « ان البشر يتردد فى ايذاء من يحب أقل من تردده فى ايذاء من يهاب ، لأن رباط الالتزام بالحب الذى يبقى عليه ينقطع فى كل فرصة من فرص مصلحتهم ، لأن البشر أنانى(٥) » . أجل ، غابت عن موسولينى جميع هذه المعانى فى ساعات هى فى حكم ماكيافللى تجارب شديدة الخطر ، بعيدة الأثر ، لا تعود ولا تتكرر ، بل تقع مرة واحدة ، ولا تكلف الانسان سوى شىء واحد ، وهو حياته ... !

نسى موسولينى كل هذه الأحكام التى لم يأت بها ماكيافللى من خياله ، انما استقرأها استقراء فى ماضى الانسانية ، وفى

---

(١) (المطارحات : الكتاب الثالث

(٢) « المطارحات » ، الكتاب الثالث

(٣) « كتاب الأمير » ، الباب التاسع

(٤) « كتاب الأمير » ، الباب الخامس عشر

(٥) نفس المصدر ، الباب السابع عشر

(التاريخ الواقعى) . ولكن الطمأنينة لدغت «الدوتشى» دون أن يعرف أن الطمأنينة ،على حد قول شكسبير ،تكون أحيانا من ألد أعداء الانسان. فالأكف التى صفقت لموسولينى بالأمس هى التى صفقت لمن سبقوه قبل الأمس. وأن من رفع معه اللواء بالأمس ، هو نفسه الذى حمل اللواء لمن سبقوه قبل الأمس . ان البشر « خبثاء » ، وويل للسياسى من « هـذا النوع الملعون » ، كما قيل .

كما نسى « الدوتشى » أن يعى ما كان يمكن أن ينصحه به ماكيافللى مما لا يتصل من بعيد أو من قريب بالأكف والتصفيق ، أو بالتزلف وبالهتاف ، وانما هو مستمد ، كما قلنا ، من حقائق ووقائع تاريخ الانسانية وأحداثه ، وأورده ابن فلورنسا فى « تيتوس ليفيوس » فى عبارة تقول : « ولا تنسق وراء عظمة قيصر » « حين تسمع الكتاب يمجدونها . ان من أثنى على قيصر قد أفسده » « مال قيصر الذى اشتراه به ، وضاع حقه فى أن يتحدث عنه حديثا » « حرا . فلو أردت أن تعرف ماذا قال فيه الكتاب الأحرار فانظر » « قولهم فى كاتلينا Catilina ، وانظر أيضا كم من قلائد الثناء » « قلدوا بها بروتس Brutus » . وهل كان يستطيع « الدوتشى » أن ينظر بعينى ماكيافللى ليستشف المستقبل ، ليرى الفصيلة الثانية والخمسين من قواته المسلحة الايطالية نفسها تبحث عن قافلة موسولينى ومن معه وهى تتجه هروبا نحو كومو Como ، والنعاس يغالبه بجانب السائق فى أحد « اللوريات » التابعة للجيش الألمانى ، وهو يرتدى معطفا من معاطف هذا الجيش ، وخوذته مائلة على رأسه ، وعيناه وراء منظار كبير ، وبين ساقيه مدفع رشاش . وكاد أن يفلت ، لولا أن القدر دفع أحد المواطنين الى أن يتقدم اليه بالذات وينزع عنه نظارته ويصيح فى رفاقه : « انه...هو ! » . فيرفع موسولينى فى التو يديه استسلاما، بينما هذا الايطالى يصوب مسدسه الى صدر زعيمه ! هل كان يستطيع أن يعلم « الدوتشى » مع ماكيافللى ألا ضير عند بعض أتباعه ، فى لحظة من اللحظات ، فى أن يوثقوه أمام جدار ويعدموه ، ويتركوا جثته بجوار

جثة عشيقته فى العراء تحت المطر زهاء ساعتين ، ثم تحمل جثته مع جثث أخرى للفاشستيين من دونجو وتفرغ فى حظيرة للسيارات فى نابولى كانوا هم والنازيون قتلى اليوم قد اختاروها بالأمس ليعدموا فيها خمسة عشر من المواطنين ؟ . « ان البشر خبثاء » ، وويل للسياسى من « هذا النوع الملعون » . ان « الناس جميعا يجحدون المعروف » .

هذا موقف الدوتشى من ماكيافللى ، فما موقف « الفيـــرر » أو (الزعيم) أدولف هتلر ؟

فى ألمانيا عام ١٩٣٣ نجد التضخم النقدى ، ثم الرخاء الظاهرى نتيجة لانتعاش الصناعات انتعاشا ظاهريا ، وانشاء المصارف ، وتأسيس المصانع ، بسبب القروض التى منحت لألمانيا . ولكن الهزة المالية العنيفة التى وقعت فى نيويورك عام ١٩٢٩ اقتضت سحب الأموال الأمريكية من ألمانيا فأخذ بناؤها الاقتصادى يتهاوى . فأعيد قفل المصارف ، وطـــرد العمال من المصانع . فقل الدخل ، وتضـــاءل الربح ، وأصبحت أولى المشكلات التى واجهتها الوزارة الألمانية حينذاك ايجاد عمل لقرابة سته ملايين من العمال العاطلين ، وضرورة موازنة الميزانية . وزاد الطين بلة صرخات المتعطلين المريرة فى الشوارع ، وهم يحملون اعلام الشيوعية الحمراء ، واكتساح دعاية لبقة لألمانيا تعـــــرب عن جميع ألوان الآلام والاستياء التى كانت حبيسة فى صدر الأمة الألمانية وقد غدت كالقطيع بلا راع . أجل ، ان ألمانيا اليوم فى حاجة الى « زعيم » يهديها سواء السـبيل .

فبدت هذه الظروف فرصة لظهـــور آدولف هتلر ، ذلك « المبعوث النمسوى المغمور » الذى بدأ بتنظيم حزبه النازى ليحقق تطهير ألمانيا من اليهود ، وســحق الشيوعية ، وبعث الشعب الألمانى ، واحياء أمجاد الفرسان التيونون ، وبث الكثير من الروح البروسية العسكرية فى نفوس الشباب الألمانى . فلم تفته هذه الفرصة ، وبدا يشــن حمـــلات خطابية أستمرت أربعة عشر عاما ، بعد ما فشل فى الوصول الى الحكم عن طريق فتنة عسكرية ، وتنظيم الارهاب بجرأة عنيفة ، والسيطرة سيطرة كاملة

على الرعاع والكتلة الشعبية بكتائبه المؤلفة من « جنود الهجوم » ذوى القمصان السمراء . وفى النهاية نصب نفسه مستشارا (للرايش الألمانى) فى يناير عام ١٩٣٣ ، وتحطمت سفينة جمهورية فيمار Weimar وسط الاعصار النازى الجبار ، الذى كان يبرق بمبدأ سلطان الدولة على الجميع . وهو مبدأ نادى به (هيجل) ، ومارسه (بسمارك) ، وبشر به (ترايتشكى) ، واستدعى (فوتان) Wotan ليكون الها قيوما للدين النازى ، بديلالدين المسيح عيسى بن مريم .

واستولى هتلر على رئاسة الجمهورية عند موت هندنبرج فى ٢ أغسطس عام ١٩٣٤ ، وظل محتفظا لنفسه بمنصب المستشارية . وكانت وسائله حملات من الارهاب دامت طويلا ، كان منها حرق الريشستاج (٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣) ، و « حمام الدم » لكتم أنفاس زعماء حزبه القتلة الآثمين ، واحرقت جثثهم (٣٠ يونيو ١٩٣٤) . ولم تشأ الأمة الألمانية أن تتذكر ولو طرفا قصيرا من هذه الخطايا ، بل كأنها ما كانت، وغفرتها له بحماس شديد ، فهو « الزعيم » . وهو صاحب نظام قومى من أدق النظم ، وهو المبشر بدولة واحدة ، دينها واحد، وتحيتها واحدة، وصيغة هذه التحية نفسها واحدة. وهذه أمور لا تنزل من العقل الجماعى الألمانى الا مُنزلة المزنة الهاطلة من النباتات المتعطشة الى الرى والحياة .

★ ★ ★

فكان من أقواله : « ان الأمة التى تنكر عليها حقوقها قد تستعمل »
« أى سلاح حتى سلاح الميكروبات ، وليس فى نفسى ذرة من الشك فى»
« ذلك ، وسأستعمل أى سلاح احتاج اليه » . « وعندما أغامر بالحرب »
« يافورستر ، فستظهر الجيوش على حين فجاة ، فى وسط أوقات »
« السلام ، فى باريس مثلا . وهم يرتدون ملابس فرنسية ، ويسيرون »
« فى الشوارع فى رائعة النهار، ويحتلون الوزارات، ومجلس النواب،»
« وفى بضع دقائق يختطف من فرنسا وبولندا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا »
« زعماؤها وقادتها ، ويصبح الجيش الفرنسى بلا قيادة له ، وقد أبعد »
« جميع الزعماء السياسيون عن الطريق . ولكنى سأكون قد أنشأت قبل»

« ذلك بوقت طويل علاقات مع الرجال الذين سيؤلفون حكومة جديدة، »
« حكومة توافق أغراضى » . « وسنجد أمثال هؤلاء الرجـــال ، »
« سنجدهم فى كل مملكة ، ولن نحتاج الى ارشائهم ، فسيحضرون من »
« تلقاء أنفسهم ، فالطمع والغرور والنزاع الحزبى والبحث عن المجد »
« الشخص سيسوقهم الينا». «وماذا كان من أمر بريطانيا ؟ ألم تنل »
« امبراطوريتها بالسرقة والاغتصاب ؟ فهل كان ذلك (سياسة تحالف) »
« أما كان قوة قاهرة؟ «لقد فقدت الوصايا العشر قيمتها». «ان الضمير»
« اختراع يهودى».و«اذا كان هؤلاء السادة بآرائهم البالية يتصورون »
« أنهم يستطيعون الاستمرار فى اتباع سياسة التاجر الامين الذى لا يريد »
« أن يخدع جمهور عملائه ، وأن يحرصوا على أن تكون خطوطهم »
« موافقة للسابقات وما تعارفوا عليه ، فدعهم يتابعون سياستهم هذه ،»
« أما أنا فان ما يعنينى هو سياسة القوة ، وأعنى بذلك أن أستعمل »
« كل الوسائل التى تبدو لى أن من الممكن الاستفادة منها ، دون أقل »
« اهتمام بمراعاة خصائص الوسائل أو باتباع قانون الشرف . واذا »
« جاء الناس يشكون من هذه الأساليب عندى ، كما فعل ذلك الرجل »
« هوجنبرج وقبيلته ، ويدعون أننى لم أحترم الوعود التى أعطيتها »
« لهم ، وأننى لا أعبأ بالمعاهدات ، وأننى أسير على سياسة دعامتها »
« الحيلة ، وخداع الناس ، والتظاهر بغير الحقيقة ، فسوف أجيب »
« قائلا : حسنا ، وماذا فى ذلك ؟ فأنتم أحرار فى أن تفعلوا كما أفعل،»
« فلا أحد يمنعكم عن ذلك ، فاذا وجدنا من هو مستعد لأن يخـــدع »
« نفسه ، فلا يجوز أن يندهش اذا رأى الناس يخـــدعونه » . « فى »
« فترات التاريخ الكبرى تسقط الأشياء التافهة فى الهــواء ، ويحكم »
« الساعة ناموس الحياة الأعلى ». « اننى أعيد الى القوة كبرياءها »
« الأصيل ، ذلك الكبرياء الذى هو أساس كل عظمة ، وفيصل كل نظام»
« وضع » . « اننى لا أعترف بقانون أخلاقى فى مسائل السياسة . »
« ان السياسة لعبة يسمح فيها بكل أنواع الحيل ، وتتغير فيها قواعد »
« اللعب على أيدى اللاعبين أنفسهم حتى توافق أهواءهم » . « وليست»
« عندى أية رغبة فى الظهور بمظهر من يحتقر القانون الأخلاقى أكثر»
« مما يحتقره غيرى من الرجال . فلماذا أسـهل على النــاس السبيل »
« لمهاجمتى ؟ أستطيع بسهولة أن أعطى سياستى لونا من الأخـلاق ، »

« وأظهر سياسة خصومى سياسة منافقة . ان القواعد الخلقية العامة »
« ضرورة لابد منها لجماهير الشعب ، وليس ثمة خطأ أكبر من سياسى »
« تمثل نفسه فى نظر الناس كما لو كان (انسانا أعلى) يحتقر الأخلاق »
« المتواضع عليها ، ان هذا لعبة جنونية » . « ان أولئك المسئولين »
« عن التاريخ قد أصبحوا ظاهرين أكثر فأكثر لأعين التقويم العالمى ، »
« وبناء على ذلك يجب أن يكونوا أحرارا كالآلهة من رقابة الجماهير ، »
« فغرضهم الأعلى ، وغرضهم الأوحد ، فى كل ما يقدمون عليه يجب »
« أن يكون الاحتفاظ بسلطتهم . وطريقنا هذا ليس معبدا . ولست »
« أعرف حالة واحدة وصل فيها رجل الى السلطة دون أن يخوض فى »
« الأوحال » . « ونحن راضون أن نترك لحلفائنا أن يتدثروا بقواعد »
« الأخلاق » .

ومن أقواله أيضا : « ثلاث نقط أساسية فى دعوتنا هى : المزايا »
« العملية ، والألفاظ المعسولة ، والأطماع ، أى ارادة الوصول »
« الى الحكم » . « ان واجبى على أية حال ليس أن أجعل الرجال »
« أحسن مما هم ، ولكنه الاستفادة من ضعفهم » .

وقال فى الخوف والمحبة : « لا يمكن أن تحكم الدنيا الا بالخوف ، »
« ألم تروا قط جمهورا من الناس يتجمع ليرقب مشاجرة فى الطريق »
« العامة ؟ » . الوحشية محترمة ... والناس محتاجون الى الخوف »
« الجماعى ، ومحتاجون الى أن يخافوا شيئا ما » . « اننى أمنعكم »
« أن تغيروا شيئا ، فلتعاقبوا بكل وسيلة واحدا أو اثنين حتى يمكن »
« أن تنام تلك الحمير الألمانية الوطنية هادئة ، فالفزع هو أشد »
« الأدوات السياسية تأثيرا . يجب أن نكون قساة . ويجب أن يطمئن »
« ضميرنا الى القسوة ، وبهذا وحده نستطيع أن نطهر الشعب من نعومته »
« وعواطفه المخنثة ، وانحداره الى لذة غب البيرة ، فلم يبق فى وقتنا »
« متسع للعواطف الرقيقة . يجب أن نرغم شعبنا على السير فى طريق »
« العظمة اذا كان لا بد له من أداء مهمته التاريخية » .

« ان الحكم والمحافظة على النظام لا يمكن أدراكهما بدون اكراه » . »

« ان كل نظام جديد يبدو كما لو كان استبدادا .... » . « لا أحب »
« أبدا معسكرات الاعتقال والبوليس السـرى وما شاكل ذلك ، ولكن »
« هذه الأمور هى فى الواقع ضرورات لم يكن عنها محيص » . « ان »
« واجبى أن أنتفع بكل وسيلة لتقوية الشعب الألمانى بالقسوة والعنف »
« ولأعده للحرب » .

وفى الوفاء بالوعد فى السياسة قال : « اننى مستعد لأن أضمن »
« جميع الحدود ، ولأن أعقـد اتفاقات عدم اعتـداء ، وأن أبرم »
« محالفات ودية مع أى انسان . الامتناع عن الانتفاع بمثل هـذه »
« الاجراءات ، لا لشىء سوى أن الانسـان قد يسـاق الى موقف »
« يضطر فيه لأن ينكث بعهد مقدس هو مجرد سخافة . لم توجد قط »
« معاهدة أقسم عاقدوها على احترامها لم تخـرق يوما ان قريبا أو »
« بعيدا ... انه لا يوجد شىء اسمه محالفة أبدية ، فالرجل الذى يبلغ »
« به احساس الضمير الى حد أن يمتنع عن توقيع معاهدة رجل أبله ... »
« لماذا لا أعقد اليوم اتفاقا بنية حسنة ثم أخرقه فى الغد دون تردد ، »
« اذا تطلب مستقبل الشعب الألمانى هذا الخـرق ؟ » . « سأعقد أى »
« محالفة أنا فى حاجة اليها ، وهذا لا يمنعنى أبدا من أن أعمل فى أى »
« وقت ما أراه ضروريا لمصلحة ألمانيا . ولم كل ذلك ؟ هذا من أجـل »
« الأمة الألمانية ووحدتها » .

وقال أيضا «يجب على أولا أن أخلق الأمة حتى قبل أن أبدأ فى »
« معالجة الواجبات الوطنية التى نواجهها وليس هناك سوى حق واحد»
« شرعى هو حق الأمة فى أن تعيش » .

« ان من الخير لنا أن نفكر فى رذائل البشر بدلا من أن نفكر فى »
« الفضائل » . « لقد نادت الثورة الفرنسية بالفضيلة ، فمن الخير أن »
« نفعل العكس». «ولا يكفى أن ندرس رذائل الكتلة الشعبية،فان دراسة»
« رذائل الرجال الذين هم على القمة أهم بكثير » . « ان المعـرفة »
« الكاملة الدقيقة لكل خصم من خصومى ورذائله أول شرط لنجاح أية »
« سياسة » . « اننى متهم بأنىأحطت نفسى بعناصر دافعة ذات أطماع،»

« أى هراء ! ٠ هل كان على أن ابنى (الرايش) بالأخوات المقدسات ؟ »
« اذا لم يكن الانسان طموحا فأنا لا أريده ... » ٠

ومن أقواله فى الدين ، ونظرته مع اتفاقها مع نظـــرة ماكيافللى فيها اختلاف : « ان رجال الدين سواء ، ولا عبرة بما يسمون أنفسهم »
« به ، فلا مستقبل لهم ، وبخاصة الألمان منهم بالفعل ٠ وقـــد تتفق »
« الفاشستية ، اذا هى شاعت ، مع الكنيسة ، وكذلك أفعل أنا ، ولم »
« لا أفعل ؟ فهذا لا يمنعنى من أن أمزق المسيحية أصلا وفرعا ، وأن »
« استأصلها من ألمانيا ، فالايطاليون قوم سذج، وهم أهل لأن يعتنقوا »
« الوثنية والمسيحية فى وقت واحد ٠٠ لكن الألمانى على خلاف ذلك ،»
« فهو جاد فى كل أمر يطلع به ٠ وهو اما مسيحى أو وثنى ... هذا »
« الى أن موسولينى لن يستطيع أبدا أن يخلق من الفاشستيين أبطالا ٠٠»
« أما فيما يتصل بقومنا فان أمرهم حاسم ، سواء اعترفوا بالعقيـدة »
« اليهودية المسيحية بما فى تعاليمها الحنونة من رخاوة وخنوثة ، أم »
« اعترفوا عن قوة وبطولة بالله فى الطبيعة ، أو بالله فى شعبنا ، وفى »
« مصيرنا ، وفى دمائنا » ٠ « الانسان اما أن يكون مسيحيا أو ألمانيا ، »
« ولا يمكنك أن تجمع بين الأمرين ، وليس لنا حاجة الى هؤلاء الناس»
«الذين يتطلعون الى الحياة بعد الموت ٠ ولكننا نـــريد رجالا أحرارا »
« يشعرون ويعلمون أن الله فى أنفسهم ، فالقيامة لن تعنى بعد اليوم »
« البعث والنشور ، ولكنها التجديد الأبدى فى شعبنا ٠ وهل تظنون أن »
« هؤلاء الرهبان الأحرار الذين أصبحوا ولا عقيـــدة لهم ، وأصبحت »
« المسألة وظيفة يؤدونها ، يمتنعون عن التبشير « بالهنا » فى كنائسهم؟»
« اننى أستطيع أن أضـــمن ذلك ... سيستبدلون بصليبهم صليبنا »
« المعكوف ، وبدلا من أن يخدموا مخلصهم القديم سيعبدون دم شعبنا »
« النقى الصافى،وسيتلقون ثمرات الأرض الألمانية هبة مقدسة كما أكلوا »
« حتى الآن من جسد الههم » ٠

« والكنيسة الكاثوليكية شىء كبـــير حقا ٠ فلمـــاذا وعلى أى »
« نظام تقوم ؟ لقد عاشت حتى الآن ما يقرب من ألفى سنة ! فيجب »
« أن نتعلم منها ٠ انها تعتمد على الدهاء ، وحسن الحيلة ، والعلم »

« بالطبيعة البشرية . فالقسس الكاثوليك يعرفون من أين تؤكل الكتف . »
« ولكن يومهم قد انتهى ، وهم يعرفون ذلك . لأنهم أذكى جدا من »
« ألا يدركوا الحقيقة فيشتبكوا فى معركة ميئوس منها ، ولكنهم ان »
« فعلوا وغامروا ،فمن المحقق أننى لن أجعل منهم شهداء وقديسين ، »
« فسنسمهم بسمة المجرمين العاديين ، وسأنزع قناع الشرف والأمانة »
« عن وجوههم » .

هذه بعض أقوال هتلر . ولو نظرنا فيها لوجدنا فى يسر المعانى الماكيافللية منطوية فيها ووجدنا موقفه من الأخلاق والسياسة واضحا ، وأمكننا ردها مباشرة الى أقوال ماكيافللى نفسه . الدولة كل شىء . والضرورة لا تعرف منطقا غير منطقها . والغاية فى السياسة تبرر الوسيلة . والبشر خبثاء . وهم عموما يجحدون المعروف . ويترددون فى ايذاء من يخشون أكثر مما يترددون فى ايذاء من يحبون . والأنبياء العـزل يهلكون . والترف مدمر للدول ، وهو العلة الأولى لسقوطها ، بينما فن الحرب يعين من يجيده على نيل السلطان . ومن السهل أن نجعل شعبا يؤمن بأمر ما ولكن من الصعب الابقاء على ايمانه هذا ، ولذا وجب اعداد الأمور بحيث اذا ارتدوا عما اقنعناهم به استعملنا القــوة لنكرههم على الايمان الذى نريده . والأذى يجب أن يكون دفعة واحدة ، لأنه كلما قل تكراره قـل خطره . وشتان ما بين الحياة كما هى فى الواقع والحياة كما ينبغى أن تكون ، ولذا من يترك ما هو كائن الى ما ينبغى أن يكون انما يسـعى الى حتفه . ويجب على الحاكم ألا يعبأ بالتعرض لفضيحة الرذائل التى بدونها يصعب المحافظة على الدولة ، لأن الانسان اذا أمعن النظر ، وجد أن بعض الأمور تبدو من الفضـــائل ، ولكنها ترمينا فى التهلكة لو عملنا بها ، وبعضها يبدو من الرذائل ونتائجها سلامة للانسان أكبر ، وهناءة أعظم . والحاكم العاقل لا يعرف الوفاء حين يكلفه خسارة مصلحة له ، وذلك عندما تنتهى الأسباب التى دعته الى الارتباط به ، وفى هذه الحالة لا تعوز الحاكم الأعذار الشرعية اذ أراد أن يبرر عدم وفائه . ومن الضرورى أن يعرف الحاكم كيف يخفى هذه الرذائل فلا تظهر . وان من يخدع لن يعدم أبدا من يخدعه . فكل أمرىء يرى مايتظاهر به الحاكم وهو يحكم عليه

به ، فالقليل يعرف الحقيقة ، وهذه القلة لن تجرؤ على أن تعارض رأى الكثرة فيه .. الخ . وكانت هذه المعانى هى التى استخلصها ماكيافللى من التاريخ السياسى للبشر . فهل قــرأ « الفيرر » ماكيافللى وخاصة « كتاب الأمير ؟ » .

ـ هل قرأت مقالة سورل Sorel عن العنف ؟ هل سمعت عــن « دورة الصفوة » التى قال بها بارتو Pareto ؟ كان هذا نص السؤال الذى وجه يوما الى « انفيرر » . ولــكن هتلر كان يمقت مثلـ هذه الأسئلة ، ويعزف عن الاجابة عليها مباشرة ،ولكنه اكتفى حينذاك بأنقال : انه قد خصص جزءا كبيرا من وقته للقراءة فى هذا الموضوع ، وبعد أن كان يحيط علما بكل ما يقرأ ويكون لنفســه رأيا فيه ، لا يعنى بمعــرفة من أين استقى هذه الآراء ، الا أنه يســرع الى أن يكون « أول من ينفــذها جميعا على أساس عريض وبمثابرة غير فاترة » . لقد حبذ هتلر الحيلة والخداعكوسائل سياسية فعالة.هذا ،ولميكن يوافق بعض ممن كانوا حوله علىرأيهفىهذا الصدد فكانوايقولونله: انها أسلحةبحدين،والحيلة تستدعى الحيلة ، ولا تلبث أن تفقد تأثيرها ، وهذا بعث للماكيافللية . ولكن هتلر أجابوقال:«بعث للماكيافللية اذا شئت.لا أعتراض علىوصف نفسىبأننى» « تلميذ لماكيافللى » . « ولكننى أعتبر أننا وحدنا ، نحن الذين نعترف» « بالأساس الحيوى للسياسة ، هم الذين فى موقف يساعد على أتباع » « مثل هذه الخطط » . والثابت أن هتلر لم يقنع بقراءة « كتاب الأمير » فحسب ، بل قد توفر أيضا على دراسته كما صرح هو نفسه ، وقال أن هــذا الــكتاب من الضــروريات اللازمــة لــكل سياسى . فــكان يحتفظ به على المــائدة المجاورة لفراشه ، ويقال انه كان يضـعه دائما تحت وسادته . ويحدثنا البعض عن أن موســيقى فاجــنر Wagner و « كتاب الأمير » ، كانا من أهم مقومات شخصية الزعيم الألمانى . لقد وصف هتلر للبعض الراحة والحرية التى شعر بهما من جراء قراءة هذا الكتاب ودراسته ، اذ هو الذى حرره من نير العاطفة الغامضة التى كانت تقيده كسياسى بقيودها ،وتربك أفكاره وهو (صاحبنظامجديد) .كماكشف « الفيرر » لمحدثه فى حينه عن « كيف أن كثيرا من الميراث العاطفى

يعرقل خطونا فى كل شىء » . قال هتلر : انه لم يعرف شيئا عن حقيقة علم السياسة حتى قرأ كتاب (الكاتب الفلورنسى) . فالزعيم الألمانى كان يهتم بدراسة الرذائل البشرية ، وانشغل بدراسة الضعف الانسانى ». ولعل ايمان هتلر بفاعلية مذهب ماكيافللى فى غاب السياسة يظهر بوضوح فى نقده الغاضب للدبلوماسية الألمانية حينذاك ، وهى توجه دفة السياسة الخارجية الألمانية فى بدء عهده . فوصف مجهودات رجال وزارة الخارجية الألمانية وقتذاك بأنها « تخبط فى الظلام » ، مادام يعوزها (قلم مخابرات) بالمعنى الصحيح ، اذ يغلب عليهم الاعتماد على تقارير شكلية كلها قشور لا لب فيها،واستنتاجات غير مفيدة لا قيمة لها ، تصل من وقت الى آخر من السفارات فى الخارج. فكان هتلر لا يرضى عن تلك القشور ، اذ كان يطمع فى معلومات موضوعية أدق ، ويرغب من صميم نفسه فى أن يعرف « أين يلقى اللورد فلان شباكه ، ومن هى عشيقة » « فلان ، وما هو مدير شركة كذا ؟». «ان وزارة الخارجية كلها معنية » « بالأوضاع الداخلية وبالمشكليات».والواقع أن (قلم المخابرات الألمانى) ، كان ضعيفا وقتذاك حين استلم هتلر مقاليد الأمور فى ألمانيا،فأراد أن يعيد تنظيمه ليأتى بالفائدة المرجوة ، ويصبح « مماثلا لـ(قلم المخابرات البريطانى) « هيئة منظمة تؤدى الواجب بحماسة ورغبة » . وعلى كل حال ، فان من يريد تفصيلا أكثر فى هذه المسألة ، فعليه أن يرجع الى تقدمتنا لترجمتنا العربية ، لكتاب الدبلوماسية للسير هارولد نيكولسون، وتعليقنا على نصوصه ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .

★ ★ ★

هذه بعض اقتباسات من أقوال « الفيرر »،توضح لنا قوة حماس هتلر كمريد لشيخه ماكيافللى ، وتبين ما وجده (هتلر) فى مبادىء « السفير الفلورنسى » من حلول لمشاكل السياسة ووقائعها وأحداثها . ولم تكن حلول ماكيافللى عند الزعيم الألمانى ساذجة جوفاء واهمة ، أو ذات قيمة تافهة ، بل وجد هذا « الزعيم » أن الخسران فى عدم السير فى موكب أتباع ماكيافللى ومريديه ، ولذا توفر على السير فى فلكه .

ولكن ، يا للقمة من هول اغراء النفس ، ومن هول نسيان من يصل اليها لنفسه . وطوبى لمن يؤتى الحكمة والاتزان وهو يعتلى القمة . وويل لمن يسكره النصر ، وقد بلغ أعلى القمم ! ان المغالاة فى وسائل الاستيلاء والسيطرة ، فى نظرنا، تجعله ينزلق ويقف من جديد ويعود الى صفوف حشود البشر وجماهيره كأى فرد عادى كما كان من قبل. فالافراط كالتفريط فى هذا الشأن. وكلاهما أمر غير مرغوب أمام منصة الحكمة عند الحكام . وهما يؤديان الى الحضيض بعد حين . اذ الحكمة ضرورة للقوة ، وضرورة للنصر الدائم . ولقد نسى هتلر جميع ذلك ، وهو قوى شديد ، ونسيه وهو عال وحيد ، ونسيه وهو ظافر عنيد ، فكان لابد له من الحكمة وعدم الاسراف والتطرف، لكيلا يدمر نفسه بنفسه ، وهو يسرع الخطو الكثير والسريع ويوسع خطوته . فكانت العاقبة أن انفرجت ساقاه وتعطل مسيره ، وشلت حركته ، وأصبح فى النهاية المقعد الأسير . الصعود باستمرار علو واقتراب من القمة واحتلالها ، ولكن القمة نقطة ، والاسراف فى اتخاذ اتجاه واحد للوصول اليها دون تغيير للاتجاه كوسيلة قد يؤدى الى الهبوط والانحدار من القمة من ناحية أخرى . ألا يصل الانسان حين يتحرك من أى مكان ما على سطح الأرض ، دون أن يغير الاتجاه ، الى المكان نفسه الذى بدأ يتحرك منه ؟ ان الفضيلة تقع بين رذيلتين ، وأى اسراف فى فضيلة يؤدى الى رذيلة . فى الماء رى وحياة ، وبه غصص ، وفيه غرق . فى الدواء مع الحكمة ومراعاة مقتضى الحال ، صحة وسلامة ، وفى الاسراف فى تناوله أسقام ومنية . ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . لقد نسى هتلر كل ذلك ، وهو قوى شديد ، ونسيه وهو عال وحيد ، ونسيه وهو ظافر عنيد ، فخدم اسرافه هذا فى سياسة القوة أعداءه وأخذ يقترب من ساعة سقوطه . الاسراف فى استخدام القوة كالاسراف فى الجود ، « وليس ثمة ما يحطم نفسه بنفسه كالكرم ، لأنه كلما كان المرء كريما كلما فقد القدرة على أن يكون كريما » . لقد كان الأولى بهتلر ألا يسرف فى تطبيق مبدأ واحد هو مبدأ القوة ، وهو الذى كان تلميذا لماكيافللى ، بينما شيخه نفسه

---

* ارجع الى « كتاب الأمير » ، الباب السادس عشر

يحذر مريديه وتلاميذه من الحكام والرؤساء من السير على طريقة واحدة فى معالجة الشئون السياسية ، حتى ولو سبق أن حققت لهم النصر · لأن الظروف تتغير ، وسر الظفر هو مناسبة الوسائل لمقتضى الحال· وملخص رأى ماكيافللى فى هذا الصدد أن الناجح من الحكام من كان أسلوبه فى العمل والتصرف يتفق مع روح الوقت والعصر من حيث مستلزمات العمل ومجابهة الواقع فى حينه ،ومن يخيب هو الذى يتصرف بطريقة تخالف ذلك · فالزمن دائما فى تغــير · اننا نــرى رجلين حــذرين ينجح أحدهما فى نيل ما يريده ، بينما يفشــل الآخر فى تحقيق غرضــه · وكذلك يكتب النجاح على حد سواء لفردين طريقة أحدهما تغاير طريقة الآخر، وأحدهما يصطنع الحذر وسيلة ، والآخر يتخذ الاندفاع طريقة له· والسر فى جميعذلك هو مناسبة أساليب العملأو عدم مناسبتها فى حينها لطبيعة العصر الدائم التغير · وعلى ذلك ، وكما قلت ، نرى أن رجلين اتخذا وسيلتين مختلفتين يصــلان الى نتيجة واحدة ، وان فــردين آخرين يصطنع كل منهما وسيلة الآخر نفسها يصل أحدهما الى هدفه بينما لا يبلغه الثانى · ويزيد ماكيافللى هذه النقطة وضوحا بقوله : اننا لم نعثر على حكيم حازم حزما استطاع معه أن يكيف نفسه مع هذا الأمر ، اما لأنه كان ناجحا وهو يسلك طريقا واحدا بعينه،فلم يعد يستطيع اقناع نفسه بأن الأفضل ترك هذا الطريق ، أو لأنه لا يستطيع أن ينحرف عما أعدته به طبيعته وشخصيته من استعدادات وقدرات · ولذلك نجد أن الرجل الحذر حين يكون التعجيل بالعمل مطلوبا لا يعرف كيف يعمل ، وبالتالى يفشل ، لأن المرء اذا استطاع أن يكيف طبيعته مع الزمن فان حظه لن يتغير أبدا ·

ونحن نقول : ان هتلر كان ناجحا وهو يسلك « طريقا واحدا » ، وهو طريق القوة ، فلم يستطع أن يقول لنفسه : « ان الأفضل ترك هذا » «الطريق» حسبما كانت تملىالظروفوقتذاك·حقا، ان ماهية الدولة،كما يقول (ترايتشكى) هى القوة أولا، والقوة ثانيا، والقوة ثالثا » ، ولكن لم يغب عن بال هذا المفكر الكبير التحفظ لكى يضمن عدم سقوط الدولة « القوية » فى النهاية وتدميرها نفسها بنفسها ، فأضاف الى قوله السابق اضافة تقول : ولابد أن « تكون أغراضها أخلاقية »·

الفصل الثامن

« ظل رجل الحكم »

كان (كتاب الأمير) لأبى القوة (ماكيافللى) ، ومعه (موسيقى فاجنر) ، من أهم مقومات التطور الروحى لـ(الفيرر أدولف هتلر) أحد (الأنبياء غير العزل) فى القرن العشرين. وكان هذا الكتاب ، كما قال (الفيرر) نفسه ، هـــو الذى أطلعه وأقنعه بحقيقة السياسة بنية وأحشاء ،وخلصه وحرره من ثقل نير العاطفة وهى تعض أحاسيسه وشغاف قلبه كما تعض أمواج محيط هادر رمال شطئانه وذلك بطبيعة الحال،عندما أحس أن العاطفة تعوق خطواته وقفـــزاته ، وهو يتحـــرك ويحرك نظامه السياسى الجديد . فاذا به لا يعيب هذا الكتاب فى قليل أو كثير، بل أخذ ينكب على قراءته واستيعاب ما جاء فيه ، ويحتفظ به على مائدة مجاورة لفراشه أو تحت وسادته،وذلك لقراءته فى الفرصة التى تواتيه.واذا بأقواله فى الحكم والسياسة التى سردنا بعضا منها منذ قليـــل ، تنطق بوضوح دون أدنى لبس ، بتأثره بشيخه وأستاذه (نيقولا ماكيافللى) الذى فصل بين الأخلاق والســـياسة فصـــلا تاما فى (كتابه الأمير) بجرأة الريح فى عواصـــفه وزوابعه ، دون أى تحســـب لمـــا قـــد يشعله هذا الفصـــل من برق خاطف راعـــد عاصـــف ، فيعده الـــكثيرون من قبيل وقاحة سافرة لفـــكر مجنون أو من قبيل الشطحات الفكرية ، وليس بآيات واقع قبيح فى الســـياسة ، شاهدها (ماكيافللى) المدقق فى التاريخ ، عنـــدما قـــرع هـــذا الكاتب بابه ، لينفرد به وحـــده دون ثالث لهما ، ويطلع بفكره الثاقب المدقق ويقـــرأ أولا وبالذات بين سطور سجل (التاريخ الواقعى) ، لـ(الحيوان الســياسى بطبعه)أى

الانسان ، اتجاهات دروبه ومســالكه ، وسمات وسائله وحيله ، للوصول الى النصر ، فى حومة السياسة ، وهو يتحرك فيها كالسيل فى مجرى التاريخ . وكان من بين الأقوال المأثورة عن هــذا الزعيم الألمانى التى توضح مباشرة تأثره البالغ بشيخه وأستاذه (نيقولا ماكيافللى) ، قوله أولا بأنه « لا يعترف بقانون أخلاقى فى مسائل السياسة » ، و « السياسة لعبة يسمح فيها بكل أنواع الحيل » ، و « فيها تتغير قواعد اللعب على أيدى اللاعبين أنفسهم حتى توافق أهواءهم » . وقوله ثانيا بأنه « لم يعرف حالة واحدة وصل فيها رجل الى السلــطة دون أن يخوض فى الأوحال » . وثالثا قوله بأنه « يعيد للقوة كبرياءها الأصــيل ، ذلك الكبرياء الذى هو أساس كل عظمة ، وفيصل كل نظام وضع »». ويستشهد فى قوله هذا ببريطانيا فيقول : « انها لم تحصــل على امبراطوريتها الا بالسرقة والاغتصاب والقوة القاهرة ، وليس عن (طريق التحالف) ».

والحقيقة أنه تأثر أيما تأثــر بشــيخه وأســتاذه (نيقــولا ماكيافللى) ، وشيخ (الأنبياء غير العــزل) قاطبة وأســتاذهم فى القرن العشرين . ولكن يبدو أن (الدوتشى) ، قد فاق علميا والى حد بعيد (الفيرر) كمريد وتلميذ لـ (نيقــولا ماكيافللى) ، فهو ابن جلــدنه وبلده . فالزعيم الايطالى هو الذى اطلع فى وقت مبكر من حياته على فصل (الكاتب الفلورنسى) بين الأخلاق والسياسة فى (كتاب الأمير) ووالده يتلوه عليه كما سبق القول من ناحية ، ومن ناحية أخــرى فهو الذى حرص على أن يعيد قراءة هذا الكتاب قراءة واعية ليشارك الكاتب الفلورنسى) حلمه بروما المدينة الخالدة ومجدها القديم ، بينما كان موسولينى يبحث عن ذاته ويتساءل : (من أنا .. وما سأكون) ، أثناء تطوره الروحى ، حتى تشبع بفلســفة ماكيافللى ونظريته السياسية ، وأخذت بدورها تلعب دورها فى تكوين عقيدته السياسية،بينما ايطاليا عن بكرة أبيها حينذاك تفخر بولدى فلورنسا (دانتى) و (ماكيافللى) . فاذا بكتابات (السفير الفلورنسى) تســوق (الدوتشى) ، وهــو صـاحب نظام سياسى جديد أخذ يمارســه ، الى يقف فى طــابور طلاب الدراسات العليا فى جامعة بولونيا ، لينــال درجة الدكتوراه

برسالة علمية موضوعها ذلك الكتيب الصغير ، وهو أثر من آثار ماكيافللي الهامة والطريفة والجريئة ذات الشهرة المدوية ، و الذى صدر عنه فى عصر البعث الجديد وهو عصر النهضة . إنه (كتاب الأمير) الذى أعتبره هذا الزعيم (ظل رجل الحكم) * وذلك فى رسالته التى كان عنوانها ((تعليق عام ١٩٢٤على (كتاب الأمير) لماكيافللي) . ونظرا لأهمية هذا الكتيب ، سواء فى السياسة أو فى الأخلاق ، رأيت أن أفرد فصلا لما قاله (الدوتشي) فى شأن (كتاب الأمير) أثناء مناقشة رسالته الجامعية ، بوصفه صاحب هذه الرسالة وكذا صاحب نظام سياسى جديد شرع يمارسه . وهذا الفصل هو الفصل الثامن الماثل وعنوانه (ظل رجل الحكم)* . وإلى القارئ ما جاء به هذا الزعيم الإيطالى (بنتو موسولينى) فى مقدمة هذه الرسالة ، وهو يقف أمام منصة اللجنة الجامعية التى شكلت لمناقشة موضوع هذه الرسالة ، عندما أخذ يقول ما يلى :

« حدث ذات يوم أن أخبرتنى من امولا Imola فرق القمصان »
« السوداء أنى سأهدى سيفا نقشت عليه عبارة ماكيافللي وهى »
« (لا نحافظ على الدول بالكلام) . فوضع هذا حدا لترددى، وعين »
« مباشرة موضوع الرسالة الذى أقدمه اليوم إليكم لتصويتكم عليه، »
« وقد أستطيع أن أطلق عليه (ظل رجل الحكم)*. وفضلا عن ذلك ، »
« يجب أن أضيف للأمانة العلمية ، أن مراجع رسالتى قليلة،كما »
« سنرى فيما بعد . لقد قرأت (كتاب الأمير) وبقية مؤلفات »
« (الأمين العظيم) Le grand Secrétaire قراءة واعية . »
« ولكن الوقت والإرادة أعوزانى لكى أقرأ جميع ما كتب عن ماكيافللي »
« فى إيطاليا وفى العالم . إذ أردت أن أضع بينى وبينه اقل عدد من »
« الوسطاء القدامى أو المحدثين ، الإيطاليين والأجانب ، حتى لا أفسد »
« عملية الاتصال المباشر بين مذهبه وبين حياتى التى عشتها ، وبين »
« ما لاحظه هو وما لاحظت أنا عن البشر والأشياء ، وبين ممارسته »
« للحكم وممارستى له . إذن ، ما أشرف بقراءته عليكم ليس »
« باستطراد مدرسى فاتر حافل باقتباسات من الآخرين ، وإنما هو »

---

* Vademecum de l'homme de gouvernement

« بالأحرى كما أعتقد مسرحية ، وذلك لو استطعنا النظر بعين الإعتبار إلى أنـه »
« محاولة إقامة جسر روحى فوق هوة الأجيال بروح مسـرحى معين » .
« ولن أقول جديدا » .
« فالمشكلة هى : ماذا يبقى حيا فى (كتاب الأمير) بعد أربعـة قـرون مـن »
« الزمن ؟و هـل يمكن أن تكون لنصـائح ماكيافللى أيـة فـائدة لرجـال »
« الحكم المحدثين ؟ و هل قيمة المذهب السياسى لـ (كتـاب الأمـير) »
« وقف على العصـر الذى ألف فـيه ،وعليـه فـهى قيمـة محـدودة »
« بالضرورة ، وباطلة إلى حـد مـا ، أو هـى ليسـت شـاملة وواقعـية »
« وفعالة على وجه الخصوص ؟ إن رسالتى تجيب علـى هـذه الأسـئلة .».
« وإنى أؤكد أن مذهب ماكيافللى حى حتى اليوم بعد أربعة قرون . والسـبب »
« فى ذلك ، أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيرا كبيرا ، فـإن »
« التغيرات فى روح الأفراد والشعوب تبدو عميقة جدا » .
« وإذا كانت السياسة هى فن حكم البشر ، أو بعبارة أخـرى هى تربيـة »
« أهوائهم وأنانياتهم ومصالحهم ، بالنسبة إلى غايـات تمتـد إلى المسـتقبل ، »
« إذا كانت هذه هى السياسة ، فلا ريب أن الإنسان هو العنصـر الجوهـرى »
« لهذا الفن .ومن هنا يجب البدء بالتساؤل عمـا هـو البشـر فى المذهـب »
« السياسى لماكيافللى ؟وهل هـو حـين يقـول (البشـر) يتفـاءل أم »
« يتشـاءم ؟ وهـل يجب علينا أن نفسر هـذا اللفـظ بمعنـاه الضيـق ، »
« أى بالإيطـاليين الذيـن عرفهم ماكيافللى وحكم عليهم كمعاصرين لـه ، »
« أو بمعنى البشر فيما وراء الزمان والمكان ، وبعبارة مقدسـة نقـول : تحـت »
« (مظهر من مظاهر الخلود)*. وقبل الشروع فى تمحيص أكثر تحليلا لمذهـب »
« ماكيافللى السياسى كما يظهر لنا مركزا فى (كتاب الأمـير) ، يبـدو »
« لى أن مـن الواجب أن نتساءل بدقة : أى فكرة كانت عنـد ماكيـافللى »
« عن البشر عامة ، وعـن الإيطـاليين خاصـة ؟ أجـل ، إن النتيجـة »
« الواضـحة ، حتى من قراءة سطحية لـ (كتاب الأمـير) هـى تشـاؤم »
« ماكيافللى العنيف فيما يخص الطبيعة البشرية . انه يزدرى البشر ؛ شـأن »
« الذين أتيحت لهـم الفرصة للتعامل مع أندادهم معاملة رحبة ومتصـلة ، »
« فكان عليه أن يقدمهم إلينا فى مظاهرهم السلبية كأشد ما تكـون السـلبية »

---

*Sub specie œternitatis

« والدنيئة كأحط ما تكون الدناءة » .

«عند ماكيافللى ، البشر خبثاء ، يتمسكون بالمصالح المادية أكثر »
«من تمسكهم بحياتهم الخاصة ، وعلى استعداد لتغيير أهوائهم وعواطفهم .»
«ويعبر ماكيافللى عن فكرته هذه عن البشر فى الباب السابع عشر »
« من (كتاب الأمير) هكذا : (نظرا لأنه يمكن القول عن البشر عموما ، »
« إنهم يجحدون المعروف، ويهذرون فى الكلام ، ويظهرون غير ما يبطنون ، »
«ويقلقون على تجنب الخطر ، ويطمعون فى الكسب ، وطالما يستفيدون منك »
«فهم أعوانك تماما ، ويفدونك بالدم والمتاع والحياة والولد ، فالحاجة »
«إليهم بعيدة ، ولكن حين تقترب يغدرون بك ، فيهلك الأمير الذى يعول »
«على وعدهم دون أن يستعد بالعدد الأخرى . إن البشر يترددون فى الإساءة »
«إلى من يحبون أقل من ترددهم فى الإساءة إلى من يهابون ، لأن الالتزام »
«بالحب الذى يشد البشر ينقطع فى فرصة من فرص مصلحتهم ، »
«فالبشر أنانى . ولكن الفزع من العقاب الذى لا يخفق أبدا يحفظ الخوف).»
«وفيما يخص الأنانية أعثر بين (الأوراق المتباينة)* على »
«ما يأتى » :

«يعانى البشر من ملكية نزعت منهم عناء أكبر من موت »
« أب أو أخ ، لان الموت ينسى أحيانا ، أما الثروة فلا تنسى »
« أبدا. وسبب ذلك بسيط ، فالجميع يعلم أن تغيير دولة لا يمكن »
« أن يعيد أبا ، ولكنه قد يعيد ملكية . وفى الباب الثالث من »
« (المطارحات) أعثر على ما يلى ، و قد تبينه جميع الذين يفكرون »
«فى الحياة المدنية ،والتاريخ حافل بأمثلة لذلك . (فمن الضرورى »
«لمن يعد جمهورية ويقيم فيها نظما ، أن يفترض أن جميع البشر خبثاء ،وهم »
«دائما على أهبة لاستخدام خبث نفوسهم ، حين تسنح لهم فرصة »
«مواتية . إن البشر لا يعملون أى خير أبدا إلا بالضرورة . ولكن »
«عندما تتوافر لهم الحرية ، ويكون هناك فوضى ، يحفل كل شئ فى »
«الحال بالأضطراب وعدم النظام) . ومن الممكن أن تستمر الاقتباسات ، »
«ولكن هذا غير ضرورى . فالشذرات التى اقتبسناها تكفى لإثبات أن الحكم »

* Papiers diverses

« السلبي على البشر في ذهن ماكيافللي غير عرضي ، ولكنه حكم »
« جوهري وواضح أيضا أن ماكيافللي عندما يحكم على البشر مثلما حكم »
« عليهم لم يفكر فحسب في أبناء عصره من أهل فلورنسا و أهل »
« توسكانيا والإيطاليين الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل »
« القرن السادس عشر، وانما فكر في البشر كافة دون تحديد زمني أو مكاني . »
« أما بالنسبة للزمن ، فقد انقضت منه حقب ، ولكن لو أجيز لي أن على »
« أحكم أمثالي وأبناء عصري ، فلا أستطيع بأي صورة أن أضعف من حكم »
« ماكيافللي ، بل قد يكون من واجبي أن أزيد من أهميته، فماكيافللي نفسه »
« لا ينخدع ولا يخدع الحاكم ، والتعارض في فكر ماكيافللي بين الحكم »
« والشعب ، وبين الدولة والفرد* ، تعارض محتوم . وهذا ما سميناه النفعية »
« والبرجماتية و الكلبية و الماكيافللية ،التي تنبجس بصورة منطقية من هذا »
« الموقف المبدئي . ويجب أن نفهم أن كلمة (أمير) تعني »
« (الدولة) ، فعند ماكيافللي (الأمير) هو (الدولة) . وهي تمثل »
« تنظيما وتحديدا ، بينما الأفراد تدفعهم أنانية نفوسهم فيترعون إلى »
« الجمود الاجتماعي . فالفرد يترع باستمرار إلى الهرب ، ويميل إلى عدم »
« طاعة القوانين ، وعدم دفع الضرائب ،والإنخرط في التجنيد . وقليل »
« هم هؤلاء الأبطال والقديسون الذين ضحوا بمصالحهم على مذبح الدولة* »
« وغير هؤلاء في حالة ثورة كامنة ضد الدولة . إن ثورات القرنين »
« السابع عشر والثامن عشر حاولت أن تحل هذا الصراع الذي يوجد »
« عند قاعدة كل تنظيم اجتماعي للدولة ، بأن أظهرت السلطة كأنها »

---

*ويلاحظ من ناحية قول موسوليني أيضا في خطاب عام ١٩٣٤ : « الشعب هو الدولة ، والدولة هي الشعب » . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن ماكيافللي جعل التعارض بين الدولة والفرد تعارضا محتوما بالفعل ، بينما يجعل التعارض بين الدولة والشعب تعارضا معدوما على الإطلاق .

* لقد مثل ((الأنصار)) مع الرسول هذا الدور في الدعوة الإسلامية ، فقال لهم : (إنكم لتكثرون عند الفزع (أي الحرب) وتقلون عند الطمع ، أي عند توزيع الغنائم

«صادرة عن إرادة الشعب الحرة . وهذا خرافة . وفضلا عــن ذلــك فــهو »
«وهم . فأولا لم يمكن تعريف الشعب أبدا . فـــهذا الشــعب باعتبــار أنــه »
«كيان سياسى ، هو كيان مجرد تجــريدا بحتا . ونحـــن لا نعــرف معـــرفة »
« دقيقة من أين يبدأ ، ولا أين ينتهى . إن صــفة السيادة [illegible]
«الشعب سخرية مؤلمة. الشعب على أكــثر تقديــر
«لا يستطيع أن يمــارس فى الواقــع أية سيــادة
«تنســب إلــى الآلــية أكثر من الأخــلاق . وفى البــلاد نفســـها الــتى »
« تستخدم فــيها هذه الآليات أعظم استخدام منــذ قــرون، تــأتى عليــها »
«ساعات رسمية لا يطلب فيها من الشعب شئ أكثر من ذلك ، إذ نحس بـــأن »
«الجواب يمكن أن يكون مهلكا ، فتنزع من الشعب تيجان السيادة المصنوعــة »
«من الورق . وهـــى تيجــان صالحــة فى الأوقــات العاديــة ، فنــأمره أن »
« يقبل ثــورة أو ســلما ، أو الســير نحــو حــرب مجهولــة ، ولا إجــراء »
« آخر ، فــلا يكــون للشــعب ســوى الإقــرار و الطاعــة . فالســيادة »
« التى تمنح بلطف للشـــعب تســحب منــه فى اللحظــات الــتى نســتطيع »
« فيها أن نحــس بالحاجــة إليــها، وتــترك لــه فحســب عندمــا تكــون »
« غير ضارة ، أو ممــدوحة كذلك ، وبعبارة أخــــرى نقــول فى لحظــات »
«الإدارة العادية . هل تتصورون حربــا أعلنــت بــالرجوع إلى الشــعب ؟ »
«إن الاستفتاء يسير سيرا حسنا جدا حينما نكون بصدد اختيار أنسب مكـــان »
«لنقيم نافورة القرية فيه ، ولكن حينما توضع المصـــالح العليــا للشــعب فى »
«الميزان ، تتقى الحكومات فوق الديمقراطية نفســها أن ترجعــها إلى حكــم »
«الشعب بالذات . إذن هناك على الدوام صراع بين السلطة المنظمة للدولــة »
«وبين شرائح الأفراد والجماعات . وحتى فى النظم نفسها التى صنعتـــها لنــا »
«الانسيكلوبيديا **Encyclopedia** و أخطأت فيها عبر روسو بإسرافها المتفــائل »

«دون حدود ، لانجد نظما استحوزت على الموافقـــة المطلقـــة ، ويحتمـــل ألا»
« يحدث ذلك أبدا . لقد كتب ماكيافللي في (كتاب الأمير) ، وذلك منـــذ »
«مدة طويلة ، وقبل أن تصبح مقالـــتي هـــذه مشهـــورة* ، (وعـــلى »
«ذلك حـــدث أن انتصـــر جميع (الأنبياء غير العزل) ، وهلـــك (الأنبيـــاء »
«العزل) ، لأن طبيعة البشر متقلبة ،ومن اليسير أن نجـــعل البشـــر يؤمنـــون »
« بأمر من الأمور ،و لكن من العسير أن نبقى على إيمانهم هذا . ومـــن هنـــا »
«لزم أن نعد الأمور . إعدادا يمكننا من أن نستخدم القوة لنكرهم على الإيمـــان »
«عندما يرتدون عنه . فلو كان موسى ، وقـــورش ، وروموليـــوس عـــزلا ، »
«لعجـــزوا عـــن أن يجعـــلوا غيرهم يراعـــى دســـاتيرهم أمـــدا طـــويلا » .

* Forza e consenso

دليـــل الكتاب *

* عند الاسترشاد بدليل الكتاب تحذف (أل) من الكلمة . ويلاحظ أننا جعلنا مادة لحرف (لا) قائمة بذاتها علاوة على مادة حرف (اللام)

(أ)

(ث)

(ج)

(ح)

المراجـــع

١ــ العـــربية

ــ محمد مختار الزقزوقي : نيقولا ماكيافللي .

ــ السير هارولد نيكولسون : الدبلوماسية ، الترجمة العربيـــة والتصدير والتعليـــق لـــ/ محمد مختار الزقزوقي .

ــ هـــ . ا . ل . فيشـــر : تـــاريخ أوروبـــا فى العصـــر الحديـــث ، الترجمـــة العربية للأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع .

ــ هـــ . ج . ولـــز : معـــالم تـــاريخ الإنســـانية ، الترجمـــة العربيـــة للأستاذ عبد العزيز جاويد .

ــ أندريه موروا : بنيامين دزرائيلي ، الترجمة العربية للأستاذ حسن محمود .

ــ د . مصطفى الحفناوى : قناة السويس .

ــ مذكرات اللورد جراى : تعريب الأستاذ على أحمد شكرى .

ــ (كانت) : مشروع للسلام الدائم ، ترجمة الدكتور عثمان أمين .

ــ د. زكريا إبراهيم : (كانت) .

ــ د . عبدالرحمن بدوى : فلسفة الدين والتربية عنـــد (كانت) ، بيروت .

ــ (كـــانت) : تأسيس ميتافيزيقـــا الأخـــلاق ، الترجمـــة العربيـــة للدكتـــور عبد القادر مكاوى ، الكويت .

ــ ج . جرانت وهارولد تمبرلى : أوروبا فى القرنـــين التاســـع عشـــر والعشـــرين ، ترجمة الأستاذين محمد على أبو درة ولويس اسكندر .

ــ ليفى بريل : فلسفة أوجســـت كونـــت ، ترجمـــة الدكتوريـــن محمـــود قاسم والسيد البدوى .

ــ جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، ترجمة الأستاذ حسن جلال العروسى .

أبو بكر محمد بن زكريا الرازى : رسائل فلسفية ، طبعة بيروت وطبعة طهران .

ـ هـ . ا.ل . فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور القديمة ، للدكتورين إبراهيم نصحى ومحمد عواد حسين .

ـ اسكندر هادو وآخرون : السلام العالمى فى عصر الذرة ، ترجمة الأستاذ عثمان نوية .

٢ـ المراجع غير العربية

- Phyllis Doyle: History of Political Thought
- George Catlin: History of Political Philosophers
- W.T. Jones : Masters of Political Thought
- G.P. Gooch : Studies in Diplomacy and Statecraft
- Louis De Villffosse : Machiavel et Nous
- Carl Sforza : The living Thought of Machiavelli
- Niccolo Machiavelli : The Prince
- Niccolo Machiavelli : The Discourses
- Adolfo Oxilia : Machiavelli
- Ettori Janni : Machiavelli
- Comte Sforza : Les Batisseurs de L'Europe
- Kant : Eternal Peace
- Kant : Critique de la Raison Pratique, Traduction Française, Picavet

التصـــويب

رقم الصفحة	الخطأ	التصويب
٣	فكل مدينة	فى كل مدينة
١٦	ولحق	وحق الدولة الذى
٤٦	سكاها	سكاهما
٨٩	انظر صفحتى ٦٥ ، ٦٦	انظر صفحتى ٦١ ،٦٢
٩٨	العلم والتربية لم تكن	العلم والتربية لم يكونا
١١٣	أو غير الديمقراطى	أو الملكى غير الديمقراطى
١٢٦	تقوم (هيئة الأمم المتحدة)	تقوم (الأمم المتحدة)
١٢٧	عاودت	عاونت
١٢٨	انظر ص ١٢١	انظر ص ١١٧
١٣٥	أن يرجع إلى ص ٩٢	أن يرجع إلى ص ٨٨
	((تباغض وتعاد على حـــب الغلبة))	((تباغض وتعاد علـــى حـــب الغلبة))[٢]
١٥٨	(فكتوريا الملكة والإمبراطورية)	(فكتوريا الملكة والإمبراطورة)
١٦٢	أن قاربه	((أن قاربه
١٦٨	ارجع إلى ص ١٠١	ارجع إلى ص ٩٧
	ارجع إلى ص١٠٣	ارجع إلى ص١٦٤ ،١٦٦
	ارجع إلى ص١٠٢	ارجع إلى ص٩٨
	ارجع إلى ص١٠٣	ارجع إلى ص٩٩
	ارجع إلى ص١٠٧	ارجع إلى ص١٠٣
١٧٠	والرين	والراين
١٨٢	وسخر الناس بـــ	وسخر الناس من

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٨٢ لسنة ١٩٩٨
الترقيم الدولي I.S.B.N 977 - 05-1589-2

مطبعة
أبناء وهبه حسان
٢٤١ أ ش الجيش ☎ ٥٩٢٥٥٤٠